منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة، وكتاب العبر

د. محمد الطالبي

استاذ في كلية الآداب ـ الجامعة التونسية

لم يكن ابن خلدون مؤرخا كغيره من المؤرخين . والسبب الاساسي في ذلك هو أنه لم يكن مؤرخا فحسب . كان أيضاً مفكراً ، بل انه كان مفكرا قبل أن يكون مؤرخا . وكان ابن خلدون خاصة ـ وهذا مالا يؤكده أبداً بما يكفي من الالحاح ـ رجلا من رجال السياسة ، من أولائك الرجال الذين برزوا الى الميدان ، وجربوا مسؤوليات الاحكام وخيباتها ، في أوضاع اشتد تعقدها في فترة حاسمة من فترات الحضارة العربية الاسلامية .

ومما يجب أن نؤكده أيضاً هو أن تكوين ابن خلدون لم يكن ، انطلاقا وباديء ذي بدء ، تكوين مؤرخ . ان كل الكتب التي كتبها قبل المقدمة تدل على خلاف ذلك . كان اتجاهه اولا نحو الفلسفة باشراف استاذه الابلي (١) . فلخص في سن العشرين من عمره ، مؤلف الرازي : (كتاب بمحصل أفكار المتقدمين والمتاخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين (٢) وقد بلغنا هذا الملخص بخط ابن خلدون (٣) ، وهو (لباب المحصل في أصول الدين) ، وطبع بتطوان سنة ١٩٥٢ وله كتب اخرى (٤) واكبت الفترة الاولى من حياته كلها تدل على أن همه لم يكن في التاريخ ، كما أنه استقر في النهاية بالقاهرة كقاض واستاذ يدرس الفقه المالكي والحديث (٥) ، لا علوم الماضي .

ان التقاء ابن خلدون بالتاريخ كان اذن عرضا في حياته ، ومنعرجا مفاجئا بقدر ما كان حاسما . هذا المنعرج كان في ملتقى طريقين : طريق المغامرات السياسية وطريق التامل في الماضي قريبه وبعيده . فالطريق الاولى قد سلكها بنفسه ، وحط رحاله في المغرب في كل مراحلها التي تسودها المؤامرات ، والاغتيالات ، والخيانة ، والانتصارات الفاشلة ، والاجهاضات . والطريق الثانية تلوح متشابكة المسالك ، ملتوية الممرات كثيرة المتاهات ، معقدة في

صعودها ونزولها ، في أضوائها وظلماتها . وقف ابن خلدون في ملتقى الطريقين يتأمل . فبعد أن ارتمى في النشاط السياسي بكل ما يملك من اندفاع الشباب وحماسه وطموحه ، وبكل ما يوفره له رصيد اسرته ، أراد ـ وقد نيف عن الاربعين ـ ان يعتبر ويفهم . فاعتزل طوال اربع سنوات (٧٧٦ ـ ٧٨٠ / ١٣٧٥ ـ ١٣٧٩) بقلعة بني سلامة (٦) ، وهكذا التقى ـ بل قل اصطدم ـ بالتاريخ . ولم تكن هذه العزلة ـ كما قد يتوهمه البعض ـ تقية سياسية بقدر ما كانت لحاجة نفسانية ملحة قد سبق أن راودته من حين لآخر (٧) .

أحس ابن خلدون بالحاجة الى الفرار من الضوضاء ، والى محاولة فهم ما كان يجري من أحداث . وكيف تفهم الاحداث ما لم توضع في احداثيات الزمان والمكان ، أي في اطارها التاريخي ، وهكذا أصبح ابن خلدون مؤرخاً . لم يكن التاريخ من قبل حرفة له ، ولم يسبق أن ألف فيه قط . ولم يكن التاريخ في الحقيقة قصده المباشر كغيره من المؤرخين ، وهم كثرة ، وانما كان وسيلة لقصد ابعد ؛ كان التـاريخ أداة للاجـابة على تلك الاسئلـة الكثيرة والملحة التي كانت تشغل باله . فالتاريخ بالنسبة اليه لم يكن غاية ونهاية في حد ذاته ، كما هو الشأن بالنسبة للمؤرخين المحترفين .

ولقد بقي ابن خلدون يتذكر جيدا تلك الحالة النفسانية ، أو الروحانية، التي اعترته وهيمنت عليه في عزلته ، حين كانت تجيش في خلده المعاني التي افرغها في وعاء المقدمة على شكلها الاول حين تدفقها ، ثم ما فتىء فيما بعد يهذبها ويضيف اليها الى آخر حياته حتى اكتملت على الصورة التي بلغتنا . وكانت تلك الحالة ، لاحتدامها ولما واكبها من اكتشافات ـ او قل تجليات ـ تشبه تماماً حالة الالهام . وهكذا يصفها في تعريفه (٨) .

(وانزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة .. فأقمت بها أربعة أعوام ، متخليا عن الشواغل كلها . وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وانا مقيم بها ، واكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة . فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها وتالفت نتائجها وكانت من بعد ذلك الفيئة الى تونس كما نذكره) .

ماذا اكتشف ابن خلدون في عزلته ؟ هل اكتشف علم التاريخ ؟ كلا ! انما هو اكتشف علما لم يكن معروفا من قبل ، فأعطى هذا المولود الجديد اسم

علم العمران ، وله وضع المقدمة . وفي ذلك انعراج بين نقطة الانطلاق ، ونقطة البلوغ .

عند الانطلاق ، كانت شواغله بدون شك تتعلق بالمنهجية التاريخية (٩) ذلك أنه ، لسلامة التأمل في الحوادث ، قريبها وبعيدها ، حاضرها ، وماضيها، لابد من التأكد من صحة ما يروى الينا وينقل . فوجب البحث عن منهجية توفر هـذه الصحة . غير أن هذا البحث أدى الى نتيجة لم تكن مفترضة مسبقا ، أو متوقعة حتما عند الانطلاق . لقد أدى البحث الى اكتشاف (علم مستقل بنفسه) (١٠) . وكم يقع هذا للعباقرة من أصحاب العلوم صحيحها وغيره ! ولئن كان هذا العلم الجديد لابد منه للمؤرخ لكونه من العلوم الاساسية المساعدة له في معالجة فنه ، فان ذلك لايزيل عنه بحال الاستقلال والقيام بالذات . وكان ابن خلدون واعيا لذلك كامل الوعي بل ان عبارته تدل على مدى اندهاشه لهذا الاكتشاف المفاجيء ، وعلى اعتزازه بطرافة وخطورة ما اهتدى اليه بحدس يشبه الالهام الالهي . وان كان هو يعترف ان هناك من مهد له السبيل (١١) ومن أهمهم ارسطو ، فهو يؤكد بالحاح سبقه واختراعه ، قائلا :

(وكان هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني ، وذو مسائل ، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته (١٢) واحدة بعد اخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا . واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، اعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص (١٣) .

ويضيف انه (كأنه علم مستنبط النشأة) (١٤) ، ثم يزيد في الالحاح مؤكدا من حديد : (ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما ، واعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره (١٥) فان كنت قد استوفيت مسائله ، وميزت عن سائر الصنائع انظاره وانحاءه ، فتوفيق من الله وهداية . وان فاتني شيء من احصائه ، واشتبهت بغيره مسائله ، فللناظر المحقق اصلاحه ، ولي الفضل لاني نهجت له السبيل واوضحت له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاء (١٦) .

ان ما نقلنا ، قول فصل بقلم المؤلف وعبارته ، لايترك مجالا للشك في ان المقدمة ، وان اتت كمقدمة لكتاب العبر ، انما هي في جوهرها وعاء لعلم جديد ، وانه اذا ما اردنا أن نجيد فهمها وفهم العلم الذي وضعت له ، يجب

ان نفهمها قبل كل شيء في حد ذاتها وفي كل ثرائها . فابن خلدون قد وضعها للكشف عما يلحق (العمران البشري والاجتماع الانساني) (من العوارض والاحوال لذاته) ، اي للكشف عن النواميس الطبيعية التي تحرك الكون وتدفعه في طريق التاريخ . وقد سبق (١٧) أن بينا ان (العوارض الذاتية) في اصطلاح ابن خلدون انما هي القوانين التي بنيت عليها العلوم الصحيحة ، وفي مقدمتها علم الهندسة .

كيف حصل هذا الاكتشاف الخطير الذي خلد ذكر ابن خلدون واحله اسمى مكان بين مفكري البشرية ؟

قلنا ان شواغله كانت اولا منهجية ، وانه كان يرغب ايضا من التاريخ فهم الواقع الذي مارسه . وهو يبسط هذه الشواغل وهذه الرغبة في كل وضوح ، في التوطئة (١٨) التي استهل بها تاليفه وكذلك في مقدمة (١٩) المقدمة ، اي الكتاب الاول ، وان كان هذا الوضوح لايخلو من التردد الذي لاينفلت منه كل واضع لعلم جديد .

يبدأ ابن خلدون فيشيد بفن التاريخ ، ويلاحظ انه ، وان هو (في ظاهره لايزيد على اخبار عن الايام والدول (٢٠) فهو (في باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق (٢١) وهوكذلك كله (أصيل في الحكمة عريق (٢٢)). فيربط هكذا بمجرد ما يضع القلم بين انامله ويشرع في تأليفه ، بين التاريخ و (التعليل) — أي الفهم عن طريق استقصاء الاسباب — و (الحكمة) ، أي الفلسفة .

ثم يأخذ يستعرض بسرعة ما انجز من قبل ، ويخص بالذكر ابن اسحاق (١٥٠ هـ/٧٦٧ م) والطبري (٢٢٤ — ٨٣٩/٣١٠ — ٩٢٣) ، وابن الكلبي (٢٠٤ /٨١٩) والواقدي (محمد بن عمر ١٣٠ — ٧٤٧/٢٠٧ — ٨٢٣) ، والاسدي (٢٠٠هـ/٨١٥ م) ، والمسعودي (٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) من أصحاب التواريخ العامة (٢٣) وابن حيان (٣٧٧ — ٩٨٧/٤٦٩ — ١٠٧٦) والرقيق (٢٤) (بعد ١٠٢٦/٤١٧) من أصحاب التواريخ المقيدة بقطر أو عصر (٢٥) . ويضيف : (ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد بليد الطبع والعقل ، أو متبلد ينسج على ذلك المنوال ، ويحتذى منه المثال ، ويذهل عما احالته الايام من الاحوال (٢٦) ومعنى ذلك أن التاريخ ناله الجمود في نظره ، وهو في حاجة الى تجديد . وهذا ما جره الى وضع كتاب رسم له كفاية ان يكون (مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة ، واسلوبا (٢٧)) .

ثم يعطينا التخطط العام للكتاب ، الذي رتبه (على مقدمة وثلاثة كتب) (٢٨)

المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والالماع بمغالط المؤرخين.

الكتاب الاول : في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية ، من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والاسباب .

الكتاب الثاني : في اخبار العرب ، واجيالهم ودولهم ، منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد . وفيه الالماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم ،مثل: النبط ، والسريانيين ، والفرس ، وبني اسرائيل ، والقبط ، واليونان ، والروم، والترك ، والافرنجة .

الكتاب الثالث : في اخبار البربر ومن اليهم من زناتة ، وذكر اوليتهم واجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول (٢٩) .

والذي ينبغي ان يلاحظ أولا هو أن ما نسميه مقدمة ، فابن خلدون يسميه كتابا أولا ــ ومستقلا ــ موضوعه العمران ، يتلوه كتاب ثان ، خص به العرب ، ويقع في الطبعة الحالية في أربعة أجزاء ، ثم كتاب ثالث ، يقع في جزئين ، خص به البربر . فهذه كتب ثلاثة كل منها منفصل بموضوعه ، وان كانت لاتخلو من صلة فيما بينها . فالمقدمة الحقيقية لاتزيد اذن عن نحو اربع واربعين صفحة(٣٠) ويشرح لنا ابن خلدون أن هذه المجموعة المكونة من مقدمة ، وثلاثة كتب منفصلة بمواضيعها ، قد أعطاها في النهاية ، بعد أن أتمها بالمشرق (فاستوعب اخبار الخليقة فيها استيعاباً (٣١)،عنوانا عاما جامعا لالواحها الثلاثة وهو(كتاب العبر . .) وفي هذا العنوان العام تتلخص وتتبلور شواغل المؤلف واهدافه : لقد كان يبحث عن الفهم والعبرة ، اذ التاريخ بالنسبة اليه ، كما سبق أن بينا (أصيل في الحكمة عريق) .

كان اذن ابن خلدون تحدوه الرغبة الملحة للفهم والاعتبار ، وذلك لانه لم يكن، انطلاقا ، مؤرخا محترفا، قاصرا همه على الجمع والتسجيل. وكان كما أكدنا، قد اهتم اولا بالحكمة عن طريق الرازي وابن رشد واستاذه الابلي . وكان عالج السياسة وعرف المرارة وجرب الفشل . وكان خاصة كغيره من أصحاب اليقظة من مثقفي عصره ــ لا سيما من سلبت منهم ديارهم (٣٢) أو من ساروا في

الارض كالعبدري (٣٣) فقاسوا بحسرة عمق الانحطاط ـ قد عرف مضاضة الحيرة والقلق ،لما شاهد من احتضار الحضارة الاسلاميــة في ايامه ذلك الاحتضار الذي جعل من وطن اجداده باشبيلية ارضا مسيحية . ولقد زادت هذه الحيرة تازما صدمة الطاعون الجارف الذي ذهب بأبويه (٣٤) وما نال المغرب من انهيار دمغرافي (٣٥) يتحدث عنه بمرارة ، ذلك الانهيار الذي أفرغ البلاد من أهلها ، وعطل عمرانها . كل ذلك حز في نفس ابن خلدون ، واذكى فيهـــا رغبة الفهم وتقييم *الوضع ويظهر ذلك بوضوح لايقبل الشك في حديثه عن الدواعي التي* دعته الى تأليف كتابه ، قائلا :

(وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة ، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي شاهدوه وتبدلت بالجملة ... هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الامم وذهب بأهل الجيل ، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ... وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر ، فخربت الامصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ... واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله،وتحول العالم بأسره،وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والافاق وأجيالها ، والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها، ويقفو مسلك المسعودي لعصره ، ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده (٣٦)) .

كان ابن خلدون يشعر اذن بشدة أنه يعيش فترة أزمة كونية وانقــلاب كلي . فحسب انه سيقفو اثر المسعودي في تدوينه (أحوال الخليقة) لكنه أراد أن يكون مسعوديا اكثر دقة ونقدا في تسجيل الحوادث . تلك كانت نقطة الانطلاق في بحثه .

وهكذا اخذ في المقدمة الحقيقية ، والوجيزة الحجم كما بينا ، يستعرض (مغالط) المؤرخين (٣٧) ممن سبقه ، ولم يستثن منهم المسعودي رغم اعجابه به (٣٨) ، بل هو يقسو عليه بالحاح خاص (٣٩) . وهذه (المغالط) العديدة هي التي دعت ابن خلدون للبحث عن أسبابهـــا ، وتلك مرحلة أساسية في كل علم تسبق وتهيء البحث عن العلاج .

فاتضح له اولا أن هناك عــوائق تعوق دون الموضوعية عامـــة ، ومنها الانحياز الى مذهب معين والالتزام به (٤٠) أو الانقطاع الى حاكم أو اسرة لاسباب مادية (٤١) . لكن حتى في حالة توفر ارادة التقيد بالموضوعية فان هناك سببــا

اساسيا ورئيسيا يجر الى الوقوع في الغلط والانزلاق في الوهم ، وهذا السبب هو الاكتفاء بالاعتماد على مجرد الرواية بدون سابق تمحيص يقيني . كان هذا الاعتماد اساس اصحاب العلوم النقلية كلها ، سواء كانوا (ائمة النقل (٤٢)) من المؤرخين والمفسرين ، أو من المحدثين وغيرهم . والحال (أن الاخبار ، اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ... فربما لم يؤمن فيهـا مـن العثور ، ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق) (٤٣) لاسيما اذا كان هذا النقل (غثا وسمينا (٤٤)) والذي جر كامل المؤرخين الى التمادي في الاعتماد على الروايات اي على منهجية الحديث (٤٥) دون مقياس خاص بفنهم ، هو ذلك (التقليد (٤٦)) المشفوع بالغفلة الذي ساد أساليبهم في كل مؤلفاتهم . فاذا ماتم لابن خلدون اذن اكتشافـه لعلم العمران ، اى لما نسميه اليوم بالعلوم الاقتصادية والاجتماعية ، فانما كان ذلك اولا وعلى الخصوص نتيجة لثورته على (مجرد النقل) و (التقليد) ، والتماسه مقياسا خاصا يناسب طبيعة التاريخ .

يلاحظ ابن خلدون أن منهجية الحديث ، التي أساسها التأكد من ثقة الرواة قد وضعت خاصة للعلوم الشرعية وما يتبعها من أمر ونهي ، ويعترف انها ، في ميدانها هذا المحدود ، لا تزال صالحة ومفيدة ، بل لا وسيلة غيرها . لكنه ـ وهنا تكمن نقطة التحول ـ يؤكد أن التاريخ ليس من نوع العلوم الشرعية . فهو يفصله عن بقية العلوم النقلية ، محدثا بذلك ثورة في أساليب وتفكير عصره، وذلك لاسباب :

منها اولا أن التاريخ لس بجامد قارّ ، وانما هو في أساسه حركة ونمو . (ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال ، في الامم والاجيال ، بتبدل الاعصار ومرور الايام . وهو داء دوى ، شديد الخفاء ، اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الاحاد من أهل الخليقة . وذلك أن أحوال العالم والامم ، وعوائدهم ونحلهم ، لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع في الافاق (٤٧) والاقطار ، والازمنة والدول . **سنة الله التي قد خلت في عباده** (قرآن) .

ثم هو يجد حجة اخرى ـ وهي حجته الحاسمة ـ في تقسيم البلغاء للكلام الى خبر وانشاء ، ومعلـوم أن الخبر ، في تعريفهم ، ما يصح فيه التصـديق

والتكذيب ، ويدخل في ذلك مجموع الشهادات وكل انواع الاخبار على اختلاف أقسامها . واما الانشاء فهو ما لا يصح فيه تصديق ولا تكذيب ، كالامر والنهي، والاستفهام والدعاء وما الى ذلك .

فأما ما هو من قبيل الانشاء (٤٨) ـ وتدخل ضمن ذلك خاصة الشرائع ، وهي أوامر ونواه ، وعقائد ـ فلا سبيل للتأكد من صحته عن غير طريق التأكد من ثقة الرواة فيما ينقلونه . وقد وضع علماء الدين ، للتأكد من ثقة الرواة علم التعديل والتجربة والتجريح (٤٩) والفوا في طبقات الرجال .

واما ما هو خبر ، فان توثيق الرواة ـ عن طريق التعديل والتجريح ـ لايضمن فيه السلامة من الوقوع في افحش واوضح خطأ (وليس ادل على ذلك من تلك السلسلة الطويلة من (المغالط) السافرة التي وقع فيها مؤرخون ـ من صنو الطبري والمسعودي وغيرهما ممن لايختلف اثنان في عدالتهم ـ والتي أسهب فيها ابن خلدون كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

وفي ذلك في نظره دلالة قاطعة على أن مايدخل من الكلام في نوع الخبر عرضة بنوع خاص للتحريف ، عمداً ، أو غير عمد ، من وجوه عدة .

فابن خلدون ينبه أن (الكذب متطرق للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه (٥٠)) فمن هذه الاسباب التي تطرأ عن غير عمد ، ذلك (الذهول عن تبدل الاحوال) الذي سبقت الاشارة اليه ، ومنها أيضا المذهبيات التي أدت ومازالت تؤدي ، الى انواع من إلباس الحق بالباطل ، عن قصد وغير قصد ، عندما تتحول الى التزام ، أو الى تعصب يعمي ويصم . فابن خلدون يعبر عنها (بالتشيعات للاراء والمذاهب) ، ويضيف أن (التشيع غطاء على عين البصيرة (٥١)) . ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح ، وتحسين الاحوال ، واشاعة الذكر بذلك ، فتستفيض الاخبار بها على غير حقيقة (٥٢)). ومعنى ذلك وضع المؤرخ والتاريخ ـ بالاغراء المادي ـ في خدمة السياسة على حساب الحقيقة ، وهو مالم يخل منه عصر ولا نظام .

فما الحيلة اذن ؟! لقد ثبت ان منهجية الحديث ، المقامة على نقد السند عن طريق التعديل والتجريح ، غير مجدية ـ بمفردها ـ في حصر الحقيقة . فما فائدة النظر مثلا في السند عندما يكون الخبر المنقول خرافة سافرة مستحلة

الوقوع عقلا ؟! ومثل ذلك ما يروي المسعودي بكل جد ، في شأن تمثال الزرزور الذي برومة ، تجتمع اليه الزرازير في يوم معلوم من السنة ، حاملة للزيتون، ومنه يتخذون زيتهم (٥٣) .

يترتب على ذلك أولا ان نقد السند، ان كان شرطا ضروريا ، فانه غير كاف ولا أساسي ، بل يجب أن يأتي في مرحلة ثانية وتكميلية ، بعد التأكد مسبقا من امكانية وقوع الحدث المروي في حد ذاته ، وذلك بوسائل اخرى انفع واجدى .

ويعبر ابن خلدون عن هذا بقوله : : (ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن او ممتنع . وأما اذا كان مستحيلا ، فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لايقبله العقل (٥٤) .

فلا بد اذن من تعويض منهجية الحديث بمنهجية اخرى أليق بالخبر ، يأتي فيها نقد السند في الرتبة الثانية ، هذه المنهجية الجديدة التي اكتشفها ابن خلدون هي منهجية التاريخ . وفي هذه المنهجية يحتل الرتبة الاولى (قانون المطابقة) ، الذي عنه سيتفجر علم العمران ، ذلك العلم المستقل بنفسه ، و (المستنبط النشأة) ، الذي هو موضوع الكتاب الاول . وهكذا يعرض ابن خلدون هذا القانون الذي يلعب في تفكيره دورا محوريا :

(وأما الاخبار عن الواقعات ، فلابد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه ، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه ، اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط ، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة . واذا كان ذلك ، فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، بالامكان والاستحالة ، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لايعتد به ، وما لايمكن ان يعرض له . واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لامدخل للشك فيه . وحينئذ ، فاذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران ، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه . وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه . وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا .

(وكأن هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع ، وهو العمران البشري والاجتماع الانساني ، وذو مسائل ، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته (٥٥) ، واحدة بعد اخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم ، وضعيا كان أو عقليا (٥٦)) .

ان قانون المطابقة الذي يحتل في منهجية ابن خلدون التاريخية مكان حجر الزاوية ، يستلزم اولا النظر (في الاجتماع البشري الذي هو العمران) . ولقد الح المؤلف على هذه الفكرة في مواطن عديدة سابقة (٥٧) ، والغرض من هذا النظر هو استخلاص ما يلحق هذا الاجتماع (من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه) . ولقد رأينا أن هذه العبارة وشبيهاتها تؤدي في مصطلح ابن خلدون معنى القوانين الطبيعية اليوم عندنا . ذلك أن ابن خلدون كان يريد أن يحكم ، في (تمييز الحق من الباطل) ، (اصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران) (٥٨) ، أو ما يسميه أيضا (بطبائــع الكائنات (٥٩)) أو (طبائــع الموجودات (٦٠)) ، أو (طبائع الاحوال في العمران (٦١)) ويعتبر (هذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض) (٦٢) . فتأكد لديه وجوب الكشف عن هذه (الطبائع) ، أو النواميس التي توجه كل شيء في حياة البشر : السياسة ــ وقد ذاق حلوها ومرها ــ والاحوال الاجتماعية ، والاحداث التاريخية . ورأى أنه لابد في كل ذلك (من قيس الغائب منها بالشاهد (٦٣)) والاطلاع على (اختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق ، والعوائد والنحل ، والمذاهب وسائر الاحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ... (٦٤)) وهكذا اقتنع ابن خلدون أنه لابد أن يجمع بين علمي الحاضر والماضي ، أي أن يكون في نفس الوقت عالما اجتماعيا ومؤرخا . وهكذا التقى فيه البعدان اللذان عنهما تفتقت (العبقرية) .

ان تطبيق قانون المطابقة جره الى الكشف عن القوانين الاجتماعية ، وذلك كي يجعل منها ، (بوجه برهاني لامدخل للشك فيه) ، (معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه) . وهذا هو ، حسب عبارته، غرض الكتاب الاول من تأليفه، ذلك الكتاب الذي اعتدنا أن ننعته، توسعا، بالمقدمة.

وخلاصة القول ان أهل الحديث قد ركزوا جهودهم على النقد الخارجي ، واكتشف ابن خلدون اهمية النقد الباطني . ذلك انه قد اتضح لديه أن النقد الخارجي ــ مهما كان مفيدا أو ضروريا ــ فهو غير كاف بالنسبة لما يدخل من العلوم النقدية في نوع الخبر من الكلام حسب اصطلاح البلغاء . فان كانت

الشريعة جملة انشاء ، فالتاريخ محض خبر ، فهو في حاجة الى معيار خاص ومنهجية أليق به . فلقد استنبط المحدثون قوانين نقد السند ، التي يعتبرها ناجحة في ميدانها ، اي بالنسبة للشريعة والانشاء عامة ، ووضعوا لهـا علم التجريح والتعديل ، وألفوا تبعا لذلك في طبقات الرجال . واستنبط هو قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية فوضع لذلك بدوره علم العمران ، استهدف فيه الكشف عن النواميس التي تسير وتتطور طبقها الاحداث والمجتمعات . هكذا ولدت على يد ابن خلدون ، العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، وافردت لاول مرة في تاريخ البشرية بالتأليف عن حدة .

هذه العلوم وزعها ابن خلدون على ستة فصول (٦٥) محكمة التنسيق :

١ ـ (الفصل الاول في العمران البشري على الجملة) : أي البيئة وتأثيرها في الكائنات البشرية ، اتنولوجية ، وانطربولوجية .

٢ ـ (الفصل الثاني في العمران البدوي) : اي في الحضـــارات الريفية المقامة غالبا وعادة على الزراعة ، والتي كثيرا ما تكون بدائية . فهي ترتكز على ما نسميه اليوم بالقطاع الاول .

٣ ـ (الفصل الثالث في الدول ، والخلافة ، والملك) : اي في المؤسسات السياسية والادارية التي تنشأ مـع كل حضارة مهما كانت بسيطة ، وتنظم الحياة الاجتماعية .

٤ ـ (الفصل الرابع في العمران الحضاري ، والبلدان والامصار) : اي في الحضارات التي عندما تبلغ النضج تزدهر خاصة في المدن ، وترتكز على ما نسميه اليوم القطاع الثاني ، وتبلغ هكذا اسمى المراحل رقيا وتطورا .

٥ ـ (الفصل الخامس في الصنائع ، والمعاش والكسب) : اي في العلوم الاقتصادية ، التي لابد من تحليلها لفهم (العمران الحضري) ، وهذه العلوم تهم كامل انشطة القطاعين الثاني والثالث ، وتزداد تعقدا بازدهار العمران .

٦ ـ (الفصل السادس في العلوم ، واكتسابها ، وتعلمها) : اي فيما تفرزه الحضارات ، بقدر ما تبلغ من الاكتمال ، من انواع الثقافة ، التي تكتسب بالبحث ، وتورث وتكتنز بالتعلم ، فتنموا هكذا نموا متواصلا .

فهذا تخطيط سلمي ، لا اعوجاج ولا تشويش فيه ، بل هو يخضع الى منطق لاينكسر . وفيه دلالة على شمول النظرة بالنسبة لكامل المظاهر الاجتماعية فالمحور الذي تلتئم حوله كل القضايا يرتكز دائما على التساؤل الملح عن السر في قيام الحضارات ، وذبولها وموتها ثم قيام حضارات اخرى تخلفها ، وتذهب شوطا ، او اشواطا ، ابعد بالمشعل الذي تتسلمه من سابقاتها ، **(سنة الله التي قد خلت في عباده** (٦٦)) . وهـذا التساؤل ، الذي يعطي لكل الفصول وحدة الاسلوب والاتجاه في بسط القضايا ومعالجتها،وطيد الصلة بالتجربة الوجودية التي عاشها المؤلف ، وأوحت له بالعزلة ، والتأمل ، والتأليف .

بقي علينا الآن ، وقد ضبطنا علاقة كتاب ابن خلدون في العمران بمنهجية التاريخ ان نضبط هذه العلاقة بينه وبين الكتابين الذين خص بهما المؤلف التاريخ الصرف ، تاريخ العرب ، وتاريخ البربر .

ماذا ستكون ، في الزمان وفي المكان ، حدود هذا التاريخ الذي كان ابن خلدون يريد أن يكتبه ، وماذا سيكون مضمونه ؟ كان تردده شديدا في كـلا المستويين .

كان في أول أمره ، عندما اعتزل بقلعة بني سلامة ، يفكر في تاريخ المغرب فحسب وذلك تحت تأثير الحوادث السياسية التي شارك فيها ، والسجون التي دخلها ، والامراء الذين خدمهم واستخدموه ، والفراغ البشري الذي قاسه في تنقلاته ــ وللطاعون فيه دوره ــ وخلو البلاد من عصبية ، أو قـوة سياسية في مستوى الاضطلاع بمتطلبات الساعة ، وغير ذلك من الخيوط الظاهرة والخفية التي حاكت الازمة التي عاشها ــ وكان المغرب يتخبط فيها ــ فقاده كل ذلك نحو الاعتزال للخلوة بنفسه قصد التأمل والتأليف . ولم يكن اذ ذاك يطمع في أن يكون اكثر من مسعودي المغرب ، وهو عن ذلك يعبر بقوله :

(وانا ذاكر في كتابي هذا ما امكنني منه في هذا القطر المغربي ، اما صريحا او مندرجا في اخباره وتلويحا ، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب ، واحوال اجياله واممه ، وذكر ممالكه ودوله ، دون ما سواه من الاقطار ، لعـدم اطلاعي على احوال المشرق وامـمـه ، وان الاخبار المتناقلة لا توفي كنـه ما اريد منـه ، والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد ، كما ذكر في كتابه ، مع انه لما ذكر المغرب قصر استيفاء احواله ، وفوق كل ذي علم عليم (٦٧)) .

كان ابن خلدون هكذا يعتزم في أول امره الاقتصار على احوال المغرب . ثم حدث ان رحل الى الشرق وبه استقر ، فاتيحت له فرصة اكمال معلوماته واثراء تجاربه فاذا بتاريخ المشرق يطغى على تأليفه ، فيستأثر منه بسهم الاسد ، أي بضعفي تاريخ المغرب حجما (٦٨) . ومن حسن حظنا فقد سها ابن خلدون عن حذف النص الذي سبق ــ الذي يضبط نقطة الانطلاق ويكشف تردده ــ واكتفى بالتنبيه الى الظروف التي يسرت توسيع حدود تصنيفه وآفاقــه ، فضمن ذلك في خطبة الكتاب التي كانت طبعا آخر ما حرر بعد ما تم التأليف واكتمل ، واصبح هكذا من اليسير عرض اهدافه وتخطيطه . وفي ذلك يقول :

(ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء انواره ، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره ، والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره . فأفدت ما نقص مــن اخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار ، واتبعت بها ما كتبته في تلك الاسطار ، وادرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من أمم النواحي ، وملوك الامصار والضواحي ، سالكا سبيل الاختصــار والتلخيص ، مقتديا بالمرام السهــل من العويص داخلا من باب الاسباب على العموم ، الى الاخبار على الخصوص فاستوعب اخبار الخليقة استعيابا ، وذلل (٦٩) من الحكم النافرة صعابا وأعطى لحوادث الدول عللا واسبابا ، واصبح للحكمة صوانــا وللتاريخ جرابــا (٧٠))

وحيث ان هذا التأليف ، في شكله النهائي وفي الكتاب الثاني منه ، لم يغفل الى جانب العرب (منذ مبدأ الخليقة) ، (الالماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم ، مثل النبط والسريانيين ، والفرس ، وبني اسرائيل، والقبط، واليونان ، والروم ، والترك ، والفرنجة (٧١) ، فان ابن خلدون اعتبره ــ مهما كان الماعه الى غير العرب والبربر محدودا ــ تاريخا عالميا ، (استوعب اخبــار الخليقة استيعابا) حسب تعبيره ، مــع الاقتصار الضروري في مثل هــذه الموسوعــات (٧٢) .

ونلمس ايضا نفس التردد في مستوى المضمون . ويظهر ذلك في تعريفه للتاريخ فهو ، في مستهل الكتاب الاول الذي وضعه كما قدمنا في العمــران ، يجنح الى ان يجعل منه علما شاملا للانسان في كل اوضاعه المتطورة ، اي كشفا عن سر تسلسل حلقات النشوء والارتقاء (٧٣) فيعرفه هكذا :

(اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتانس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ... (٧٤)) .

كان طموح ابن خلدن يهدف اذن باديء ذي بدء الى أن يجعل من التاريخ قصة النشوء والارتقاء ، ووعاء ضخما يستوعب (سائر ما يحدث) في العمران حسب النواميس الطبيعية التي تسيره ، والتي كان يعتزم استكشافها واجلاءها . والى هذا ، أو شبهه ، تسعى اليوم الكتابة الحديثة للتاريخ ، خاصة ابتداء من منتصف هذا القرن (٧٥) . غير انه من الجلي البديهي انه لم يكن ليستطيع تحقيق هذا الهدف الطموح الذي يتجاوز ، لامقدرة شخص مهما كان عبقريا ، بل مئات الاشخاص . وانما هو بناء مستمر لن يتحقق الا على مر الاجيال ، وبمشاركة جماعية لم تزل متواصلة . ويكفي ابن خلدون فخرا أن يكون حدسه الهمه هذا التصور العريض للتاريخ ، وهداه الى رسمه كفاية ، عبر عنها بدقة مدهشة سابقة لعصره وامكاناته .

فمن الطبيعي اذن الا نجد في الكتابين ، الثاني والثالث — من ناحية المضمون — كتابة تاريخية تتفق والتعريف الذي سبق . فقد اكتفى فيهما ابن خلدون بكتابة تقليدية ولقد عبر عن ذلك ، من الناحية النظرية وبصفة تكشف عن تردده ، في مواطن اخرى من المقدمة العامة التي وضعها لكامل تأليفه ، بما في ذلك الكتاب الاول في العمران . فهو يعرف فيها أيضا التاريخ تعريفا تقليديا مألوفا على هذا النحو :

(اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم في اخلاقهم ، والانبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه ، في أحوال الدين والدنيا (٧٦)) .

فهذا التاريخ ، بهذا المفهوم الضيق ، هو خاصة تاريخ انبياء ، وملوك ودول ، الغاية منه — لا فهم الانسان في تطوره كما سبق في التعريف الاول — وانما (الاقتداء) (في أحوال الدين والدنيا) . ولا يختلف هذا الهدف عما

استهدفه من قبل الطبري وغيره ممن حذا حذوه من المؤرخين . فلا طرافة فيه ولا تجديد . ويؤكد ابن خلدون هذا الاتجاه التقليدي مرة اخرى في نهاية نفس المقدمة العامة ، فيقول :

(ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها : وهي أن التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر او جيل . فأما ذكر الاحوال العامة للافاق والاجيال والاعصار ، فهو اسّ (للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده ، وتتبين به اخباره) (٧٧) .

وهكذا نراه في خاتمة المطاف يقصر التاريخ على مضمونه التقليدي ، المتعارف منذ قرون ، ويفصل عنه ما يهم الانسان من حيث هو انسان متطور ، فيجعل من ذلك (اسّاً) منفصلا عن حدة ، تنبني عله مقاصد المؤرخ ، اي عملية التأريخ ، فهذا الاس المنفصل والمستقل بذاته ، هو موضوع اكتشافه وعمله الجديد ، وقد ضمن ذلك الكتاب الاول في العمران (٧٨) .

والذي يستخلص من هذا كله هو أن ابن خلدون كان واعيا كل الوعي انه كان مجددا ثوريا في كتابه الاول في العمران ، مقلدا كلاسيكيا في كتابيه الثاني والثالث في التاريخ ، اذ ــ بعد التردد الذي أشرنا اليه ــ لم يقصد فيهما في النهاية حسب عباراته سوى (الاختصار والتلخيص مقتديا بالمرام السهل من العويص (٧٩) ، كما ينص في التوطئة العامة التي انجزها عندما انتهى من التأليف واتى دور التقديم وشرح الهدف والتخطيط . نفسان اثنان اذن في تأليف ابن خلدون ، نفس ثوري تجديدي في الكتاب الاول في العمران ، وآخر مألوف تقليدي في الكتابين الثاني والثالث في التاريخ ، يجب أن نميز بينهما بكل دقة ووضوح اذا ما أردنا الا نتيه في متاهات تفضي بنا حتما الى الخلط والتضليل .

غير أن هذا لايعني ان ابن خلدون لم يكن شديد الاعجاب ايضا بالناحية التاريخية من تأليفه . فهو كما قدمنا ، يعتبر ان تاريخه قد (استوعب اخبار الخلقية استيعابا ، وذلل من الحكم النافرة صعابا ، واعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا ، واصبح للحكمة صوانا ، وللتاريخ جرابا (٨٠)) . وهو يطمح في ان يصبح اصلا يقتدى به من المؤرخين من بعده (٨١) ، ويتيه اعجابا بانجازه (٨٢) . ولا ننس حملته على من سبقه ، وان مما دعاه الى التأليف الحاجة الى اصلاح وتقويم ماوقع فيه هؤلاء من أوهام واخطاء أسهب في ذكر نماذج منها ، وكان

قصده طبعا الا يقع في مثلها ، متسلحا في ذلـك (بحسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان بـه عن المزلات والمغالط (٨٣)) . وذلك بفضـل المنهجية التي أعدها وسبق تحليلها .

فالسؤال الذي يطرح نفسه اذن هو : هل نجح ابن خلدون فيما كان يعتزم وهل لاعجابه بانجازه ما يبرره ؟

لقد عدل ، كما سبق أن راينا ، عن ان يعطي لتاريخه مضمونا ثوريـا بالنسبة لعصره ، سابقا له ، ومستحيل التحقيق . لكن هل احسن تطبيق قانون المطابقة الذي اعـده فضبط على الاقل الحوادث ضبطا يبعث على الارتيـاح والاطمئنان ، ويفوق ما عهدناه في مصنفات سابقيه ، المنتقدة أحيانا بشدة من طرفـه ؟

ان معاصري ابن خلدون قد اختلفوا اختلافا كبيرا في شأنه ، ولم يساعدهم اعجاب الرجل بنفسه وكبرياؤه على انصافه . فهنـاك من أغرق في اطرائه ، وهناك من أسف في التشنيع عليه حتى أن بعضهم رماه (بمعاشرة الاحداث (٨٤)) لكنهم ، بصفة عامة ، ان قدروا الطرافة في كتابه الاول في العمـران ، فانهم احترزوا في شأن ما يتعلق من تأليفه بالتاريخ الصرف، خاصة بالنسبة للمشرق. فالحافظ ابن حجر العسقلاني مثلا ــ الذي لم يكن من انصاره ، وان أخذ عليه واستجازه في مؤلفاته (٨٥) ــ يبدو متحفظا فهو يعترف أنه (صنف التاريـخ الكبير ، في سبعة مجلدات ضخمة ، ظهرت فيه فضائله ، وأبان فيه عن براعته) لكن هذا لايمنعه من أن يتهمه بانه (لم يكن مطلعا على الاخبار على جليتها ، ولا سيما اخبار المشرق ، وهو بين لمن ينظر في كلامه (٨٦)) وكذلك بدر الدين العيني ــ وكان من خصومه ، وعنه ينقل ابن حجر ــ فهو ينص أن (له تاريخ في سبعة مجلدات ، أمعن فيه ما يتعلق ببلاده ، ولم يطلع على الامور التي وقعت في بـلاد المشرق على جليتها ، يظهر ذلك لمن ينظر في كلامه (٨٧)) .

ان هذه الاقوال مفيدة لانها تعكس آراء القدماء في ابن خلدون وما أثارته شخصيته القوية من دوافع الاعجاب ، أو العداء السـافر . لكن اذا ما أردنا اليوم أن نقيم تاريخه بصفة موضوعية ــ وقد مر الزمان وهدأت الاعصاب ــ يجب ان ننظر في هذا التاريخ في حد ذاته ، بصفة عميقة وشاملة . ان هذه النظرة تتجاوز

طبعا حدود هذا المقال . غير أن ما لايدرك جله لايترك قله . ولعل القل¨ الذي سنورده ــ اعتمادا على بعض الامثلة ، سيفتح باب النظر والتأليف ، في مستوى الدرجات الجامعية أو غيرها في اتجاه قد غمر واهمل لطغيان الكتاب الاول في العمران ــ الذي اشبع تحليلا وبحثا ــ على المدارك والعقول .

ان ابن خلدون نفسه قد اعطى نماذج عن تطبيقه لقانون المطابقة الذي ابتكره ــ وأراد ان يجعل له الاولوية على قانون التجريح والتعديل المعتمد في منهجية الحديث التي كانت سائدة بمفردها من قبل ــ وذلك في مقدمة كتابه الاول التي خص بها (فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه (٨٨)) .

فهو ، في هذه المقدمة ، يلاحظ بحق ان ما أورده السعودي وغيره من المؤرخين من أن جيوش موسى قد بلغت ... ٦٠ مقاتل لايثبت أمام النقد الباطني ، وذلك لاسباب جغرافية ، واستراتيجية ، وبالمقارنة أيضا مع جيوش أمم أخرى كانت أشد قوة وأوسع ملكا . ويؤول هذه المبالغة ، وأمثالها ، بولوع النفس بالغرائب ((٨٩) . ولنفس الاسباب يعتبر الاخبار الواردة في شأن التبابعة، وغزواتهم في فارس والصين ، وخرافة افريقش ودخوله المغرب ، (من الاخبار الواهية (٩٠)) وانها (أشبه باحاديث القصص الموضوعة (٩١)) فيفندها بأدلة عقلية ، وجغرافية ، وسياسية (٩٢) ، أي بتعارضها مع قانون المطابقة . ثم يضيف (وأعرق في الوهم (٩٣)) ما ورد في شأن (إرم ذات العماد) تلك المدينة المزعومة التي لم يقع لها أحد على أثر . وكذلك ينفي ، بكل جدارة أن تكون نكبة البرامكة نشأت عن قصة غرامية ، بطلاها جعفر بن يحيى البرمكي والعباسة اخت الرشيد ، ويعللها بأسباب أعمق ، وأكثر علاقة بطبيعة الملك ومقتضياته ، ومنها (ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجافهم (٩٤) أموال الجباية) . ويعتبر أيضا ــ وهو في ذلك أقل اقناعا ــ ان قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية يقتضي أن ننفي ما يروى من (معاقرة الرشيد الخمر) (٩٥) ، وانه انما كان (يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق (٩٦)) كما يقتضي نفس القانون ــ في نظره ــ عدم القدح في نسب الفاطميين ، الذين استطاعوا تأسيس ملك عظيم ، اذ (كيف يقع هذا كله لدعي في النسب ، يكذب في انتحال الامر (٩٧) وكذلك يجب أن ننفي ما قيل في نسب ادريس الثاني، (وانه لراشد مولاهم) (٩٨) اذ هذا في اعتقاده أوغل في الافتراء ، وهو افتراء يرجع لاسباب سياسية ، منها دسائس الاغالبة . والحقيقة التي يدافع عنها ابن خلدون ، اعتمادا على قانون المطابقة ، هي أن ادريس الاكبر كان (عريقا في البداوة ، وان حال البادية في

مثل ذلك غير خافية ، اذ لامكامن لهم يأتي فيها الريب (٩٩) . ثم ، بعد هذا كله، (فادريس ولد على فراش ابيه ، والولد للفراش (١٠٠)) فيأتي هكذا الفقه لنجدة التاريخ . وفوق ذلك كله ينبغي (تنزيه أهل البيت .. فالله ـ سبحانه ـ قد اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . بفراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن (١٠١)) . والنواميس الاجتماعية ، في نظر ابن خلدون ، تدعم ايضا صحة نسب المهدي ابن تومرت في اهل البيت ، وذلك لما عرف عن الرجل من (التقشف والحصر (١٠٢)) مما يؤيد ان عمله كان موجها لوجه الله ، (والناس مصدقون في انسابهم) فان قيل (ان الرئاسة لاتكون على قوم في غير اهل جلدتهم) ، فهذا صحيح ، لكن هذا لايستوجب حتما ان ابن تومرت كان بربريا دما ، اذ برسوخ شجرته في قبيلته هرغة ، والتحامه بها منذ زمن بعيد ، فان النسب الاول ، نسب أهل البيت ، (كأنه انسلخ منه ، ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها ، فلا يضره الانتساب الاول في عصبيته (١٠٣)) .

هذه امثلة من اعتماد ابن خلدون على النقد الباطني للتأكد من صحة ما يروى . وهذه الامثلة تفيد أن قانون المطابقة شيء ، وتطبيقه شيء آخر . فان كان ابن خلدون مصيبا بدون منازع في بعض استقراءاته ، فان ما ذهب اليه في البعض الآخر لايقنع حتما بل نحن نلمسه متأثرا بذلك الانحياز المذهبي ، أو العاطفي ، الذي سبق ان حذر منه بجدارة . ويظهر هذا الانحياز الشعوري ـ الملتهب حماسا احيانا ـ في بعض سبل احتجاجه التي سبق تحليلها . فهو يحكم ، حكما باتا لايقبل الشك ، بصحة نسب ادريس الاصغر ، لان الله ، بنص القرآن ، اذهب الرجس عن أهل البيت ، فهم في نظره ، معصومون عن اقتراف الاثم . فهل من حاجة الى التنبيه ان هذه حجة ماورائية ، وليست من الموضوعية في شيء ، وانها لا تمت بسبب لنواميس الطبيعة التي اراد ابن خلدون ان يقيم عليها نقده الباطني ؟ بل نحن نراه يغرق في الشعورية ـ والماورائية ـ بصفة أوضح ، فيعلن :

(وانما اطنبت في هذا الرد .. لما سمعته اذناي من قائله المعتدي عليهم .. لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا ، وارجو أن يجادلوا عني يوم القيامة (١٠٤)) . فهذه مجادلة بمجادلة ، أبعادها دنيوية وسماوية ، فهي ليست من التاريخ ومنهجيته في شيء . وكذلك فان جدال ابن خلدون من أجل صحة نسب ابن تومرت في آل البيت ، انما ذلك يرجع لاعجابه بالرجل ، وبعظمة الدولة التي أقامها وبناها ، فألهاه ذلك عن اعتبار الدواعي التي ترجح ان نسبه منتحل (١٠٥)

وفي مقدمة تلك الدواعي زعمه انه المهدي المنتظر . ولنترك في النهاية القارىء يفكر في قيمة اقناع هذه الحجة التي اراد ابن خلدون أن ينفي بها عن العباسة ، أخت الرشيد ، عار علاقتها بجعفر :

(... وهيهات ذلك من منصب العباسة ، في دينها وابويها وجلالها .. كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم (١٠٦) ؟.)

فان كانت اذن منهجية ابن خلدون سليمة في حد ذاتها ، فانه من المجازفة ان نجزم ان استخدامها من طرفه كان دائما وفي كل الاحوال سليما . وشأنه في ذلك شأن كل المؤرخين ، في كل زمان ومكان ، اذ الموضوعية المطلقة والتجرد التام ، انما هما غاية دونها عقاب كثيرة باطنية وخارجية ، لانفلح دائما مهما اجتهدنا في تجاوزها .

غير ان هناك اخطر من ذلك .

ان ابن خلدون قد خدم النفوذ ، وحتى عندما انقطع الى العلم ، لم يقطع اتصاله به تماما ، وبقي منتفعا بحماه . فلقد عاش في مصر في رعاية السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ – ٨٠١ / ١٣٨٢ – ١٣٩٩) وان افتى ضده – اكراها حسب ما يذكر في التعريف (١٠٧) عندما خلع عن العرش . ولا شك ان اتصال ابن خلدون بالنفوذ جره الى الوقوع في تلك الاخطاء التي حذر منها ، والتي يوحي بها التقرب (لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح (١٠٨) ، قصد المحافظة على الوظيفة والعطاء . فهو مثلا يورد اسطورة اتصال نسب السلطان برقوق بقبيلة غسان ، كي يرتقي به الى شرف الانتساب الى العرب ، وهو ما حرصت عليه كل الاسر المالكة في الاسلام . ويبحث عن تعليل لذلك ، فيرى أن (أصل هذا الامير برقوق من قبيلة جركس الموطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطء القفجان والروس واللان من شرقيها ، المطلة على بسائطهم . ويقال انهم من غسان الداخلين الى بلاد الروم مع اميرهم جبلة بن الايهم ... واحتاجت غسان الى الحلف للمدافعة في الفتن ، وحالفوا قبائل جركس ونزلوا في بسيط جبلهم من جانبه الشرقي مما يلي القسطنطينية ، وخالطوهم بالنسب والصهر ، واندمجوا فيهم حتى تلاشت احياؤهم . وصاروا الى تلك الاماكن ، واووا من البسائط الى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا أن تكون انسابهم تداخلت معهم ، فمن

انتسب الى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه ، ويستأنس له بما ذكرناه، فهو بنسبة قوية في صحته ، والله تعالى أعلم (١٠٩)) ثم بعد تعليل صحة نسب برقوق في العرب ، يحدثنا ابن خلدون كيف كانت (العنايـة الربانية تحوم عليه (١١٠)) ، ويتمادى في هذه اللهجة الاطرائية التي لاتخلو مـن تملق بلاطي واضح .

وهو كذلك ، تزلفا (لاصحاب التجلة والمناصب) ، يلحق نسب الحفصيين ـ وهو يعلم وثيق العلم انهم من البربر ، من هنتاتة جبال مصمودة بالمغرب الاقصى ـ بعمر بن الخطاب فيحلهم أكرم محل من قريش ويلتمس لهم العلل لذلك (١١١) . بل ينقلب الى شاعر ، ويصوغ في ذلك المديح ، فيقول ، في قصيدة طويلة قدم بها النسخة الاولى من كتابه الى الخليفة أبي العباس (٧٧٢ ـ ٧٩٦ / ١٣٧٠ ـ ١٣٩٤) :

قوم ، أبو حفص اب لهم ، وما ادراك ! والفاروق جدّ أوّل(١١٢)

ففي هذا دلالة كافية على أن ابن خلدون ، مهما كانت المنهجية التي اهتدى اليها سليمة في المستوى النظري ، فهو لم يستطع ، في مستوى التطبيق ، ان يتخلص من العوائق التي تحول عادة دون الموضوعية المطلقة ، وذلك اما بصفة غير شعورية لميوله والتزاماته العقائدية ، واما بصفة شعورية ومقصـودة لالتزاماته السياسية ومنافعه المادية .

بقي علينا ، والحال كما وصفنـا ، أن نحاول تقييم حصيلة اسهامـه التاريخي ، مع التأكيد على أن هذا التقييم لن يصبح يقينيا الا بعد الدراسة الكاملة للكتابين الثاني والثالث من هذه الزاوية ، كما أشرنا الى ذلك سابقا .

ان ابن خلدون في موسوعته التاريخية ، يقوم ، كغيره ممن سبقه ولحقه، بدورين : دور الناقل من ناحية ، ودور المشاهد من ناحية أخرى . فمن هـذه الزاوية يجب أن ننظر الى تأليفه ، وذلك بدون تمييز ـ كما هو الشأن عادة ـ بين ما يخص البربر منه ، وقد غولي في اطرائه ، وبين ما يهم العرب ، وقد افرط في استنقاصـه .

فسؤالنا الاول اذن هو : هل أحسن ابن خلدون النقل ، فيما نقل ، وهل فاق في ذلك متقدميه ، بحكم منهجيته الجديدة ، تمحيصا أو اختبارا ؟ نكتفي طبعا ببعض الامثلة التي لاتتعدى قيمتها قيمة كل سبر .

وأول ما نلاحظ هو أن ابن خلدون ، كناقل ، لم يجد دائما التمحيص . فهو مثلا يذكر أن فتح المغرب بدأ في خلافة عمر ، وذلك عند حديثه عن الاديان التي دان بها البربر قبل الاسلام عندما كانت بلادهم تابعة للحضارة الرومية (١١٣) . وهذا وهم واضح جلي، لاحاجة للتأكيد عليه ، ولعله سبق قلم . وهوكذلك يزعم أن الكاهنة (١١٤) قد عمرت ١٢٧ سنة ، وهذا خبر من قبيل الاساطير التي تنشأ عن (ولوع النفس بالغرائب) (١١٥) ، وقد نبه الى ذلك الكاتب في كتابه الاول في العمران عندما كان بصدد ضبط منهجية ، ثم وقع في نفس الخطأ الذي منه حذر ، ثم هو ينسب استشهاد عقبة في موقعة تهوده الى الكاهنة (١١٦) أيضا وهذا أعمق في الابتعاد من الحقيقة ، اذ لا يختلف اثنان ولا يتناطح عنزان في أن عقبة انما ذهب ضحية الثورة التي دبرها كسيلة ونفذها رهطه من الاوربة (١١٧) وينقل ابن خلدون أيضا ان عبد الرحمن بن رستم كان (من مسلمة الفتح ، وهو من ولد رستم امير الفرس بالقادسية . وقدم الى افريقية مع طوالع الفتح فكان بها ، واخذ بدين الخارجية والاباضية منهم ، وكان شيعة لليمنية وحليفا لهم (١١٨)) . فهذا كله خليط من المتناقضات لايستقيم حرف منه ، اذا ما نقد نقدا باطنيا حسب قانون المطابقة الذي استنبطه ابن خلدون ، وأراد أن يجعل منه المقياس الاساسي في قبول ما يروى أو رفضه ، انعبدالرحمن بن رستم توفي سنة ١٦٨ / ٧٨٤ ــ ٧٨٥ فكيف يمكن أن يكون (من ولد رستم امير الفرس بالقادسية) وقد دارت رحاها بين سنة ١٤ و ١٦ / ٦٣٥ ــ ٦٣٧ الا اذا حملنا العبارة توسعا على أنه من ذريته ؟ ثم ، اذا ما قبلنا هذا التعليل ، كيف يمكن أن يكون (قدم الى افريقية مع طوالع الفتح) ، وقد بدأ هذا الفتح في خلافة عثمان سنة ٢٧ / ٦٤٧ ــ ٦٦٨ وتواصل حتى أيام عبد الملك بن مروان ، ولم يتم الا حوالي سنة ٧٤ / ٦٩٣ . انه يستحيل ، لاسباب تاريخية ، أن يكون عبد الرحمن ابن رستم قدم (مع طوالع الفتح) ولا حتى مع اواخره . ثم كيف يكون (أخذ بدين الخارجية والاباضية) من طوالع الفتح ؟ والحال أنه لم يشارك في هذا الفتح الخوارج ، وذلك لاسباب بسيطة وبديهية ، وهي أنه كان يستحيل عليهم ان يقاتلوا في جند خلافة كانوا يرفضون شرعيتها ، وتواصلت ثوراتهم عليها في الشرق ، قبل ان يكسروا شوكتها في المغرب ، ويحرروا بصفة نهائية الجانب الاوسط والاقصى منه من نفوذها ، وكيف ايضا يمكن له ان (يكون شيعة لليمنية وحليفا لهم) اي أن يكون من أنصار العرب الممارسين النفوذ ثم في نفس الوقت يتزعم الحركة البربرية الثورية تحت لواء الاباضية ؟ كل هذا فيه دلالة على أن ابن خلدون كان ينقل بدون ذلك التمحيص الذي من أجله وضع

منهجيته . ويمكن ان نتتبع عدم التمحيص هذا في مواطن عديدة اخرى ، منها تلك التناقضات التي تحيط باسرة بني وسول الصفرية بسجلماسة . فابن خلدون يدعو مؤسسها تارة سعيد بن وسول (١١٩) وتارة مصلان (او مصلات) بن أبي يزول (١٢٠) وهو خاصة يجعل من ابنـه أبي القاسم سمقو (او سمكو) ـ الذي ولي (١٢١) من ١٥٥/٧٧٢ الى ١٦٨/٧٨٤ ـ ٧٨٥ ـ (صفريا اباضيا) في نفس الوقت . بل هو يذهب الى اغرب من ذلك فيزعم (١٢٢) انه جعل الخطبة باسم المنصور العباسي (١٣٦ ـ ١٥٨/٧٥٤ ـ ٧٧٥) ثم باسم المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥) ، مما لايتفق البتة مع أصول الدعوة الخارجية في كل أشكالها مهما كانت معتدلة ، اي مع قانون النقد الباطني المبني على المطابقة . وكذلك ينقل ابن خلدون (١٢٣) أن أمير افريقية عبد الرحمن بن حبيب (١٢٧ ـ ١٣٧ / ٧٤٥ ـ ٧٥٥) هو الذي قتل الزعيمين الاباضيين الخارجين بطرابلس الحارث وعبد الجبار ، والاقرب الى منطق تسلسل الاحداث ما يرويه ابن عبد الحكم (١٢٤) ، وتؤيده المصادر الاباضية (١٢٥) ، وهو أن القائدين اقتتلا على النفوذ حتى قتلا بعضهما بعضا ، مما أثار داخل حزبهما مشاكل مذهبية عديدة بثت الشقـاق داخله وبلغنا صداها .

ان ما اوردناه ـ وهو قليل من كثير ـ فيه دلالة كافية على ان ابن خلدون في نقوله ، لم يجد استخدام المنهجية التي وضعها ، حتى كأنه غفل عنها ونسيها . فهو لايفوق غيره لاقليلا ولا كثيرا ، تثبتا وتمحيصا ، ونحن لانشعر البتة أنـه يكتب التاريخ كتابة جديدة .

لكن ، إن لم يجد التمحيص فهل أجاد على الاقل الاختيار ؟ جوابنا على هذا السؤال سلبي أيضا . فهو ، عن قصد وغير قصد ، لم يحسن دائما انتقـاء ما ينقل ، والح أحيانا في الاختصار الحاحا مخلا .

ولنضرب على ذلك بعض الامثلة ، عمادهـا السبر . ففيما يخص ولاية يزيد بن أبي مسلم (١٠٢ ـ ١٠٣ / ٧٢٠ ـ ٧٢١) ـ الذي حمل مسلمي البربر على اداء الجزية ، واعاد من عتق منهم الى الرق ، وخاصة مـوالي موسى بن نصير (٧٩ ـ ٩٥/٦٩٨ ـ ٧١٤) فوسمهم في أيديهم واتخذهم في شرطته ـ فـان ما يشـرح سياسته ، نجده عند الطبري (١٢٦) ، وعند اليعقوبي (١٢٧) ، وابن الاثير (١٢٨) ، وكأبن تغري بردي (١٢٩) وابن عذاري (١٣٠)) ، اكثر مما نجده عند ابن خلدون (١٣١) . وكذلك فيما يخص ثورة ميسرة (١٢٢/٧٤٠) بالمغرب ، فان

اهم نص يروي لنا قصة سفارته الفاشلة لدى هشام بن عبد الملك (١٠٥–١٢٥/ ٧٢٤–٧٤٣) فانما احتفظلنا به الطبري(١٣٢)، ولا نجد له خبرا عند ابن خلدون.

ولا فائدة في ان نطيل في تتبع الثغرات وضرب أمثلة عليها ، فهي أكثر من أن يحاط بها . وكل متصفح لتاريخ ابن خلدون يعلم علم اليقين انه لايغني البتة ، حتى في تاريخ المغرب ، عن غيره . بل نحن نجد في غيره أضعاف ما نجد فيه .

فان تجربتنا الشخصية مثلا قد افادتنا بصفة قطعية ، عندما كنا نكتب تاريخ الاغالبة (١٨٤ – ٢٩٦/٨٠٠ – ٩٠٩) ان اهم موسوعة يمكن الاعتماد عليها ، ليست (كتاب العبر) ، وانما هي (البيان المغرب) لابن عذاري ، ثم يأتي في المرحلة الثانية (كامل) ابن الاثير ، ثم (نهاية النويري) ، ولا يحتل ابن خلدون حسب تجربتنا ، الا المرتبة الرابعة ذلك أنه كثيرا ما يختصر اختصارا مخلا بفهم الواقع ، ولا يعدم الوقوع في الخلط والخطأ . ثم هو ، كغيره من مؤرخي السنة ، يضرب صفحا ، وعمدا في نظرنا ، عن النقل عن بعض المصادر المعادية ، وذلك لتلك الاسباب المذهبية التي تؤدي الى التحريف ، لا بالتشويه دائما ، بل بالصمت أحيانا ، والتي سبق أن حذر منها ابن خلدون ، ثم وقع في حبالها . فهو مثلا لاينقل شيئاً عن (افتتاح الدعوة (١٣٣)) للقاضي النعمان بن حيون – وهو أهم مصدر يصور لنا ، من الزاوية الشيعية ، انبعاث الحركة الفاطمية في جبال كتامة بزعامة أبي عبد الله الداعي – ولم يكن ذلك على الارجح جهلا وانما قصدا.

ثم هو ، فيما يخص الموحدين ورغم اعجابه بهم ، يفرط في التلخيص مما يجعلنا نفضل عليه بكثير ابن عذارى ، الذي يورد الاخبار بأكثر تفصيل ودقة ووضوح ، وان لم يكن هو أيضا معاصرا للحوادث وانما مجرد ناقل . فابن خلدون لايذكر شيئا عن عقيدة الموحدين ونظمهم ، حتى كأنه لم يطلع على أمهات المؤلفات التي تقص أخبارهم ، والتي بلغنا بعضها : كمذكرات البيدق ، (والمن بالامامة) لابن صاحب الصلاة و (نظم الجمان) لابن القطان (١٣٤) ، وغير ذلك . وهكذا يكاد يفقد مما يرويه ابن خلدون كل فائدة .

وهذا الاستاذ برانشفيك R. Brunschvig وهو من اهم من مارسه واعتمد عليه في دراسته عن الحفصيين ، يلاحظ (ان التواريخ الدقيقة ليست مما يبدع فيه . فالمعطيات المؤرخة كثيرا ما تتناقض تناقضا مفرطا خلال تأليفه ، مما يدعو في كثير من الاحوال الى ان نفضل عليها ما توروده مصادر اخرى اكثر تواضعا وابعد اختصارا (١٣٥)) .

ان كتاب العبر ، في مستوى النقل ، لايخلو اذن ، كما بينا ، من عيوب ونقائص عديدة تنزع عنه ثوب الجلالة الذي طالما شمله . غير ان هذا لايعني حتما انه يفقد كل فائدة ترجى . وذلك أولا لانه قد يوجد في النهر مالا يوجد في البحر . فقد نعثر فيه على معلومات تكميلية أو توضحية اهملتها الموسوعات الاخرى . فهو مثلا استعمل استعمالا احسن واشمل المصادر العبرية والنصرانية المعربة (١٣٦)، وخاصة منها تاريخ هرشيوش (١٣٧) ، Orasius الذي تفرد بالنقل عنه نقلا واسعا ، وهذا ما أشار اليه من قبل المستشرق الايطالي ليفي دلا فيدا L. Della Vida الذي ينبه (ان ابن خلدون هو المؤلف العربي الوحيد الذي استخدم استخداما واسعا وذكيا تاريخ هرشيوش فيما نقله في تاريخه العام(١٣٨)، وهو في كل الاحوال يمكن طبعا من المقارنات الصالحة ، ومن التعرف على راي صاحبه في أهم القضايا .

غير أن قيمة الكتاب التي لاتجحد تكمن خاصة في مستوى المشاهدة ، أي فيما يرويه ابن خلدون كمعاصر للاحداث التي عاشها ، أو شارك احيانا كممثل نشيط في بعض أدوارها . ولقد اتيحت لنا الفرصة ، في هذا المستوى كي ندرك قيمته بالنسبة للجالية الاندلسية التي نزحت الى المغرب في القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي) ولعبت دورا حاسما على الصعيد السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي ، يفوق الدور الذي كان للهجرة الجماعية الثانية والاخيرة بعد قرار الطرد الذي اتخذ سنة ١٦٠٩ ميلادية فان كتاب العبر كان مصدرنا الاساسي ، ولولا ما توفر لنا فيه من معلومات وملاحظات لما استطعنا ان نبلغ غايتنا على الوجه الذي تأتى لنا (١٣٩) .

وكذلك بالنسبة للشرق ، فان كتاب العبر يكتسي بالنسبة لتاريخ الترك ، والمماليك وتيمورلنك خاصة ، الذي اتصل به المؤلف اتصالا مباشرا ، اهمية تفوق غيره كما لاحظ ذلك الاستاذ فيشيل (١٤٠) W. J. Fischel بعد القيام بمقارنات عديدة . فابن خلدون قد احتفظ لنا بمعلومات اجتهد فيها أن يبلغ اكثر من التمحيص والتحقيق ، معتمدا ، زيادة عن مشاهداته الخاصة ، لا المصادر الكتابية فقط ، بل أيضا ملحوظات المسافرين ، وروايات من شاركوا في الاحداث أو واكبوها من موظفين سامين وغيرهم .

غير أنه ، هنا أيضا ، يفاجئنا أحيانا بصمت ونقص غريبين : فهو لايذكر شيئا مثلا عن المجاعة الرهيبة التي اجتاحت مصر في أيام برقوق ؟ ولا ينبس

بينت شفة عن التجارة التي كانت تربط مصر بالهند عن طريق اليمن ، والتي كان لها دور أساسي في الاقتصاد والسياسية ، ويغفل غير ذلك .

ان كل ما سبق يفيدنا بوجه عام ان الكتابين ، الثاني والثالث في تاريخ العرب والبربر ، من تأليف ابن خلدون ، لايخلوان طبعا من فائدة . غير أن هذه الفائدة تزيد وتقل : تزيد عندما يكون ابن خلدون مشاهد عيان ، وتقل ، بل تكاد تنعدم ، عندما يكتفي بدور الناقل . ان موسوعة ابن خلدون ليست أحسن موسوعة تاريخية بلغتنا فموسوعات المؤرخين المحترفين حقا ، كالطبري أو ابن الاثير مثلا بالنسبة للمشرق ، تفوقها بكثير . ذلك أن ابن خلدون وضع منهجية ، ولم يكد يطبقها . فهو لايسلم من الوقوع في الخطأ ، ولا يحسن دائما الاختيار ، وكثيراً ما يلح في الاختصار الحاحا مخلا . فان أحسن موسوعة مثلا ، بالنسبة لتاريخ المغرب والاندلس ليست كتاب العبر ـ كما قد يتوهم احيانا ـ وانما بيان ابن عذاري ، وان كان صاحبه ، الذي عاش في نصف القرن الذي سبق ابن خلدون ، لم يبلغ شهرة هذا الاخير ، بل ظلمه أصحاب الطبقات جميعا حتى انهم لم يثبتوا له ولو ترجمة واحدة .

ان ابن خلدون في الحقيقة لم يكن مؤرخا محترفا ، وان انطلق من شواغل تاريخية ، وسجل احيانا ما شاهده بدقة تفوق ما بلغنا عن طريق غيره ، وان دعاه توقد ذكائه الى النقل عمن اغفله من سبقه في بعض الحالات وكان معجبا بتاريخه . ذلك ان همه في النهاية لم يكن في تسجيل الحوادث في حد ذاتها ، وانما في فهم اسبابها ومسبباتها ، دواعيها ونتائجها . لم يكن التاريخ بالنسبة اليه غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة لفهم ذلك الانقلاب الهائل الذي عاشه ، فاصطدم به ، وتألم كغيره لما شاهده من احتضار الحضارة الاسلامية ، فأراد ان يكشف عن القوانين التي تنشيء الحضارات وتميتها . وكيف يتحقق هذا الكشف ما لم ينطلق من التاريخ أي من سجل الحضارات ؟ وهكذا ينقلب التاريخ الى مخبر ، أي الى خزان هائل من التجارب التي بفضل ما يسلط عليها من التحليل والتأويل ، تمكن من اكتشاف نواميس العمران ، او حسب اصطلاح ابن خلدون (ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته (١٤١)) .

فهناك اذن علاقة جدلية بين علم العمران المضمن في الكتاب الاول ، والتاريخ المودع في الكتابين الثاني والثالث : فبقدر ما تحكم المنهجية ، اعتمادا على علم العمران ، يضبط التاريخ بصفة تجنب من الوقوع في (المغالط) وتوحي بالثقة ، وبقدر ما تتوفر هذه الثقة في ضبط القضايا التاريخية ضبطا يقي من (المغالط)

يمكن الاعتماد عليها لاستخلاص نواميس العمران ، تلك النواميس التي تدير عجله التاريخ وتوجهها .

فصلة الكتاب الاول في العمران ـ الذي اعتدنا ان ندعوه بالمقدمة ـ بالكتابين الثاني والثالث في التاريخ ، انما هي اذن صلة المخبر بما يكتشف فيه من القوانين. فالكتابان الاول والثاني لا يزيدان عن كونهما المخبر الذي عمل فيه الفكر الخلدوني ، فعثر على جملة من القوانين تكون علما جديدا ومستقلا بنفسه دعاه صاحبه علم العمران ، اي انه اكتشف ما نسميه اليوم بالعلوم الاقتصادية والاجتماعية .

فالكتاب الاول في العمران اذن ، كما اكد ذلك صاحبه بصفة لاتقبل الشك، يحتوي على علم مستقل بنفسه ، يجب لا ان نفهمه ونحلله في حد ذاته فقط ، بل ان نتابع ايضا بناءه بناء قائما بنفسه ، كما يدعونا الى ذلك واضعه في عبارة واضحة قائلا :

(ولعل من يأتي بعدنا ، ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين ، يغوص من مسائله على اكثر مما كتبنا . فليس على مستنبط الفن استقصاء مسائله ، وانما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله ، وما يتكلم فيه . والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا الى ان يكمل . **والله يعلم وانتم لا تعلمون** (١٤٢)) .

فابن خلدون قد اكتفى (بتعيين موضوع العلم) ، وترك لمن يأتي من بعده مهمة متابعة البحث . وبعد قرون ، تحققت رغبته : فهذه علوم الاقتصاد والاجتماع على أشد ما تكون من الازدهار والاستقلال بذاتها ، والمستقبل مفتوح على مصراعيه امامها .

واما الكتابان الثاني والثالث في تاريخ العرب والبربر ، فهما ، كما سبق ان اوضحنا لا يزيدان عن كونهما مخبر ، وهذا المخبر الخلدوني في حاجة اكيدة الى دراسة مستقلة ، حتى نتمكن من معرفة دقيقة للمعطيات التي منها انطلق استقراء الباحث . ان تجربتنا الشخصية ، وتجارب المؤرخين الذين استخدموا هذين الكتابين ، وعمليات السبر التي قمنا بها ، كل ذلك يحمل على الاعتقاد ان المخبر الذي عمل فيه ابن خلدون قد حوى الغث والسمين ، فلم تكن اجهزته

كلها في مستوى الغاية المنشودة . فالغريب اذن ان يكون ابن خلدون ، انطلاقا من قاعدة ضيقة نسبيا وغير متينة دائما ، قد استطاع ان يبلغ النتائج التي انتهى اليها ، ويرتقي الى القمة التي وصل اليها . وهذا ما قد لاحظه آرنولد طوينبي (توفي في ١٩٧٥/١٠/٢٢) ، الذي سلك نفس السبيل ، وانتهى الى نتائج لا تختلف في جوهرها عما اهتدى اليه ابن خلدون . فهو ينص : (ان كل من يطالع مصنف ابن خلدون يملأه الاعجاب بقوة ولمعان ذلك الفكر الذي استطاع ان يجني الكثير من ذلك المقدار من المعطيات التي توفرت لديه . غير ان الناقد الغربي المعاصر قد يشعر ان أسس ابن خلدون التجريبية كانت اضيق من ان تتحمل ، أو تبرر ، وزن تعميماته البليغة (١٤٣)) .

فان يكن اذن ابن خلدون قد جنى الكثير من اليسير ، فذلك مما لا شك فيه ، ولعل ذلك سر العبقرية .

---

(١) انظر : N. Nassar, **Le maître d'Ibn Khaldoun al-Abili,** dans studia Islamica, Paris, 1964 XX. 103-115.

(٢) ط . القاهرة ١٩٠٥

(٣) مخطوط رقم١٦١٤ مكتبة الاسكوريال، اسبانيا ، وهو مؤرخ في١٩ صفر٧٥٢/٢٧-٤-١٣٥١

(٤) وهي : شرح البردة للبوصيري ، ملخص في المنطق ، مؤلف في الحساب ، عدة ملخصات لتآليف ابن رشد ، وشرح لقصيدة لابن الخطيب في أصول الفقه . وردت هذه الارشادات في الاحاطة لابن الخطيب ، وفي هذا دلالة على انكل هذه الكتب الفت قبل سنة ٧٦٥/١٣٦٤ وهو التاريخ الذي تم فيه تأليف الاحاطة .

(٥) انظر الدرس الذي القاه بالمدرسة القمحية في (التعريف) . ص ٢٧٩ - ٢٨٥

(٦) توجد بالجزائر ، بولاية وهران ، على ٦ كم من قرية فرندة .

(٧) انظر مؤلفنا : **Ibn Haldun et l'histoire,** Tunis, 1973, p. 11-12.

(٨) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(٩) وذلك واضح في كامل القسم الاول من المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٥ ج١ ص ٣٤٩ - ٤١٣

(١٠) المقدمة ج١ ص ٤١٣

(١١) المقدمة ، ج١ ص ٤١٥ - ٤١٧

(١٢) لقد شرح علي عبد الواحد وافي في تحقيقه للمقدمة هذه العبارة بقوله : (ويقصد ابن خلدون من كلمة (العوارض الذاتية) او (ما يلحق المجتمع من العوارض لذاته) ما نقصده نحن من كلمة (القوانين) ويتضح قصده هذا مما كتبه في الفصل الخاص بعلم الهندسة من الباب السادس من مقدمته اذ يقول (هذا العلم هو النظر في المقادير ، اما المتصلة كالخطوط والسطح والجسم ، وأما المنفصلة كالاعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل ان كان مثلث فزواياه مثل قائمتين ، ومثل ان كل خطين متوازيين لايلتقيان في وجه ولو خرجا الى غير نهاية ومثل كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ٠٠٠) ج١ ص ٢٤١ — ٢٤٢

(١٣) المقدمة ج١ ص ٤١٣ — ٤١٤

(١٤) المقدمة ج٢ ص ٤١٤

(١٥) المقدمة ج١ ص ٤١٧ حيث يشرح المحقق أسفل الصفحة المثلين ٠

(١٦) المقدمة ج١ ص ٤١٧ — ٤١٨

(١٧) ص ٨

(١٨) المقدمة ج١ ص ٣٤٩ — ٣٦١

(١٩) المقدمة ج١ ص ٣٦٢ — ٤٠٨

(٢٠) المقدمة ج١ ص ٣٥١

(٢١) المقدمة ج١ ص ٣٥١

(٢٢) المقدمة ج١ ص ٣٥١

(٢٣) المقدمة ج١ ص ٣٥٢

(٢٤) قد ورد اسمه محرفا في كلا الطبعتين (بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤ وتحقيق علي عبد الواحد وافي القاهرة ١٩٦٥ ج١ ص ٣٥٣) حيث نقرأ : (ابن الرفيق) فيما يخص هذا المؤرخ الافريقي انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، النص الفرنسي والفصل الذي نشرناه بمجلة (اريكا) :
A propos d'Ibn al-RaQiq, Arabica XIX (1972) p. 86-96.

(٢٥) المقدمة ج١ ص ٣٥٣

(٢٦) المقدمة ج١ ص ٣٥٣

(٢٧) المقدمة ج١ ص ٣٥٥

(٢٨) المقدمة ج١ ص ٣٥٥

(٢٩) المقدمة ج١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦

(٣٠) المقدمة ج١ ص ٣٦٢ — ٤٠٨

(٣١) المقدمة ج١ ص ٣٥٦

(٣٢) انظر بحثنا (الهجرة الاندلسية الى افريقية ايام الحفصيين) في مجلة الاصالة ، عدد ٢٦ ، الجزائر ١٩٧٥ ، ص ٤٦ — ٩٠

(٣٣) الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي ، الرباط ١٩٦٨ ، ص ٦٤ — ٦٥ ، ٢٣٧ — ٢٣٩

(٣٤) انظر مؤلفنا : **Ibn Haldun et l'histoire,** Tunis 1973, p. 7.

(٣٥) انظر بحثنا :

l'effondrement démographique au Magreb du XI au XVes, dans les Cahiers de Tunisie, No. 97 - 98 (1977) p. 50-61.

(٣٦) المقدمة ج١ ص ٤٠٥ — ٤٠٦

(٣٧) المقدمة ج١ ص ٣٦٣ — ٣٩٨

(٣٨) المقدمة ج١ ص ٤٠٥ حيث يعتبرانه (صار اماما للمؤرخين يرجعون اليه) .

(٣٩) المقدمة ج١ ص ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٨٠ ، ٤١٠ ، ٤١٢

(٤٠) المقدمة ج١ ص ٤٠٩ حيث يعتبران (الميل والتشيع غطاء على عين البصيرة) .

(٤١) المقدمة ج١ ص ٤١٠ حيث يذكر من أسباب تحريف الحقيقة (تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب ... والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة) . وسنعود الى ذلك .

(٤٢) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٤٣) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٤٤) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٤٥) انظر فيما يخص هذه المنهجية واستخدامها في ميدان التاريخ :

R. Brunschvig, **Ibn Abd al-Hakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes** : étude critique, dans AIEO VI (1947) p. 108-155.

(٤٦) المقدمة ج١ ص ٤٠٥

(٤٧) المقدمة ج١ ص ٣٩٩ — ٤٠٠

(٤٨) هل فات ابن خلدون ان الانشاء ايضا يدخله الكذب من نفس السبل التي يتطرق منها الى الخبر — وقد حللها — أم هل هو احجم دون فتح باب نقد الشريعة ، ووضعها ، كما فعل بالنسبة للتاريخ ، موضع الشك المنهجي ؟!

(٤٩) وفي ذلك يلاحظ ابن خلدون : (وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية ، لان معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها متى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط) المقدمة ج١ ص ٤١٣

(٥٠) المقدمة ج١ ص ٤٠٩

(٥١) المقدمة ج١ ص ٤٠٩

(٥٢) المقدمة ج١ ص ٤١٠

(٥٣) المقدمة ج١ ص ٤١٢

(٥٤) المقدمة ج١ ص ٤١٢ — ٤١٣

(٥٥) قد سبق شرح هذه العبارة (ص٧ تعليق ١٥) وهي تفيد ما نعبر عنه بالنواميس الطبيعية.

(٥٦) المقدمة ج١ ص ٤١٣ — ٤١٤

(٥٧) المقدمة ج١ ص ٣٦٢ — ٣٦٣ ، ٣٩٨ — ٣٩٩ ، ٤١٠

(٥٨) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٥٩) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٦٠) المقدمة ج١ ص ٣٩٨

(٦١) المقدمة ج١ ص ٤١٠

(٦٢) المقدمة ج١ ص ٤١٠

(٦٣) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٦٤) المقدمة ج١ ص ٣٩٩

(٦٥) المقدمة ج١ ص ٤١٩ ثم في غضون الكتـاب ، ودفعا للالتباس (انظر تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ج١ ص ٢٢٦ — ٢٢٩ ، ٢٣٤ — ٢٣٥) ، تحمل هذه الفصول اسم (باب) ، وكل باب من هذه الابواب ينقسم بدوره الى مقدمات وفصول . واتت هذه الابواب مختلفه الحجم على هذه الصورة : الباب الاول (ج١ ص ٤٢٠ — ٥٧٦) ، الباب الثاني (ج٢ ص ٥٧٧—٦٣٠) ، الباب الثالث (ج٢ ص ٦٣١ — ٩٥٠) ، الباب الرابع (ج٣ ص ٩٦٥ — ١٠٢٦) ، الباب الخامس (ج٣ ص ١٠٢٧ — ١١٠٦)، الباب السادس (ج٣ ص ١١٠٧ — ١٢٥٨)،(ج٤ ص ١٢٧٢ — ١٤٧٥)

(٦٦) انظر ما سبق ، وانظر ايضا :
Ibn Haldoun et l'Histoire, surtout p. 110-117.

(٦٧) المقدمة ج١ ص ٤٠٦ — ٤٠٧

(٦٨) اربعة اجزاء لتاريخ العرب ، وجزءان لتاريخ البربر .

(٦٩) في ط. بيروت ١٩٦٧ ، ص ٨ : (وذلك) وهو خطأ واضح .

(٧٠) المقدمة ، ج١ ص ٣٥٦

(٧١) المقدمة ج١ ص ٣٥٦

(٧٢) يمكن الاطلاع على تحليل محتوى الكتابين ، الثاني والثالث ، في دراسة علي عبد الواحد وافي التي مهد بها لتحقيق المقدمة (ج١ ص ١٤٤ — ١٥١) **الكتاب الثاني** في اخبار العرب ومـن عاصرهم : يقع في اربع مجلدات (ج٢ الى ٥ من ط بيروت ١٩٦٧) ج٢ ص ٣ — ٧٠٣ أصل الخليقة وانساب الامم المختلفة ، وفي ذلك ابن خلدون لايزيد عن تقليد من سبقه ويشمل ذلك ربع الكتاب الثاني تقريبا — ج٢ من ص ٧٠٣ الى ص ١١٤٣ وكامل الاجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ الى ص ١٧٤ : الدول الاسلامية التي ارتكز نفوذها على قيادة العرب ، وسواء اكان ذلك فى المشرق ، أو المغرب أو الاندلس من ظهور الاسلام وحياة الرسول وأيام الخلفاء الراشدين .. حتى غاية سنة ٧٩٧ بالنسبة لمصر وللترك . — **الكتاب الثالث** في تاريخ البربر ومن اليهم : يقع في مجلدين (ج٦و٧ من ط بيروت ١٩٦٧) من ص ١٧٥ . اختصر فيه ابن خلدون اخبار البربر والدول المتقدمة عن ايامه ، وأفاض في تاريخ عن قرب من عهده ، أو من كان معاصرا له ، وخاصة في بني حفص وبني عبد الواد وبني مرين . وبلغ هذا التاريخ الى غاية سنة ٧٩٦ أي الى ما قبل وفاته ببضعة أعوام (توفي سنة ٨٠٨) . وكـلا الكتابين اتمهما بالقاهرة ، زيادة وتنقيحا بعد التحرير الاول الذي أعده بتونس (٧٨٠ — ٧٨٤) واهداه الى الامير الحفصي العباس (٧٧٢ — ٧٩٦ / ١٣٧٠ — ١٣٩٤) . ويعرف هذا التحرير الاول (بالنسخة التونسية) (انظر محتواها في دراسة علي عبد الواحد وافي) التي مهد بها للمقدمة ج١ ص ١٠١و١٣٣) وهذه النسخة لم تبلغنا . وانما بلغتنا النسخة الثانية الكاملة التي اتمها بالقاهرة حوالي سنة ٧٩٩، واهدى نظيرا منها الى ملك مصر، الظاهر برقوق (٧٨٤ — ٨٠١/١٣٨٢ — ١٣٩٩) ونظيرا آخر موقوفا على خزانة الكتب في جامع القرويين بفاس الى السلطان أبي فارس عبد العزيز (٧٩٦ — ٧٩٩ / ١٣٩٤ — ١٣٩٧) وتعرف هذه النسخة (بالنسخة الفارسية) ، وعنها نقلت ، بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، كامل النسخ التي بلغتنا (انظر علي عبد الواحد وافي ، المصدر المذكور ص ١٣٥) .

(٧٣) انظر بحثنا (نظرية النشوء والارتقاء فى مقدمة ابن خلدون) . سينشر هذا البحث في (اعمال ملتقى ابن خلدون) الذي عقد من ١٤ الى ١٧ فيفري (شباط) ١٩٧٩ بمدينة فاس .

(٧٤) المقدمة ج١ ص ٤٠٩

(٧٥) تجلت هذه النزعة خاصة في المؤتمر الدولي للتاريخ الذي التأم بباريس سنة ١٩٥٠ وبها التزمت المجلة التاريخية الفرنسية التي ما زالت تصدر تحت عنوان : Annales, E.S.C.

(٧٦) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٧٧) المقدمة ج١ ص ٤٠٥

(٧٨) من دون ان يجحد ما يدين به لمن سبقه . انظر المقدمة ج١ ص ٤٠٥

(٧٩) المقدمة ج١ ص ٣٥٦

(٨٠) انظر ما سبق ص ١٨ تعليق ٧٤

(٨١) المقدمة ج١ ص ٤٠٦

(٨٢) المقدمة ج١ ص ٣٥٥

(٨٣) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٨٤) انظر علي عبد الواحد وافي ، الدراسة التي مهد بها لتحقيق المقدمة ، ج١ ص ١٣٦–١٣٨ و ص ٣٣٢ – ٣٣٤ وكان من المشيدين بابن خلدون ، من المؤرخين : تقي الدين المقريزي (٧٦٦–٨٤٥/ ٣٦٥) وابو المحاسن بن تغري بردي (٨١٣ – ١٤١٠/٨٧٤ – ١٤٧٠) وابو العباس القلقشندي (٧٥٦ – ١٣٥٥/٨٢١ – ١٤١٨) ومن خصومه : ابن عرفة (٧١٦ – ١٣١٦/٨٠٣ – ١٤٠٠) بتونس وبمصر : الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ – ١٣٧٢/٨٥٢ – ١٤٤٩) والركراكي (١٤١٧/٧٩٩) وبدر الدين العيني (٧٦٢ – ١٣٦٠/٨٥٥ – ١٤٥١) والجمال عبد الله البشبيشي (٧٦٢–٨٢٠/ ١٣٦١ – ١٤١٧) .

(٨٥) أخذ ابن حجر عن ابن خلدون ، وفي ذلك يقول : (اجتمعت بابن خلدون مرارا ونعمت من فوائده ومن تصانيفه ، خصوصا في التاريخ) رفع الاصر ، نقلا عن علي عبد الواحد وافي المصدر المذكور ، ص ١٣٨ ، وانظر ايضا ، في نفس المصدر ج١ ص ٥٥٢ ، صورتان من الاجازة التي طلبها ابن حجر ، ومنحها له ابن خلدون .

(٨٦) ابن حجر ، (انباء الغمر بابناء العمر) ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٩٤٠٤ ، عن مخطوط أحمد الثالث باسطنبول ، رقم ٢٩٤١ ج١ لوحة ١٧٢ ، وذلك نقلا عن عبد الرحمن بدوي (مؤلفات ابن خلدون) القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٨٦ . وابن حجر ينقل هنا عن العيني ، الذي يدعوه العيناني . أنظر أيضا محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري القاهرة ١٩٣٣ ص ٩٣ – ٩٤

(٨٧) (عقد الجمان فى تاريخ أهـل الزمان) عن المصورة المخطوطة رقم ١٥٨٤ تاريخ ، بدار الكتب المصرية ، القسم الثاني . وذلك نقلا عن عبد الرحمن بدوي (مؤلفات ابن خلدون ص ٢٨٨ . وقد نقل ذلك ابن حجر كما سبق . ويلاحظ أن العيني كان يعترف لابن خلدون بحسن المحاضرة فينص أنه (كان رجلا فاضلا ، صاحب أخبار ونوادر ، ومحاضرة مليحة) . غير أنه زيادة على احترازه في قيمته التاريخية ، يتهمه في سيرته وأخلاقه ، بدون تفصيل ، فيشير الى أنه (مع هذا كله كان يتهم بأمور قبيحة ، سامحة الله تعالى !) (نفس المصدر ص ٢٨٨) .

وقد ورد في (رفع الاصر عن قضاة مصر) لابن حجر (خط ٢١٤٩ و ٥٨٩٣ ، المكتبة الوطنية بباريس ، لوحة رقم ٨٠ أ) ما يلي : (وسئل عنه الركراكي ، فقال : عري من العلوم الشرعية ، له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها ، ولكن محاضرته اليها المنتهى ...) نقلا عن عبد الرحمن بدوي ، المصدر المذكور ، ص ٢٨١ . ويستخلص من هذا كله ان ابن خلدون ، ان طعن عليه فى عمله واخلاقه ، فكل معاصريه بهروا بحسن محاضرته ، ولم يجدوا بدا من الاعتراف له بذلك .

(٨٨) المقدمة ، ج١ ص ٣٦٢ – ٤٠٨
(٨٩) المقدمة ، ج١ ص ٣٦٧
(٩٠) المقدمة ج١ ص ٣٦٧
(٩١) المقدمة ج١ ص ٣٦٩
(٩٢) المقدمة ج١ ص ٣٦٩ – ٣٧٢
(٩٣) المقدمة ج١ ص ٣٧٢
(٩٤) المقدمـة ج١ ص ٣٧٥ ، واحتجن المال ، خص بـه نفسه . وفي ط بيروت ١٩٦٧ : (احتجافهم) .
(٩٥) المقدمة ج١ ص ٣٧٨
(٩٦) المقدمة ج١ ص ٣٨٠
(٩٧) المقدمة ج١ ص ٣٨٦
(٩٨) المقدمة ج١ ص ٣٩٠
(٩٩) المقدمة ج١ ص ٣٩٠
(١٠٠) المقدمة ج١ ص ٣٩٤
(١٠١) المقدمة ج١ ص ٣٩٤ . وهو يشير الى قوله تعالى : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا) (الاحزاب ، أية ٣٣) .
(١٠٢) المقدمة ج١ ص ٣٩٧
(١٠٣) المقدمة ج١ ص ٣٩٨
(١٠٤) المقدمة ج١ ص ٣٩٤ – ٣٩٥
(١٠٥) قد ورد هذا النسب شديد الاضطراب في مختلف المصادر وابن خلدون نفسه يورد هذه الانساب المختلفة (عبر ، ج٦ ص ٤٦٤ – ٤٦٥) . انظر أيضا محمد عبد الله عنان ، (عصر المرابطين والموحدين) ، القاهرة ١٩٦٤ ج١ ص ١٥٨ – ١٥٩ ، حيث نقرأ : (ومن الحق الذي لايقبل ذرة من الجدل ان ابن تومرت بربري الجنس ..) انظر أيضا كتاب الانساب (لمؤلف مجهول ، في E. -Provençal, **Documents inédits d'histoire almohade** - p. 21.
voir aussi, M. talbi, **Ibn Tumart**, dans les Africains, ouvrage collectif sous la direction de Ch-A. Julien, Paris 1978 XI, 139 et note 5.
(١٠٦) المقدمة ج١ ص ٣٧٤
(١٠٧) ص ٣٣٠ – ٣٣١
(١٠٨) المقدمة ج١ ص ٤١٠ انظر ايضا ما سبق ص ١٢
(١٠٩) العبر ، ج١ ص ١٠١١ – ١٠١٢ انظر ايضا :
W J. Fiscel **Ibn Khaldoun in Egypt** un. of California Press 1967 p. 74
(١١٠) العبر ، ج٥ ص ١٠١٢
(١١١) العبر ، ج٦ ص ٥٧٨ حيث نقرأ : (واما نسبه فهو عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين ابن علي بن أحمد بن والال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن وافتن بن محمد ابن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحدين . ويظهر منه ان هذا النسب القرشي وقع في المصامدة والتحم به) .

(١١٢) التعريف ، ص ٢٣٥
(١١٣) العبر ، ج٦ ص ٢١٤
(١١٤) العبر ، ج٧ ص ١٧ – ١٨
(١١٥) المقدمة ج١ ص ٣٦٧ . انظر ما سبق ص ١٦
(١١٦) العبر ج٦ ص ٢١٨وج٧ ص ١٧ – ١٨ . انظر ايضا الناصر (الاستقصاء) ج١ ص٨٢–٨٣
(١١٧) انظر بحثنا :
Un nouveau Fragment de l'histoire du maghrib 62-196/682-812.
L'époopée d'al-Kahina, dans les Cahiers de Tunisie.

(١١٨) العبر ج٦ ص ٢٤٦
(١١٩) العبر ج٦ ص ٢١٠
(١٢٠) العبر ج٦ ص ٢٦٧
(١٢١) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ص ٧٩ – ١٥٦
(١٢٢) العبر ، ج٦ ص ٢٦٨
(١٢٣) العبر ، ج٦ ص ٢٢٣ – وهذه ايضا هي رواية النص المنسوب للرقيق ، ص ١٢٩
(١٢٤) فتوح (ط A. Gateau) ص ١٤٢ – ١٤٣
(١٢٥) أبو زكريا ، كتابة السيرة واخبار الائمة ، ترجمة
R. le Tourneau, dans la Revue Africaine, 104 (1960)
الشماخي ، السير ، ص ١٢ ، البرادي ، الجواهر ، ص ١٧٠ – ١٧١
(١٢٦) التاريخ ، ط . دار المعارف ، ج٦ ص ٣٧٤ ، ٤٩٣ ، ٥٠٦ ، ٦١٧ ، ج٧ ص ٤٣١ ؛ ج٨ ص ٦٦
(١٢٧) التاريخ ، ط بيروت ١٩٥٠ ، ج٢ ص ٣١٣
(١٢٨) الكامل ، بيروت ١٩٦٥ ج٤ ص ٤٩٣ ، ٥٨٤ ، ج٥ ص ١١ ، ٧٧ ، ١٠١ ، ٤٠٨
(١٢٩) النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ – ٢٤٩
(١٣٠) البيـــان ج١ ص ٤٨ – ٤٩
(١٣١) العبر ، ج٦ ص ٢٢٠ – ٢٢١
(١٣٢) التاريخ ، ج٤ ص ٢٥٤ – ٢٥٥ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، ج٣ ص ٣٥
(١٣٣) طبع حديثا مرتين على التوالي : تحقيق الانسة وداد القاضي،بيروت ، وتحقيق فرحات الدشراوي ، **تونس**
(١٣٤) انظر بشأنه دراسة الانسة
De G. Fletcher, **the Nazm al-Juman as a source for almohad history** dans actes du premier congrès d'histoire et de Civilisation du magreb, Tunis, 1979, 1, 193 - 199.

(١٣٥) انظر : ٣٩٢
R.Brunschvig, **la Berberie Orientale sous les Hafsides,** Paris 1947 II,

(١٣٦) فهو ينقل مباشرة عن نص التوارة المترجم الى العربية (انظر في ذلك
W. J. Fischel, **Ibn Khaldoun,** (in Egypt) 123, 129

وينقل من مؤلف اسرائيلي يدعوه يوسف بن غريون (العبر ، ج٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣) ويظهر من قوله انه اشتبه عليه امره فحسبه يوسف فلافيوس ((Joseph Flavious)

غير ان الحقيقة هي ان النص الذي اعتمده هو المعروف في العصر الوسيط المسيحي (بتاريخ يوزفون) ((Chronique de Yosiphon)) وقد ترجم هذا التاريخ الى العربية فعلا (انظر فيشل ، المصدر المذكور ، ص ١٣٩ — ١٤٨) . وينقل كذلك عن سعيد ابن البطريق — Eutychius (٢٦٣ — ٣٢٨ / ٨٧٧ — ٩٤٠) وعن ابن العميد ، وجرجيس المكين .

(١٣٧) ابن خلدون يذكره مرارا في العبر (مثلا ج٢ ص ١٨ ، ٢٢ ، ٧٩ ، ١٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤٥٩ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣) والمقصود Pautus Orosius ، وهو من أصحاب القديس المغربي اغسطينوس ((St. Augustun) (٣٤٥ / ٤٣٠) ولقد عاش هرشيوش في القرن الخامس المسيحي ، والف تاريخا عاما بعنوان : Histoire Adversus Paganas وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية بقرطبة أيام الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ / ٩١٢ — ٩٦١) ، وبلغتنا ترجمته فى مخطوط محتفظ به في مكتبة كلومبيا بالولايات المتحدة ، وقد نقل هذا الكتاب ، قبل ابن خلدون ، نقلا يسيرا ، ابن جلجل ، في طبقات الاطباء والحكماء ، وكذلك ابن ابي اصبيعة ، انظر :
Levi Della Vida, **la traduzione araba della storie** dans al Andalus XIX, p. 257-293. di oraso

وانظر ايضا الدراسة التي قدمها عبد الرحمن بدوي في ملتقى ابن خلدون الذي عقد بالرباط في افريل ١٩٧٩ ، والتي ستنشر في أعمال هذا الملتقى .

(١٣٨) انظر :
Levi Della Vida, op. cit. p. 261. **la traduzione arabe della storie,** vol. XIX, fasc 2, Madrid, Grenade 1954 p. 261.

(١٣٩) انظر بحثنا : الهجرة الاندلسية الاولى الى افريقية ايام الحفصيين ، في مجلة الاصالة ع ٢٦/ الجزائر ١٩٧٥ ص ٤٦ — ٩٠

(١٤٠) انظر مؤلفيه: **Ibn Khaldoun and Tamerlan,** Un of California,1952
Ibn Khaldoun in Egypt. p. 108.

(١٤١) انظر ما سبق ص ٧ تعليق ١٥ .

(١٤٢) المقدمة ج٤ ص ١٤٧٥ — آخر آيتي ٢١٦ و ٢٣٢ من سورة البقرة .

(١٤٣) انظر : Toynbee, **A study of History,** 6 ed. 1955, III, 475.

التراث العربي
وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

مدير مركز تنسيق التعريب بالرباط

الحضارة في مدلولها العام تستلزم طائفة من العناصر ، ابرزها : شيوع العمران وانتشار العلوم والفنون وحسن انتظـام الاجتماع وتوازن الاقتصاد وعظمة الجهاز السياسي وضخامة المقومات العسكرية وما شئت من مظاهر العزة والمنعة والوفرة والامن والنظام . والحضارات تقوى وتضعف بحسب قوة تلك العناصر وضعفها ودرجة اكتمالها والصبغة التي تصطبغ بها ، فهنالك حضارات يطغى فيها الجانب المادي على الجانب الروحي أي تسود فيها مظاهر العمران والمدنية الملموسة ، وتلك سمة يغلب وجودها في الحضارات الاوربية بخلاف الحضارات الشرقية ، التي تضم الى جانب هيكلها المادي مجموعة روحية لا تزال الانسانية تستمد منها الى الآن سواء في ميدان الفلسفة أم الاقتصاد أم الاجتماع . وغير خاف ان اقدم الحضارات في العالم هي الحضارة الشرقية من صينية وهندية ومصرية وآشورية وكلدانيـة وفينيقية وفارسية . ولهـذه الحضارات الاسيوية تراث فكري ومادي كان ولا يزال من أجل دعائم الحضارة الغربية الآرية . وأقول مادي لان كثيرا من الاختراعات قد استمدتها الانسانية منذ فجر التاريخ من الحضارات السامية القديمة .

ان من يتتبع مقومات الحضارات الانسانية يلاحظ ظاهرة قديمة وهي امكان رد معظم هـذه المقومات الى المدنية الشرقيـة ، ففي الفلسفة وفي العلوم وفي الاقتصاد يصطدم المؤرخ بطائفة من المعلومات منتشرة في كتب منها المطبوع ومنها المخطوط يدل مجموعها على ان كثيرا من مظاهر المدنية التي تبناها عصر الانبعاث في أوربا ترجع لاعمق العصور ولاعرق المدنيات الشرقية .

والحضارات تتكيف تبعا للجو المحلي وطبقـا لمؤثرات تتفاعل فتسمها بطابع خاص .

فما هي وضعية الحضارة المغربية بالنسبة للحضارات العالمية ؟ وما هي منزلتها كحضارة اسلامية بالنسبة للحضارات التي توالت على المغرب قبل الفتح الاسلامي ؟ وما هي علاقــة الحضارة الشرقية بالحضارة المغربيــة في عدوتى المغرب والاندلس ؟

ان العرب لما فتحوا افريقية والمغرب وجدوا الامم التي تنازعت السلطة في المغرب قبل دخول الاسلام اليه والحضارة القرطاجية قد قضى عليها طغيان الرومان الذين محقوا عاصمة قرطاج واستأصلوا من ربوعها الزاهرة جذور المدنية والعمران ثم بنوا على انقاضها شيئا جديدا ما لبث الوندال ان استأصلوه بدورهم ،ولكن لم يلبثوا في المغرب زهاء القرن حتى انقض عليهم الروم سكان الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزانس) فارتكبوا فيهم مـا ارتكبوه هم في في الرومان وما ارتكبه الرومان في القرطاجنيين . وقد ذكر المؤرخون انه لم تمض ستة اشهر على انتصار الروم حتى عفوا على آثار الوندال بالبلاد . وخرج المغرب من سلسلة الاحتلالات الاجنبية صفر اليد خاوي الوفاض منهوك القوى، ووجد سكان البـلاد ــ وهم البربر ــ انفسهم كما كانوا أول مـرة بـدائيين في حضارتهم . وقد اكد الاستاذ الفريد بيل Alfred Bel في كتابه (ديانة الاسلام في بلاد البربر ، ص ٦٤) ان مما لوحظ كون لغـة القرطاجنيين والرومان وكل ما استمده البربر خلال الاحتلال الروماني والقرطاجني قد اندرس بعد انقضاء الاحتلال المذكور ، وان البربر عادوا الى استعمال لغتهم والى اساليبهم الوحشية مما يدلنا على انهم لم يستفيدوا قلامة ظفر من حضارة قرطاج ولا رومة . ولعل الاستاذ بيل نسي ان يقول بأن الشيء الذي ظل متغلغلا في روح البرابرة هـو اللغة البونية التي كانت قريبة من العربية والتي امتد اشعاعها على يد الكنعانيين العرب بين ابناء البربر من قرطاج الى قابس ومن طنجة الى بجاية .

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلالات الاجنبية ؟ أم كانوا مغمورين في بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الاجانب ؟ يجب ان نعلم قبل كل شيء ان البربر اسيويون لا افارقة وانهم هاجروا من آسيا الى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبيــة . وجـاء برابرة الاطلس المغربي على الخصوص من ربوع الشام حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع ابناء عمهم العرب الكنعانيين . فالحضارة البربرية حضارة اسيوية بدائية ترتكز على الزراعة والرعى ، وقد وصف لنا مؤرخون اجانب التجانس الذي كان ملحوظا بـين عادات العرب والبربر والذي كان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية .

وقد اخترع البربر احرفا هجائية في الوقت الذي اخترع الكنعانيون أحرفا خاصة بهم ، والحروف المعروفة بحروف تفناغ لا تزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين الى يومنا هذا . وعندما انكشف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب انساق البربر في تيار حضارتهم الشرقية الاصلية التي تتبلور فيها مثل عليا ملكت منهم المشاعر وتغلغلت في الاعماق حيث كانوا ــ كالعرب ــ يحبون الاستقلال ويتشبثون بالحرية وتجمعهم مع العرب كما قال سديو (Sédillot) (ميول وعواطف واحدة ومبادىء متشاكلة كحب الفخر والهيام بالحرية واكرام الضيف) .

وقد وجد البربر انفسهم بعد الفتح العربي الاسلامي ازاء شعب من بني عمومتهم يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة فامتزج العنصران ولم يزد توالي القرون هذا التمازج الا قوة ، فتكونت مع الزمان مدنية مغربية مزدوجة القوام انصهر في بوتقتها تراثان كلاهما شرقي الاصل طبعه الاسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص .

وهنا تظهر حيوية الاسلام في افريقيا الشمالية وخاصة تلك الحيوية التي اقر بها الفريد بيل ، كما أقر بها قبله وبعده مستشرقون منصفون ، فالاسلام هو الذي استطاع وحده ان يخلق في هذه البلاد حضارة حقا دائمة مكتملة العناصر بعد ما عجزت عن ذلك الحضارتان القرطاجنية والرومانية رغم سموهما . واعني بالحضارة الحق حضارة ترتكز على مقتضيات اجتماعية كوجود الامة واكتمال مقوماتها وتوفر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة ترابها وتراثها وهذا الشيء قد اوجده الاسلام الذي انضوى المغرب تحت رايته طوال اربعة عشر قرنا .

وقد تطورت تلك الحضارة المغربية ضمن دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة ، وتطورت بجانبها حضارة أخرى هي حضارة الاندلس التي استمدت روحها من تراث الشرق الذي نقله الفاتحون والمهاجرون ، وأضفت العوامل والتفاعلات المحلية على تلك الروح جلبابا لم تكن لحمته ولا سداه ليمتدا الى الاعماق حيث ظلت السيطرة للروح الشرقية وحدها .

ان للوضعية الجغرافية بعض الاثر في تكييف العقلية نوعا ما ثم الانتاج الفكري ثم مظاهر الحضارة ومع ذلك فقد ظلت الحضارتان الاندلسية والمغربية

شرقيتين بعد ان تفاعلتا نحوا من ثلاثة قرون أي منذ عهد المرابطين الى عهد المرينيين تحت اشراف عاصمتي مراكش وفاس .

والثقافة الشرقية هي المنوال الذي حاك عليه رجال الفكر المغاربة منذ صدر الاسلام ، ومن تتبع جزئيات التراثين الشرقي والمغربي اسلوبا ونزعة وروحا لاحظ وحدة الجوهر ادبا وفلسفة واجتماعا مع فروق سطحية مرجعها الى مقتضيات اللون المحلي .

فالحضارة المغربية شرقية بدءا ونهاية ليس فيها اي اثر يذكر للحضارة اللاتينية التي قدر لها ان تمر مر السحاب في هذه البلاد .

والحضارة الاندلسية حضارة مغربية صميمة اي شرقية المبنى عربية المعنى . وقد تداولت عواصم العدوتين وبالاخص مدينتي فاس وقرطبة مع عواصم الشرق في حمل راية الحضارة العربية الاسلامية في العالم أيام كان الجهل رابضا بكلكله الثقيل على اوربا ، فكانت فاس مركزا للاشعاع الفكري والروحي يستمد من نبراسه الاوربيون كما هو معلوم عند من له ادنى المام بتاريخ الحضارات .

وتراث العروبة نفسه لم يكتمل في كثير من مقوماته الا بمساهمة المغاربة في بناء صرحه كالشريف الادريسي (استاذ أوربا) بجغرافيته وابن بطوطة برحلاته وابن خلدون باجتماعياته ، والحاتمي باشراقاته وابن رشد بفلسفته وفقهه وطبه وابن الخطيب بأدبياته ونكاته (التي يبذ بها الجاحظ في كثير من الاحيان) وابن حزم بتنسيقاته الفلسفية والدينية ، وابن طفيل بنظرياته في الفلسفة الفطرية .

فنحن معشر المغاربة بعنصرينا أمة عربية المحتد شرقية الروح اسلامية العقيدة وحضارتنا حضارة شرقية عربية اسلامية في جوهرها ومقوماتها .

وهي حضارة تتمثل فيها كل المؤهلات التي تتكون الحضارة من بعضها فضلا عن مجموعها .

وقد عاش المغرب والاندلس متحدين نحوا من ثلاثة قرون (من عهد المرابطين الى اوائل عهد المرينيين) وتم الانصهار والتمازج بين العنصرين اللذين كانت تجمعهما عوامل شتى لما كان بين البلدين من اواصر التزاور والمبادلة ،

فكانت الوفود الاندلسية تترى على مراكش عاصمة المرابطين والموحدين ثم على فاس حاضرة المملكة المغربية في عهد المرينيين ، وكان افراد الشعب المغربي الذين يهبون بين الفينة والفينة لانجاد اخوانهم سكان العدوة الشمالية يتصلون بالعناصر الاندلسية ويقتبسون منها فكريا واجتماعيا . واستمر الاحتكاك عن طريق رجال مشهورين خلال القرنين الخامس والسادس حيث ظهر فلاسفة واطباء افذاذ كابن طفيل وابن رشد وبني زهر ، ولم يكد ينتصف القرن السابع الهجري الذي شهد سقوط معظم العواصم الاندلسية في قبضة الاسبان حتى تضخمت حركة الهجرة فكان لذلك اثره الفعال في حياة المغرب الناعمة وقد توالي سيل المهاجرين الاندلسيين أيام السعديين فنقلوا معهم نماذج الحضارة الاندلسية التي طبعت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المغربية وعند ما وقـع النفي العـام بالاندلس غصت رحاب بعض كبريات المدن المغربية كفاس وتطوان وسلا بعلماء وشعراء وفنانين وتجار وارباب حرف ساهموا فعليا في صهر الحضارتين صهرا طبعهما منذ ذلك العهد بطابع الطرافة والرصانة والسمو وقد امتزجت كثير من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين امتزاجا عميقا تعذر معه رد كل منهما الى ينبوعه في كثير من الاحايين .

وقد ابرز الدكتور رينـو Reinaud في كتابه الطب القديـم بالمغرب (نشرة معهد الدروس العليا عدد ١ ص ٧٢) « امتزاج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين » فما هي اذن هذه العناصر الخالدة التي بلورت حضارة المغرب والتي لا تزال في روحها ومبناها كفيلة بدعم كل تطور عربي في العصر الحديث ؟

فمن ابرز مظاهر تراثنا الفكري والحضاري الصالحة لنهضة عربية حديثة تلك العناصر الاساسية للمنهجية العلمية والتقنية التي ارتكز عليها الانبعاث في أوربا بعد عصر النهضة وانطواء العصور الوسطى التي ظلت قرابة الف عـام الاطار الزمني لازدهار الحضارة العربية في مختلف مجاليها الانسانية فقد برهن العرب طوال قرون عن اصالة نادرة وعن روح خـلاقة وعن استعداد للتكيف فأبدعوا منهجا تجريبيا رصينا لم يكن للانسانية عهد به وطوروا الاختصاص التقني وحرروا الفكر وعززوا شمولية الكشف العلمي بربط الماضي بالحاضر ودعم التبادل بين الشرق والغرب ، في تسامح وموضوعية وانكار للذات وتطلع عارم الى التضلع من اللغات واستكناه مختلف الاتجاهات والنظريات والمذاهب والنظم والعادات لدى الامم والشعوب ، تفتيقا للفكر وتوسيعا للافق ، وبذلك شادوا بنيانا شامخا ما زال الى الآن موئلا ومنبعا للفكر الانسانى النزيه .

فلنستعرض اذن الوانا من الكشوف المغربية في مجالات الطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها ، ثم بعض المجالى الاجتماعية والاقتصادية والفنية لنستشف مدى اسهام المغرب الاقصى في دعم الكيان العربي الاسلامي خاصة والانساني عامـة ــ فكرا وحضارة ــ بعناصر لا تزال غضة في منهجيتها وقوامها .

كان القرن الرابع في الاندلس هو عصر النهضة ، تفتق فيه الفكر العربي سواء من حيث دراسة الفنون والتقنيات أم من حيث الاختراعات والكشوف العلميـة (١) . وهكـذا برز ابن جلجل كأعظـم طبيب طبائعي في عصـره عرب « مفردات ديسقوريدس » وزاد عليها الادوية التي جهلها والتي كانت معروفة عند العرب ، كما بـرز أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتـاب « التعريف لمن عجز عن التأليف » الذي كان أعظم ممثل لفن الجراحة في المدرسة العربية(٢) اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في القرون الوسطى. وكتابه يعد اللبنة الاولى في هذا العلم اذ هو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصى المثانة واستخرجها بتشريح جراحى وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في رتق الجراحات . والظاهرة التي امتاز بهـا هذا الكتاب هو روحه التجريبية وتركيز النصوص على آلات اثبت صورها في كتـاب هو أول تعبير للجراحة كعلم(٣) . ويرى لوكلير(٤) ان المغرب كان أشد اقطار الاسلام عمقا من الناحيةالعلمية يشهد بذلك ــ حسب القفطى (٥) ــ عدد الاطباء والصيادلةالمغاربة الذين رافقوا المعز الفاطمي الى مصر .

وكانت بفاس في القرن الرابع مدرسة طبية(٦) . كما كان البرابرة قبل هذا العصر يستعملون الحقن بجراثيم الجدري لضمان حصانة المصاب(٧) . على ان القرنين الخامس والسادس قد عرفا في المغرب الاقصى تحـرر الفكر بصورة لم يسبق لهـا مثيل ــ كما قال لوكلير(٨) ــ تشهد بذلك رعاية البلاط المراكشي لامثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد وبني زهر . وقد اتصل بهذا الفن علم الصيدلة وعلم العقاقير والفلاحة حيث يعتبر كتاب ابن العوام ابي زكرياء يحيى بن محمد عديم النظير في الادب العربي(٩) « لما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة وثمينة » بل هو اعظم ما انتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة « وقد كان الشريف الادريسي السبتي من هذا الطراز فطاف فيآسيا وأوربا ووصف نباتاتكل قطر وصفا اصيلاً » (١٠) وكتابه فيالادوية ملىء بالملاحظات الشخصية اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه

في الاعشاب (لوكلير ج٢ ص٨) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص ٦٨) كما اعتمده استاذ ابن البيطار أبو العباس النبطي وهو مع تلميذه ابرز العلماء النباتيين العرب الذين لم ينجب الشرق من يضاهيهم في هذه الآونة عدا فخر الدين الرازي . وقد استطاع الاندلس بفضل شبكة علمائه ـ كما يقول لوكلير(١١) ـ ان يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الاسلامي وبفضل هذا الانبعاث العربي في الاندلس صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود وأصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم ، وقد استنجد اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني واذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية فنقل جيرار دوكريمون وحده من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا أو اغريقيا معربا . على ان حركة الترجمة بدأت في المغرب العربي منذ القرن الرابع ، فهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد أسس مدرسة سالرنا وهي أول مدرسة من نوعها في أوربا كانت مبعث أنوار الطب الحديث في العالم الغربي شارك في التدريس بها الطبيب يونس العربي الفاسي (اللسان العربي ج٥ ـ بحث الدكتور أحمد مكي) وقد ولد عام ٤٠٠ بتونس وتوفي عام ٤٧٥ هـ ، وظلت المخطوطات الطبية العربية التي حملها الى سالرنة غذاء أوربا عدة قرون ، وقد ترجم للاتينية أهم كتب الطب العربي كزاد المسافر لابن الجزار وكتب للرازي واسحق بن سليمان الاسرائيلي ، والف نحوا من اربعة وعشرين كتابا منها « قانون الطب » في اثنى عشر مجلدا وفياتيكوم (١٢) في الطب العام في سبعة أجزاء .

ونبغ في الشرق العربي في هذا العصر علماء افذاذ تساوقت ابتكاراتهم مع زملائهم في الغرب منهم السويدي صاحب « التذكرة » المتوفى عام ٦٩١ هـ وابن أبي أصيبعة وجمال الدين القفطي علي بن يوسف المصري (٦٤٦ هـ) وعبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ) (حيث امتاز في وصف اعشاب مصر) وابن النفيس المصري (٦٨٧ هـ) الذي كان أعظم أطباء عصره . ولعل مما ساعد على تطور الطب وما اتصل به من علوم سهر المنصور الموحدي على مصالح الاطباء وتنظيمه لمهنة الطب ـ وقد سبقه الى ذلك الخليفة المقتدر الذي فرض على الاطباء تأدية امتحان تقني فبلغ عدد المتخرجين ببغداد عام ٣١٩ هـ ثمانية وستين طبيبا (١٣) ، وقد اجري اول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام ٢٢١ هـ .

وكانت التجربة هي الطريقة العادية عند الاطباء حيث ظهر كتاب التذكرة لأبي العلاء زهر بن زهر الاندلسي الذي كان والده ابو مروان عبد الملك بن أبي بكر رئيس الطب ببغداد ثم بمصر والقيروان(١٤) ، وهو كتاب ترجم الى الفرنسية

عام ١٩١١ م بعد ان تعددت ترجماته عشر مرات بين ١٤٩٠ و ١٥٥٤ م كمجموعة من الملاحظات سجلها أبو العلاء لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة في مراكش وبالادوية المناسبة لها . ولابي العلاء أيضا « مجربات » طبية جمعت بمراكش عام ٥٢٦ هـ يوجد مخطوط لها في الاسكوريال (رقم ٨٤٤) . ولعل ولده ابن زهر ابا مروان عبد الملك مؤلف كتابي « الاقتصاد » و « التيسير » قد بذ سابقيه حيث اعتبر أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق(١٥) وكان لا يعالج الا بعد الفحص الدقيق وجس النبض والنظر الى قوارير البول لتحليله. وقد نهج ابن زهر خاصة في كتاب « التيسير » اسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة يصف الدواء على غرار اطباء عصرنا ويباشر الصيدلة لتجربة الادوية بنفسه ولذلك توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية في البلاط المراكشي الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله كالامراض الرئوية (التي منها تشريح القصبة في مرض الذبحة) وكذلك التخصص في الجهاز الهضمي حيث استعمل الانابيب المجوفة لتغذية المصابين بعسر البلع والحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب وارتكز على الطبيعة لعلاج الادواء(١٦) . وكان سر نجاحه هو تشبعه بروح العصر الحديث حيث كان يتسم مثلا بنكران الذات فينسى نفسه ويستغرق في مريضه وقد عرضت عليه حالات خطيرة حاول ان يعيشها مستمدا من ذكرياته وتجاربه ومنطقه . وقد برر كودار Godard (١٧) هذه الميزة عند ابن زهر فأكد انه استعاض بالمنهج التجريبي والطريقة العقلية عن التقليد في ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام . ولعل من النقص الملحوظ في عصرنا الحاضر تباعد هذه العناصر المتزايد بعضها عن بعض ، اما الحفيد ابو بكر بن ابي مروان (٥٩٦ هـ) فقد اضاف الى تضلعه في الطب مشاركته في العلوم الاسلامية حيث كان محدثا يحفظ صحيح البخاري بأسانيده(١٨) ولم يكن في زمانه اعلم منه باللغة ، وكان شاعرا يحفظ ديوان ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب(١٩) . وظاهرة المشاركة هذه توفرت في كثير من الاطباء كأبي جعفر بن هارون الترجالي تلميذ ابي بكر المعافري في علم الحديث والمتخصص في طب العيون وابي يحيى هانىء بن الحسن اللخمي الغرناطي المشارك في الحديث والاصول والطب الذي(٢٠) تتلمذ لابن فرتون بفاس . ومن الاطباء الذين كان لهم باع طويل في التجارب العلمية الوزير ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة شيخ ابن رشد المتوفى بفاس عام ٥٣٣هـ(٢١) وقد تعاون معه تلميذه ابو الحسن سفيان الاندلسي المتوفى عام ٥٣٧ هـ في

تأليف كتاب التجربتين(٢٢) . على ان ابن رشد نفسه ضرب اروع مثل في المنهجية التجريبية فاقترح في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الامراض الرئوية مشيرا الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية(٢٣) . وابن رشد هو أول من أشار الى الدورة الدموية الكبرى وعللها في كتابه « الكليات » الذي استمد منه ويليام هارفي (William Harvy) معظم نظرياته وقد سبقه ابن النفيس المصري الى الكشف عن الدورة الدموية الصغرى او الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون(٢٤) .

وهذه الروح العلمية الفياضة هي التي تمخض عنها ما اشار اليه مؤرخ فرنسي من ألد أعداء العرب هو (رونان (Renam)) في كتابه Averroès et l'Averroisme» (ابن رشد ومذهبه) من اعتراف كريسطوف كولومب في رسالة تركها بعد موته بأن الذي اوحى اليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربي في كتابه « الكليات » . على ان مجلة « نيوز ويك » الامريكية اكدت (في عدد ابريل ١٩٦٠) أن العرب انطلقوا قبل سنة ١١٠٠ م (أي قبل كريسطوف كولومب بأربعة قرون) من ميناء الدار البيضاء بالمغرب الاقصى فرسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي . واكد هذه النظرية كثير من العلماء(٢٥) .

اما المارستانات وهي المستشفيات والمصحات فقد وصف عبد الواحد المراكشي(٢٦) الذي عاش في بغداد ـ المستشفى الموحدي قائلا :

« وبنى اي المنصور الموحدي بمراكش بيمارستانا ما اظن ان في الدنيا مثله وذلك انه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار والمتسمومات والمأكولات واجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسط احداها رخام ابيض ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت واجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية واقام فيه الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وان كان غنيا دفع له ماله .. ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب

حمل اليه وعولج الى ان يستريح او يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى .. ولم يزل مستمرا على هذا الى ان مات » .

وذكر ميليى (في كتابه الموحدون) المؤلف عام ١٩٢٣ ص ١٢٩ ان هـذا المستشفى « لا يخلف وراءه مصحات اوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس » .

ولا بدع اذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لاوربا فقد قال ولتر في مختصر التاريخ : « ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب على حين كان الاوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون اربابه اذ ان الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائـر القديسين وبالتعاويذ والرقي التي كان يبيعها رجال الدين » الى ان قال : وكان الاوربيون يستنكفون من النظافة لانها تشبه الوضوء عند المسلمين » .

وقد كان الاوربيون يضطرون الى اللجوء للمستشفيات العربية فهذا الملك شانجه توجه الى قرطبة من أجل العلاج مـن مرض الاستسقاء (لوكلير ج٢ ص ٣٥١) .

وبدأ افول الحركة الفكرية في المغرب آخر الدولة المرينية بعـد سقوط غرناطة اواخر القرن العاشر الهجري وردود فعل الاسبان الانتقامية Reconquista) فلم ينبغ في البحث العلمي عدا رجال قلائل امثال الوزير الغساني مؤلف كتاب « حديقة الازهار » الذي نشر عنه الدكتور رينو(٢٧) دراسة اكد فيها ان هذا الكتاب يمتاز بمنهاجه الواضح جدا في الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع الاصالة والطرافة مع محاولة مفيدة لترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف اعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية . وقد ظل المغرب مع ذلك خلال العصور الاخيرة من تاريخه ـ بالرغم عن احتلال البرتغال والاسبان لبعض مراسيـه ومحاولة تدخل الاتراك في شؤونه ـ يواصل منهجه التجريبي على نطاق ضيق حيث ظهرت اساليب (٢٨) لمعالجة انواع الرمد وتشريح العين لازالـة غشاوتها وتخدير المرضى قبل العمليات الجراحية واستخدام وسائل الايحاء والتنويم مع المهارة في طب الاسنان . وقد اعطانا الطبيب احمد بن حمدون بن الحاج(٢٩) المتوفى عام ١٣١٦ هـ (٣٠) للمرة الاولى في تاريخ المغرب تقسيما فنيا للادوية كما صنف الشريف العلمي الذي درس بالاسبطالية الكبرى بالقاهرة عام ١٢٩١ هـ كتاب « ضياء النبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة أهل فاس » (طبع عـام

١٣١٨ هـ) يحتوي على مفردات بربرية ولاتينية وافرنجية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية مع تخليل ذلك بالمصطلحات الحديثة كالتصعيد والتقطير ووصف العمليات العلميــة ، وهو كتاب متين التحليل يعتبر نقطــة تحول في تاريــخ الطب المغربي .

ولنضرب الآن مثلا آخر بشعبة من العلوم هي الرياضيات فقد كان العرب اساتذة النهضة الاوربية في الحساب(٣١) وقد فند سيديو (Sédillot) (٣٢) ما زعمه بعض المستشرقين من ان علماء العرب انما اقتبسوا من الاغريق مشيرا الى ما ابدعه الفكر العربي في هذا المجال مثل ادراج الخطوط المماسة للدائرة (tangentes) في الحسابات والاستعاضة عن الاساليب العتيقة بحلول مبسطة اصبحت اساسا في علم حساب المثلثات الحديث (trigonométrie)

وقد لاحظ العالم شال (Chasles) انه كان للعرب فضل التفكير في تطبيق الجبر على الهندسة وتأكد ذلك بعد ان نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام ١٨٣٦ م من طرف روزن (Rosen) وكان بينها بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية بطريق هندسية ويقال بأن الخوارزمي هــذا لم يحل سوى المعــادلات من الدرجــة الثانيــة (équation de 2e degré) وان الذي حــل معــادلات الدرجة الثالثة هــو عمر بن ابراهيم (٣٣) ولعــل لفظتي الغوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر اقدم الرياضيين العرب حيث عاش في عصر المأمون العباسي ونقلت كتبه في الجبر والمقابلة الى اللاتينية . وقد ابدع العرب في علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها في علم الفلك .

واسهم الغرب الاسلامي أي المغرب الكبير والاندلس في بلورة هذا الاشعاع العلمي العربي فظهر ابن حمزة المغربي في القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة في اللغريتم ، واشتهر في الاندلس ابو عبيــدة مسلم بن احمد ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة وابو القاسم اصبغ بن السمح (له تآليف منها المدخل الى الهندسة في تفسير اقليدس وكتاب كبــير في الهندسة) وابو القاسم بن الصفار وابو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف في المعاملات) وابو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين في العدد والهندسة) وابو مسلم بن خلدون (كان متصرفا في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابو الحسن مختار الرعيني (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن احمد السرقسطي (ناقد في الهندسة والعدد) ومحمد بــن الليث (بارع في العــدد

والهندسة) وابو حي القرطبي (بصير بالهندسة رحل الى مصر عام ٤٤٢ هـ) وابو الوقشي الطليطلي (الهندسة) (النفح ج٢ ص ٨٧٤) .

وقد احصينا في « معجم الرياضيين بالمغرب الاقصى » الذي نشرناه عام ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥ م في مجلة « اللسان العربي » (العدد الثالث ص ١٣٤) نحوا من مائة وثلاثين من المهندسين والرياضيين وعلماء الهيئة المغاربة الذين برزوا في هذا القطاع العلمي الهام وخلفوا لنا تراثا رائعا اسهموا به في دعم صرح الحضارة والبحث العلمي في العالم ومن بين هؤلاء :

١ ــ المهندس الحاج يعيش الذي بنى لعبد المؤمن ابن علي الموحدي مقصورة وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتنخفض لدخوله .

٢ ــ المهندس عبيد الله بن يونس الذي استخرج مياه السقي بصنعة هندسية (٣٥) .

٣ ــ ابن الياسمين الذي ولد بفاس اواسط القرن السادس والخبير في الجبر والمقابلة .

٤ ــ المهندس المعماري ابو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة مصمم بعض الاجنحة في جامعة القرويين عام ٥٩٩ هـ .

٥ ــ ابن البنا المراكشي (المتوفى عام ٧٢١ هـ) صاحب مقدمة اقليدس ومختصر الفلاحة والاصول في الجبر والمقابلة وتلخيص في الحساب شرحه ابن المجدي احمد بن رجب بن طنبغا القاهري عام ٨٥٠ هـ واختصره ابن الهاشم القرافي المتوفى عام ٨١٥ هـ .

٦ ــ على اليفرني المكناسي (٧٣٤ هـ) وهو امام الرياضيات في عصره(٣٦).

٧ ــ علي بن أحمد التلمساني صانع منجانة المدرسة العنانية بفاس عام ٧٥٨ هـ (٣٧) .

٨ ــ أمير المؤمنين في الحساب ابراهيم المصمودي ٩١٢ هـ (٣٨) .

٩ ــ الفلكي أحمد الغزاني الفاسي ٩٢٠ هـ (٣٩) .

١٠ ــ محمد بن هلال امام التعاليم في سبتة وشارح المجسطي في الهيئة (٩٤٩ هـ) .

١١ ـ ابن مشون محمد بن يوسف السبتي صاحب الرجز في الجبر والمقابلة (٤٠) عام (٩٨٩ هـ) .

١٢ ـ السلطان احمد المنصور الذهبي الذي كان يفك كل يوم شكلا من كتاب اقليدس (٤١) .

١٣ ـ شيخ جماعة الفنون بمراكش احمد التقليتي الاختصاصي في الرياضيات والمساحات والهندسة وهو من رجال القرن الحادي عشر .

١٤ ـ محمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي (١٠٩٤ هـ) الخبير الاوحد في الرياضيات والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمساحة ، وقد عاش في بغداد فذاع صيته واخترع آلة فلكية وصفها صاحب نشر المثاني (ص ٨٧) .

١٥ ـ المنجم الرياضي محمد المسناوي مرينو (١٢٠٧ هـ) صاحب كتاب « تقدير قرض النفقات » في علم الاقتصاد الرياضي .

١٦ ـ الاستاذ المعطي مرينو (١٢٢٣ هـ) صاحب كتاب « كنز الاسرار في تعديل الكواكب » وكتاب ابعاد النيرات ورصده وكتاب المزاول .

١٧ ـ احمد بن عبد الله التناني الصويري (١٣٢٠ هـ) صاحب المؤلفات العديدة في الجبر والمقابلة واللغاريتم ، والذي حل اشكالا هندسية نقلها الى الرياضيات وكان رئيس الرياضيين والمهندسين ورئيس المدفعية في الجيش المغربي .

واذا اعتبرنا شعبة اخرى من العلوم التطبيقية كعلم الجغرافية نلاحظ ان الخرائط العربية الاولى كانت عبارة عن خلاصة لما ورد عن بطليموس ، وظل العالم طوال الف عام عالة على هذا الجغرافي والفلكي اليوناني الذي هو من رجال القرن الثاني الميلادي حتى ظهر الشريف الادريسي الذي وصفه كوتيى(٤٢) بأنه استاذ اوربا في الجغرافية ، حيث ظل الغربيون يستمدون ازيد من ثلاثة قرون من خريطته العالمية ، فكان اطول باعا من بطليموس واكثر دقة في ملاحظاته وتقديراته لان بطليموس احصيت عليه في تقديره للمسافة الفاصلة بين طنجة والاسكندرية وحدها اغلاط بلغت ثمان عشرة درجة طولية ، بينما تقل اغلاط تقديرات الادريسي للاطوال ما بين طنجة وطرابلس الغرب عن درجة واحدة . وقد نبه الادريسي على هذه الاغلاط .

ومعلوم ان الاقتصاد في كل امة يعد قواما جوهريا في تطورها الحيوي . وقد اسهم العامل الاقتصادي في بلورة الحضارة المغربية منذ فجر الاسلام ، فالأمة المغربية قد استقبلت الفاتح العربي كمحرر لا سيما وان العرب حملوا معهم الى افريقيا كما يقول كوتيى « حكومة نظاميـة مجهزة بجميـع المقومات العسكرية والادارية » فكان في ذلك الخلاص من جبايات مرهقة فرضها الرومان الذين احالوا الشمال الافريقي الى « مخزن محصولات » لامداد رومـا فكان الامبراطور الروماني نفسه اكبر ملاك عقاري في المغرب الكبير . ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري انطلق الاقتصاد المغربي من عقاله فانتظم وأصبح « منطقيا قار[3] » كما وصفه المؤرخ طيراس في تاريخ المغرب ، وامست عاصمته الادريسية فاس مركزا اقتصاديا وفكريا رسم الخطوط الاولى للوحدة القومية والتخفيف من عوامل الانفصالية والتشتت القبلي لاسيما بعـد ان تجمعت في العاصمـة الجديدة ثمانمائة عائلة اندلسية هاجرت اليها (عام ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م) بعد وقعة الربض وقبلها ثلاثمائة اسرة قيروانية (١٩٨ هـ) وقد شاهد المغرب اول عملة وطنية مستقلة عام ١٨٥ هـ حيث تبلور الاشعاع الحضاري باستقرار اقوى (حتى في الصحراء) وتصاعد العمران وانبثاق مدن جديدة ، وتعززت الفـلاحة التي كانت محور الاقتصاد بأعمال الري الكبرى وازدهرت الحركة التجارية فكانت سجلماسة الصحراوية مركزا للقوافل بين المغرب والبصره وبغداد ، وكانت الظاهرة الاساسية التي اتسم بها هذا العصر هي الطمأنينة والامن مما شجع ظهور البوادر الاولى لانتشار الضيع الزراعية . وما لبث هذا الاقتصاد ان تكيف فاتسعت مصادره وموارده باتحاد الاندلس والمغرب . وهكذا فعند ما كشف عباس ابن فرناس الاندلسي — وهو أول طيـار عربي بالاضافة الى الجوهري استخدم آلة لامتطاء الاثير — طريقة جديدة لصنع الزجاج من الحجر تكونت آنذاك مجموعة من الصناعات سبقت البندقية الى كثير من الكشوف وغمرت العالم بأصناف المنجزات من اقداح وعلب وانابيب وآوان كيماوية . وكانت المصانع تنفخ الزجاج وتفرغه وتنحته وتعزز بذلك فن الترصيع في دمشق والزجاج البلوري الرقيق الذي سبقت به مصر صناعات بروسيا وتشيكوسلوفاكيا اوائل هذا القرن .

وقد جعل الموحدون — كما يقول اندري جونليان في تاريـخ افريقيـا الشمالية حداً للفوضى المالية التي كان يتخبط فيهـا ملوك الطـوائف فظهر عنصر جديد هو التصنيع واصبحت سبتة مركزا دوليا لانتاج الورق يضاهيه جودة ورق شاطبة في الاندلس وسامر[3] في العـراق ، وكانت هـذه المراكز تمد

اوربا الشرقية والغربية . وقد عثر المستشرق كازيري في الاسكوريال على مخطوط عربي من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام ١٠٠٩ م (وهو هذا العصر بالذات) يدل على ان الورق المقصود كان من القطن وقد سبق المغرب اوربا الى صنعه . ومعلوم ان العرب اول من صنع الكاغد من الخرق البالية (لوبون ــ حضارة العرب ــ ص ٥١٩) وقد أصبحت في فاس وحدها أيام الموحدين ٣٠٩٤ مصنعا للنسيج و ٤٧ للصابون و ١٢ لتسبيك الحديد والنحاس واحد عشر معملا للزجاج واربعمائة لصنع الورق او الكاغد (٤٣) ، علاوة على الثروة المعدنية التي اتخذت موادها الاولية من حديد ونحاس وفضة وتوتياء وغيرها منطلقا لسلسلة مصانع انتشرت بسرعة في حواضر المغرب وبواديه بالاضافة الى مصانع السكر ، فازدهرت المبادلات بين المغرب ودول اوربا وخاصة موانىء بيزه وجنوة والبندقية ومرسيلية وكان المسلمون آنذاك هم أول من نظم الاساليب التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية ــ كما يقول اندري جوليان ــ الذي اكد ان الاسطول المغربي اصبح آنذاك اول اسطول في البحر الابيض المتوسط .

ونفتح هنا قوسا صغيرة لنؤكد ان الروح القانونية نجدها متبلورة في مواقف المغرب الذي كان يقف دائما في صف الشعوب التواقة الى التحرر كشعب الولايات المتحدة الذي كان المغرب اول دولة اعترفت باستقلاله في العالم ايام السلطان محمد بن عبد الله المحدث الفقيه السلفي (المتوفى عام ١٢٠٤ هـ) الذي كانت دول اوربية تدفع لاسطوله جزية سنوية ، لحمايتها من القرصنة في البحر الابيض المتوسط كما برهن عن روح دولية اكد المؤرخ والحقوقي الفرنسي الكبير جاك كايي انه سبق بها ما عرفته اوربا في العصر الحاضر .

وكانت هذه الفترة التي استمرت ازيد من ثلاثة قرون اروع فترة في تاريخ وحدة المغرب العربي تفتقت خلالها معالم الحضارة ومراسم العمارة وبدائع الفن انضافت الى قوة التخطيط الاجتماعي الذي تبلور في تأمين السبل الصحراوية والتفجر الديمغرافي وتكاثر المارستانات وتزايد المدارس والاحياء الجامعية وانطلاق مصانع المراهم والادهان والاكحال(٤٤) . ولعل من ابرز مظاهر هذا الازدهار آخر ايام بني مرين القوة الشرائية للنقود حيث لاحظ ابن بطوطة انها كانت تعدل في المغرب ثلاثة اضعافها بمصر . وبالرغم من النكبات التي بدات تترى على المغرب بعد نكبة « الفردوس المفقود » فان المنصور السعدي استطاع اواخر القرن العاشر الهجري في معركة « وادي المخازن » ايقاف غزو البرتغال للشواطىء المغربية مع تقليص النفوذ الاستعماري البرتغالي في البحر

الهندي والخليج العربي كما كان اسطوله قبل ذلك رادعا للصليبيين في سواحل الشام وفلسطين . وصعقت اوربا بعد الهزيمة النكراء التي الحقها المغرب بالبرتغال الذي فقد استقلاله من جراء هذه الضربة ازيد من ستين سنة ، فصارت الدول الغربية تخطب ود السلطان السعدي واقترحت انجلترا عليه التعاون لتأسيس كوندومنيوم الهند ، ونفق الدينار الذهبي المغربي على الصعيد العالمي وتصاعد التصنيع وخاصة تكرير السكر الذي اصبح البلاطان الفرنسي والانجليزي يتنافسان في اقتنائه كأجود ما ينتجه العالم . وبعث المغرب تقوية لمبادلاته مع اوربا عملاء للدعاية لمنتجاته كما شارك في المعارض الدولية كمعرض باريز عام ١٢٨٥ هـ وحمى الصناعة الاهلية من المزاحمات الاجنبة وبذلك برهن في شتى المجالات على تساوقه مع ما يستجد من معطيات الحضارة بأوربا . وقد عرف المغرب انظمة اقتصادية واجتماعية سبقت الاحداث والكشوف الاوربية ؛ فقد منحت الدولة مثلا القروض للدور التجارية لجلب المحاصيل اعوام الجفاف وبيعها بأثمان في متناول الشعب كما كانت تتخذ كل الوسائل لالغاء ما يزيد على الاعشار والزكوات من مكوس وجبايات تخفيفا اوطأتها على الشعب وعلى اقتصاديات البلاد ولعل المغرب كان من اكثر الشعوب ايمانا بفعالية العمل كراس مال قبل ظهور نظرية كارل ماركس التي يعتقد انصار الاشتراكية والشيوعية بأنها مكسب جديد للانسانية ، فقد اكد ابن خلدون في تاريخه(٤٥) ان « الكسب هو قيمة الاعمال البشرية » فلذلك لاحظ ماسينيون في احصاء قام به عام ١٩٢٤ للصناعة المغربية(٤٦) ان عدد رجال الحرف في المدن المغربية يعادل نصف عدد السكان كما اعترف المؤرخون الاجانب بأن نظام الحناطي عندنا وهو اشبه بما عرف اخيرا في ايطاليا (système des corporations) كان يعمل في اطار من الحرية الكاملة لم يفسد الا باحتكاكه بنظريات اوربا . وقد امتاز الانتاج الصناعي المغربي بجوده نادرة فتحت له منافذ في اوربا الى آخر القرن الماضي ويكفي دليلا على ذلك قطن المغرب الذي كان فيه نوعان معروفان في اوربا « سى ــ ايسلاند » لهما سدى حريري طويل من الطراز الامريكي . وقد تساوق مع ازدهار التصنيع ازدهار الفلاحة حيث بلغت السوائم وحدها خمسين مليون راس من الغنم والمعز وستة ملايين راس من البقر(٤٧) . ويرجع التفجر الديمغرافي بالمغرب لقلة الوفات ولارتفاع معدل الاعمار الى ما بين ٦٥ و ٧٠ سنة في الحواضر ومائة في الاطلس بفضل انتشار المارستانات والملاجىء الصحية وخلو المجتمع الاسلامي من امراض العصر الناتجة عن الخمور او الزنا مثل الامراض التناسلية التي عرفت بالمغرب بالامراض الاسبانية او الفرنسية) .

اما في الحقل الجامعي فقد احتفل المغرب منذ سنوات بذكرى مرور احد عشر قرنا على تأسيس جامعة القرويين التي مافتىء المؤرخون الغربيون يعتبرونها « اول مدرسة في الدنيا » لا تزال قائمة الى الآن ، كما اعتبروا مدينة فاس في افريقيا اشبه بأثينا عاصمة الفكر بأوربا واعتبرها المشارقة انفسهم وخاصة منهم العراقيين كبغداد المغرب(٤٨) اي كعاصمة للغرب الاسلامي بالنسبة لدار السلام في حاضرة الخلافة . وهكذا امتاز المغرب بمدارسه الرائعة التي هي احياء سكنية للطلبة كما امتاز بمعاهد تقنية في القرن الماضي كمدرسة المهندسين(٤٩) ومدرسة المدفعة (بالجديدة) ومدرسة الفنون . وتعزز هذا الانبعاث الفكري بايفاد بعثات من الطلبة الى الخارج لاستكمال معارفهم العلمية والتقنية كما تعزز نتاج العقول بمطبعة حجرية نشرت مئات المخطوطات العربية المختارة من بين آلاف المخطوطات النادرة المكدسة في المكتبات العامة والخاصة بالمغرب .

واذا كان للشعوب والامم مجال يجب الانصراف اليه تعزيزا للكيان الوطني ودعما للحضارة القومية فهو هذه المجموعة من المجالات التي تستلزم تخطيطاتها الرصينة درجة عليا من التقدم الفكري والسمو الاجتماعي والتطور التقني بالاضافة الى الكفاية الاقتصادية ، ولذلك عمد الاستعمار ـ كما يقول اندري جوليان ـ الى التعجيل بانهيار المغرب اقتصاديا للسيطرة عليه سياسيا ففرضت فرنسا حمايتها عام ١٩١٢ م عن طريق القروض والدبلوماسية المالية ، ولذلك وجب ان تستفيد نهضتنا الجديدة من هذه العبرة فتتلافى كل استرهان لمقوماتها وتوجه تخطيطها الى دعم سياستها الوحدوية العربية في الاطار العالمي عن طريق تراثها الطبيعي . فلو ان العرب استطاعوا خلق وحدة اقتصادية حقيقية تحتجز الثروات وخاصة البترول وارصدة البنوك ومختلف اوجه الاستثمار لتوفر لدينا اكبر ضغط سياسي على الغرب الذي ما زال يستنزف قوانا الحيوية ويجرح كرامتنا بمكايده . ومن مظاهر حضارتنا الفكرية التي يجب ان نداب متكاتفين شرقا وغربا على صونها ودعمها لربط الماضي بالحاضر مكانة اللغة العربية التي كان نفوذها في العصور الوسطى بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية كان يوقن بأنها هي الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب كما يقول جورج ريفوار « وقد انطلق المنهاج العلمي اول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الاوربية » ، بهذا اعترف الاستاذ ماسينيون الذي اكد « ان اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا هو العنصر الجوهري للسلام بين الامم في المستقبل » فلا يمكن اذن لاية نهضة عربية حديثة ان تكتمل دون ان تستعيد

لغة الضاد مكانتها المرموقة في المحافل الدولية علميا وتقنيا وحضاريا ، ولنقصر نظرنا على مثال واحد يبرز مدى اسهام المغرب العربي في دعم لغة الضاد فهذا الشيخ مرتضى الزبيدي امام أهل اللغة في القرن الثاني عشر يتتلمذ لابي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي (المتوفى عـام ١١٧٠ هـ) في اكبر موسوعـة لغوية في العصر الحديث « هي تاج العروس من جواهر القاموس » (كما يتتلمذ لمحمد الحسني البليدي الجزائري) « المقولات العشر للدكتور حقي » وقد كان للاستاذ المغربي اثر عميق في تكوين تلميذه المصري حتى انه لا يمر مشكل الا واستند الزبيدي في حله الى شيخه الذي كان اللغويون يصححون المعاجم من املاءاته وتحليلاته كما فعل ابن القزاز البربري حيث صحت عليه اللغة في القرن الرابع الهجري مع صاعد العراقي . اضف الى ذلك ان الفكر المغربي قد طعم المعجم العربي بطائفة من المصطلحات النابعة من مصادر الاشتقاق العربيـة الاصلية (٥٠) والتي اكتملت بها مجالى الحضارة العربيـة في الادارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران . وقد استعرضنا جوانب من هذه المظاهر في كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث » الذي هو عبارة عن سلسلة محاضرات القيناها في القاهرة باشراف معهد الدراسات العربية العليا . فعناصر التكامل هذه لاينبغي ان تخلق في حضارتنا العربية ثنائية متنافرة الطرفين بل كيانا متساوق الاجزاء ينطلق من المفهوم العلمي العربي الخاص الى المدرك العلمي الانساني العام في تجاوب يحفظ للكيان العربي عالميته التي ظلت طابعه البارز طوال القرون الوسطى الى العصر الحديث . وقد فجر الاستعمار بين الاخوة في الشرق والغرب هذه الثنائية الانفصالية التي ما زلنا نعاني من ويلاتها الامرين في مجاذباتنا الهامشية التي تنسينا احيانا عمـق المشاكل المصيرية . وحتى في ادق مجالات المعرفة كان للمغرب النصيب المرموق فقد استطاع ان يسهم حتى في تكييف الفن المعماري العالمي بروائع ما زالت قائمة الى الآن حيث تجلى ابداع الموحدين منذ القرن الخامس في روعة وفخامة مرصد الخالدة او الخيرالدة (Geralda) باشبيلية ، ومسجدي حسان بالرباط والكتبية بمراكش ، كما امتاز الفن المريني في القرن الثامن برقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقرنصات والترخيمات ونقوش الخشب والادهان البديعة والشماسيات الملونـة والنحاس المموه وترصيـع المنارات والجدران بالزليجيات . ورغم اتجاه الفن المعماري منذ القرن العاشر الى هندسة الحصون والقلاع لمواجهـة الغزو الاستعماري الاوربي فقـد ظـل ينافس اوربا في التجديد حيث لم يكن قصر « الرياض » بمكناس يقل روعة عن قصر « فرساي » بفرنسا . وهكذا تبلور في الفن المغربي طابع خاص أضفى

على الحضارة في الشق الغربي للوطن العربي لونا جديدا شكل احدى لبنات انبعاث الانسانية الفكري منذ العصور الوسطى .

ومن هذه العجالة يتجلى انه اذا كان المغرب العربي قد حقق تطورا رائعا في مجالات الفكر والحضارة المختلفة فما ذلك الا بفضل تساوق النشاطات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية بين شقى العروبة ؛ فأبلغ الروابط واعمقها قد استوثق بين الشرق العربي والشمال الافريقي والاندلس على يد رسل الفكر الذين كانوا يهاجرون زرافات ووحدانا في موجات غامرة كل عام للحج او الدرس ، وكان لهذا التبادل مظاهر شتى تبلورت في وفرة الوافدين من علماء المشرق على ملوك المغرب حماة العلم والفكر امثال المنصور السعدي(٥١) الذي احتضن بلاطه رجالات افذاذا من الحرمين والقدس ومصر والشام والعراق والهند ، وكان افصح جواز يقدمه المواطن المغربي او المشرقي في الحدود المطاطة هو اسلامه وعروبته فكانا يستقضيان ويستسفران في الحواضر العربية والاسلامية شرقا وغربا دون ميز يتبوآن هنا وهناك المناصب السياسية والدبلوماسية والعلمية ، فلم يكن للمواطنة الضيقة اي اثر في الحيلولة دون انبثاق هذا الشعور الفياض بالوحدة التلقائية النابعة من وحدة الدين واللغة والتاريخ والمصير . وقد ظل اقطاب الفكر المغربي ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات العلمية ووجوه النظر في مختلف المجالات التقنية باطراد ووثوق كما عرف الشرق كيف يقدر في شخص زملائه في الغرب الاسلامي حرية الفكر ونزعة التجديد . ولعل ما لاحظه المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشقين في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية يرجع الى انطباع الشرق بالعمق الكلاسيكي في ملكة العلوم واصطباغ الفكر المغربي بألوان من البحث جديدة تحت تأثير التفاعلات مع الغرب . ومن بين المغاربة الذين كان لهم ضلع قوي في دعم هذا التبادل الثري بين شقى العروبة نجتزىء بالاشارة الى بعض ممن عاشوا في العراق امثال :

١ ـ جمال الدين محمد بن ابي بكر البغدادي اصله من قصر كتامة وهو صاحب الوتريات وقد ورد على مراكش عام ٦٥٥ هـ ثم للمرة الثانية عام ٦٦٣ هـ (الاعلام للمراكشي ج ٣ ص ١٥٢) .

٢ ـ محمد بن احمد بن ابراهيم البغدادي الفاسي المتوفى بفاس عام ٥٤٦هـ (تكملة الصلة لابن الابار ج٢ ص ١٩٣ ، الذيل والتكملة لابن عبد الملك ج٤) .

٣ ـ ابو الحكم عبيد الله (او عبد الله) بن المظفر المريني المغربي كان طبيب المارستان بالعراق ايـام السلطان محمود السلجوقي (وفيات الاعيـان ج ٢ ص ٣٠٧ ، خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني (قسم المغرب ، تونس ١٩٦٦ ص ٢٨٩) .

٤ ـ عبد الله المراكشي الهنتاتي جمال الدين فوض الله عمر البغدادي المعروف بالمجرد توفى عام ٧٩٥ هـ (الاعلام للمراكشي ج ٦ ص ١٠٢ مخطوط).

كما تتلمذ للغزالي صالح بن حرزهم الفاسي (انس الفقير لابن قنفذ ص١٢) وابن حنين الكناني المتوفى بفاس عام ٥٦٩ هـ (الجذوة ص ٣٠٤ و ٣٢٢) وعبد القادر الاندلسي التطواني التبين المتوفى عام ٥٦٦ هـ (تاريخ تطوان ـ لمحمد داود ج ١ ص ٧٤) .

أما العراقيون بالمغرب فقد الفت في شأنهم المصنفات منها « العراقيون الحسينيون بالمغرب » لمحمد هـاشم زيـان العراقي (فهرس الفهـارس ج ١ ص ٢٤٦) « والشيعة العراقية بالمغرب » لاحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني « ومطلع الاشراف من الشرفاء الواردين من العراق » لعبد السلام القادري .

كما شارك مغاربة في كفاح الشرق ضد الاستعمار منهم :

١ ـ يوسف بن دوناس الفندلاوي استشهد في حرب الصليبيين في الشام عام ٥٤٣ هـ (معجم البلدان ج ٦ ص ٤٠١) .

٢ ـ العباس بن احمد الفاسي استشهد في الحروب الصليبية بالشام عام ٥٩٥ هـ (الجذوة ص ٢٧٨) .

٣ ـ يوسف بن محمد بن عبد الله البلوي المالقي المتوفى عام ٦٠٢ هـ غزا مع صلاح بالشام (تكملة ابن الابار ص ٧٣٧ ، صلة الصلة لابن الزبير ص ٢١٧).

٤ ـ محمد الجيلاني السباعي المراكشي حارب الفرنسيين بمصر (عجائب الآثار للجبرتي ج٣ ص ٤٤ ، الاعلام للمراكشي ج٥ ص ١٤٤) .

فهل يمكن لاية وحدة ان تقوم على غير هذه الدعامة من التكامل بين اجزاء العروبة وهل يتأتى لنهضة عربية رصينـة ان تنبثق في العصر الحديث دون

الارتواء من هذا المعين الصافي الذي عكرته ولا تزال رواسب وذيول التخلف الناتج عن انفصال اجزاء الوطن العربي بعضها عن بعض ردحا طويلا من الزمن تحت ضغط مكايد الكائدين . وهناك مظهر آخر لحضارة المغرب يتجلى في رسالتها في افريقيا واوربا وامريكا الجنوبية فالمغرب يحتل موقعا ممتازا في القـــارة الافريقية حيث يشرف على بحرين تركزت فيهما حيوية وحضارة . ولكن هذا الوضع المحظوظ في قلب العالم الغربي لم يفت في اعضاد روح المغرب الشرقية التي عززتها وشائج شتى وطبعها الاسلام والعروبة بميسمها النهائي .

ان المغرب الذي يتحلى منذ ازيد من الف سنة بالحضارة العربية ما زال نقطة وصل بين عالمين ومحورا جوهريا للروابط الدولية بين الشرق والغرب .

ويقبض المغرب ـ بفضل طنجة التي كانت عاصمته الدبلوماسية ـ على مقاليد غربي المتوسط بينما تشرف قناة السويس على شقه الشرقي . ولذلك فان هذين الطرفين العربيين الذين يشرفان على مركز يتسم بحساسية نادرة في الوضع الدولي الراهن لابد أن يلعبا دورا مهما في حوض المتوسط الذي لايمكن ان يتم شيء بدون مساهمة ـ ترتكز على المساواة والسيادة ـ من طرف جميع الاقطار العربية التي تمتد حلقاتها من طنجة الى دمشق على طول ثلاثة اخماس ضفاف المتوسط تلك حقيقة ناصعة كان من المحتوم ان تفرض وجودها على الافكـار الغربية قبل اليوم .

وبلغ اشعاع الفكر العربي عن طريق المغرب اقاليم افريقية شاسعة تمتد الى تخوم النيجر جنوبا وحدود مصر شرقا ، فكان المغرب محور ومصدر حيوية نابعة عن الاستقلال الذي كان يتمتع به فلم تعد هناك دولة عربية مستقلة في افريقيا غير المغرب بعد عام ١٢٥٠ م ، حيث سقطت مصر نفسها تحت سيطرة الاتراك . فظل المغرب يواصل طوال الف عام حمل مشعل الحضارة العربية كولد بار للشرق العربي الرائد موقنا بأن الانتماء للشرق هو الميزة الجوهرية في حضارتنا بل هو القوام الاساسي لكياننا ، ولهذا شكل المغرب كجزء قائم من هذا الوطن العربي نطقة وصل مع اوربا وقنطرة الى العالم الجديد وذلك ضمن التأثير الذي تركته حضارتنا في الغرب والذي لم يكن لينصرم ـ ضمن تبادل موصول ـ لولا تلك الآفة الاستعمارية التي حولت من جراء مطامعها التوسعية مجرى تاريخنا . فلو ان المغرب والغرب ظلا مستقلين ساسيا الواحد عن الآخر لامكنهما ان يعززا تقاربهما في نطاق روابط حرة وتناسق قار" لان التعاون لايمكن ان يثمر الا اذا جرى على اساس من المساواة وتبادل احترام السيـادة والكيان . فحتى اذا سلمنا بما يزعمه بعض المؤرخين من وجود رواسب عاطفية ضد الاجنبي في نفوس

المغاربة فان ذلك لم يكن ذاتيا وانما هو شيء عارض تمخض عن طغيان المطامع والدسائس الاوربية في البلاد .

ان النفسية العربية التي تجمع بين النبل والاريحية لاتنفعل انفعالا سيئا الا ازاء ما يمس بكبريائها الوطني ويهددها في حريتها ورمز وجودها ففكرة الحرية عند الرجل العربي ليس معناها الفردية الانانية وانما هي توقان طبيعي نزيه لتحقيق الذاتية وحفظها .

فلهذا تبلورت مدنيتنا في اشعاع ثقافي ممتاز اكثر منها في نفوذ مادي ، ومع ذلك فان قوة المغرب المادية ما فتئت سائدة في البحر المتوسط الذي كان رومانيا فأصبح طوال العصور الوسطى (بحرا عربيا) — كما يقول م ماكس فنتيجو — بجزره وسواحله واساطيله ونهضة تجارته ، واضحت لغة القرآن هي اللغة الدولية للتجارة والعلم .

وقد اكد الكاتب الفرنسي المقتدر اندري سيكفريد عضو اكاديمية باريس ان العرب غرسوا في البحر المتوسط حضارة يانعة، فطوروا الري وادخلوا غراسات جديدة كالقطن والارز وقصب السكر والحوامض (وبسببهم فقد البحر المتوسط طابعه المسيحي)

ان الاشعاع المادي للقوة المغربية في المتوسط هو آخر ما نفكر فيه لابراز الرسالة التي اضطلعنا بها في هذا البحر ومع ذلك فان الاسطول الموحدي الذي كان يضم اربعمائة قطعة ما لبث ان اصبح اول اسطول في المتوسط (اندري جوليان) . على ان المغرب قد تزعم العالم الاسلامي والعربي في هذا العصر مما حدا بصلاح الدين بطل الحروب الصليبية الى الاستنجاد بالاساطيل المغربية لايقاف تقدم المسيحيين في طريق الشام ، وما لبث هذا الاسطول ان ضم ازيد من ستمائة قطعة حربية ايام ابي الحسن المريني . وسيادة العرب في البحر المتوسط ظهرت بوادرها ولما يمر على انبثاق الاسلام بضعة عقود، فقد غزا معاوية بعض جزر المتوسط بألف وسبعمائة سفينة ثم قامت الاوراش التونسية تعزز بانتاجها الجديد قوة الشرق العربي البحرية حيث صنعت في بعض ايام ابن نصير وحده نحو مائة قطعة . وقد برهن المغاربة منذ القرن السادس الهجري عن حاسة استراتيجية مبكرة حيث ادرك عبد المؤمن بن علي الموحدي أهمية جبل طارق الذي هو احد مفاتيح المتوسط ، فعمد الى تحصينه واحالته الى قاعدة امامية للدفاع عن افريقيا والاندلس . وحتى في خصوص فكرة الجندي المجهول نلاحظ وجود ما سمي في الاندلس بالشهيد الغريب Le martyr inconnu في المخاضة التي بين حصن بالما Palma del Rio وهي الجرف Al-Jarf (الادريسي ، النزهة ص ٢٠٨)

ان رسالة الحضارة المغربية الحق في البحر المتوسط تتجلى في مظهرين اثنين هما التأثير الاقتصادي والاشعاع الثقافي . على ان الدور الاقتصادي نفسه لم يكن في الواقع سوى نتيجة النفوذ الادبي فسياسة التسامح التي نهجها المغرب في اغلب عصوره قد ساهمت في توثيق الروابط بين المسلمين والمسيحيين حتى أصبحت المراسي المغربية في سواحل المتوسط مصدر نشاط فياض فهي التي كانت الينبوع الاول للمبادلات مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وغيرها من الموانى .

وقد أكد مسيو ماكس فنتيجو مؤلف المعجزة العربية(Le miracle arabe) ان الحكومة الموحدية كانت من اشد الحكومات احتراما للحرية وان الاندلس عرفت في عهدها عصر ماجدا تألق فيه نجم المعارف والعلوم العربية التي سرى تيارها المنعش في جنبات اوربا نعم ان من مظاهر تلك المعجزة العربية تحقيق شعوب اوربا الغربية من ايطاليين وفرنسيين والمان وانجليز لذلك الانقلاب الفكري العظيم الذي تفتق عن عصر النهضة ، وقد سبق لغوستاف لوبون ان قال نقلا عن العالم الايطالي ليبري Libri (لولا العرب لتأخر انبعاث الآداب في اوربا عدة قرون) .

نعم لم يتصل الاوربيون بالعلوم العربية الا عن طريق اسبانيا المسلمة التي برهن فيها تنافس العناصر العربية والمسيحية عما للثقافة العربية من تفوق غير منازع على الثقافة اللاتينية . وما لبث هذا الاشعاع العربي ان غمر شعوب الغرب فبلغ كبريات العواصم ونشل مدن بيزا وبولوني ومونبيليي وسلامانك وافنيون وباريس من وحشتها اللاتينية ، حيث فتح امامها مجال الفكر والحياة الثقافية كما قال فنتيجو . ورغم انهزام الموحدين السياسي وعودة الاندلس الى حظيرة المسيحية ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد في نظر الغربيين حتى صارت باريس نفسها ـ التي أسس جامعتها الملك فيليب أوغست على اثر عودته من الشرق ـ تستمد من المغرب والشرق كثيرا من كشوفها .

والذي يزيد هذه الظاهرة غرابة ان الفتوح العربية لم تكن حركة توسعية ولا حربا صليبية ضد المسيحية وإنما كانت رسالة تمدينية لاتهدف الى أي لون من الوان الادماج . ومن مظاهر تسامح ملوك العرب ونزاهة وجهتهم ان جوهن ملك انجلترا عرض عام ١١٩٩ على آخر ملوك الطوائف وهو محمد الناصر ان يحميه ضد البابا في مقابل جزية سنوية واعتناق الاسلام من طرف انجلترا ملكا وشعبا ، ولكن الملك العربي رفض هذا العرض لان اريحيته ابت عليه استغلال الضائقة السياسية التي كان الانجليز يتخبطون فيها لحملهم على اعتناق الاسلام .

اليس اذن من الغريب ان لا يتجلى أثر الحضارة العربية في ذهن الاوربي المتوسط الا في فتوح اوقف تيارها شارل مارتيل في بلاط الشهداء ؟

ومنذ القرن السادس عشر امكن للحضارة المغربية التي كانت الى ذلك التاريخ منحصرة في البحر المتوسط ان تدخل الى امريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا اذ ذاك العالم الجديد ، فقد تلقت البرازيل مثلا طوال ثلاثة قرون متوالية تأثير المدنية الاندلسية فاتسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الامريكية بطابع مغربي ينمو ويضعف حسب الاصقاع ، فتقنعت المرأة البرازيلية على طريقة زميلتها المغربية وكيفت اسلوب حاتها كما فعلت المرأة الصقلية المسيحية فيما حكاه الرحالة ابن جبير تكييفا – يحذو حذو النعل بالنعل ما عهد في الاندليسات والمغربيات . نعم أصبح الشيء الكثير في البرازيل صورة لما كان عليه مجتمعنا في العصور الوسطى من اناقة النساء الارستقراطيات في الحواضر واتخاذهن الطنافس الوثيرة للجلوس بدل المقاعد الخشبية ، الى غير ذلك من طرائق الحياة الفردية ومناهج الفلاحة والغراسة في البادية . فبالرغم عن اختلاف الطقس استخدم الفلاح الامريكي اجهزة واساليب الفلاحة المغربية وانتشر استخدام الطواحين الهوائية في مجموع انحاء امريكا الجنوبية مع جميع ما ينطوي عليه نظام الري عندنا (السواقي والآبار الخ) وقد نقل المعمرون البرتغاليون الى امريكا جميع ما انجزه المغاربة في القسم الجنوبي من الاندلس من مصانع السكر والقطن الى مزارع الحوامض ودودة القز (كانت ٣٠٦٠ قرية اندلسية تتعاطى تربية دودة القز) على ان اللغة الاسبانية الامريكية تنم عن الآثار التي تركتها حضارتنا في الميدان الثقافي والاقتصادي والاجتماعي بأمريكا فالاصطلاح الامريكي في المياه والسقي والري معظمه عربي ، وكثير من الازهار والنباتات العطرية مازالت تحمل في اسبانيا وامريكا اسماء عربية . اضف الى ذلك ما يسمى (مودة) النساء من اسماء الحلي والمصوغات .

والشبه وثيق بين المغرب وامريكا الجنوبية في ميدان الهندسة المعمارية حيث لاتختلف في البلدين أساليب البناء في الكنائس والاديرة والمنازل والحمامات. وقد تأثر الاصطلاح الامريكي ايضا بالمفردات العربية .

ويضيق المجال عن تعداد المناحي التي تجلت فيها آثار الحضارة المغربية والاندلسية ؛ فحتى اساليب الطبخ واسماء العائلات لاتختلف في امريكا عنها في المغرب . ووحدة اصول العائلات العربية تفسر لنا نجاح الهجرة العربية الى امريكا . ورسالتنا الحضارية اصبحت في الظروف الدولية الراهنة اشد واقعية من أي وقت وابرز عنصر يجب ان تنطلق منه العناصر الحضارية الاخرى عند اخواننا في الشرق لبناء نهضتنا الحديثة .

(١) لوكلير ـ تاريخ الطب العربي ج٢ ص ٣٥٠
(٢) لوكلير ج١ ص ٣٣٤
(٣) لوكلير ج١ ص ٤٥٦ ويوجد في المكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع عدد ١٤٢٧ د جزء من هذا الكتاب يحتوي على ٢٨ صورة للمكاوى وآلات التشريح .
(٤) ج١ ص ٤٠٧
(٥) « اخبار العلماء باخبار الحكماء » ص ٨٥
(٦) « شهيرات نساء المغرب » للكانوني (مخطوط) نقلا عن « فن الاسنان بالمغرب الاقصى » لكاتب اوربي لم نستبن اسمه في المخطوطة .
(٧) كودار ـ وصف المغرب وتاريخه ج١ ص ٢٣٩
(٨) ج٢ ص ٧٢
(٩) ج٢ ص ١١ و ١١٠
(١٠) الاعلام للمراكشي ج٣ ص٣٤
(١١) ج٢ ص ٧٢ وقد اعتمد ابن البيطار ايضا على عبد الله بن محمد بن صالح الكتامي الحريري الشجار الذي كانت له حانوت بمراكش عام ٥٨٣ هـ (اللسان العربي ج٦ ص ١٩٦٨) . اما النبطي فهو أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية او ابن العشاب ولد باشبيلية عام ٥٦١ هـ) ودرس الاعشاب شخصيا دون اعتماد على ديسقوريدس وجالينوس واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وقد رحل الى الشرق عام ٦١٣ هـ او ٦١٤ هـ بعد ما درس اعشاب الاندلس والمغرب وصنف معجما للحشائش وفاق اهل زمانه في معرفة النبات وتوفي باشبيلية عام ٦٣٨ هـ (نفح الطيب ج٢ ص ٦٣٥) وذكر لوكلير بصدد ابن البيطار (ج٢ ص ٢٢٥) انه اعظم نباتيي العرب وقد تنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وخلف لنا اعظم مجموعة في العلوم الطبيعية وقد عينه الملك الافضل في مصر رئيس عشابي القاهرة وقيل رئيس اطباء مصر (النفح ج٢ ص ٦٨٣) وكتابه « جامع المفردات » اكمل ما صنفه العرب في الطب يحتوي على الفي وصفة للعقاقير ترجمه لوكلير الى الفرنسية وقد كان النبطي ـ حسب احاطة ابن الخطيب ـ اماما في الحديث حافظا ناقدا .
(١٢) او (Viatique) ومعناه زاد المسافر .
(١٣) القفطي ص ١٣٠
(١٤) نفح الطيب للمقري ج١ ص ٤٤٥
(١٥) ذكر ابن عبد الملك في « الذيل والتكملة » ان ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره .
(١٦) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، الطبعة الفرنسية ص ٥٣٠
(١٧) تاريخ المغرب ص ٤٥٢
(١٨) الانيس المطرب ج٢ ص ١٨٠
(١٩) المطرب لابن دحية .
(٢٠) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٧٥
(٢١) جذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣٣٥

(٢٢) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٦٣ ٠
(٢٣) لوكلير ج٢ ص ٧٩
(٢٤) حضارة العرب ص ٥٣١ (الطبعة الفرنسية) ٠
(٢٥) نشرة المعهد المصري ٢٦ عام ١٩٣٤ - بحث بقلم ماكس مايرهوب ص ٣٣ وقد أشار ابن النفيس الى ذلك في « الكتاب الشامل في الطب » الذي كان يحتوي على ثلاثمائة مجلد اهدى منها المؤلف ثمانين مجلدا لمستشفى قلاوون ٠
(٢٦) راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١٣
(٢٧) المعجب ص ١٧٧ - كتاب ميلي (Les Almohade - mllet) - ١٩٢٣ ص ١٢٩
(٢٨) نشرة المعهد الدروس المغربية العليا ج١٨ ص ١٩٥
(٢٩) راجع كتابنا « تاريخ الطب والاطباء بالمغرب » ١٣٨٠ / ١٩٦٠ ص ٧٢
(٣٠) رينو ص ٨
(٣١) الاعلام للمراكشي ج٢ ص ٢٤٦
(٣٢) كوتيي (Gautier) في كتابه عادات المسلمين واعرافهم ص ٢٣٨
(٣٣) تاريخ الطب العربي - لوكلير ج١ ص ٣٢٠
(٣٤) حاضر العالم الاسلامي ج١ ص ١٥١ ٠
(٣٥) نزهة المشتاق للادريسي ص ٧٦ من الجزء المطبوع حول افريقية والاندلس ٠
(٣٦) درة الحجال ص ٤٤١
(٣٧) جذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣١
(٣٨) درة الحجال ص ١٠٧ وسلوة الانفاس (ج٢ ص ٤) ٠
(٣٩) درة الحجال ص ٩١
(٤٠) الاعلام للمراكشي ج٣ ص ٢٦٣
(٤١) درة الحجال ص ١٧٦ + الدرة ص ٥١
(٤٢) في كتابه عادات واعراف المسلمين عندما تعرض له ٠
(٤٣) زهرة الآس للجزنائي ص ٣٣
(٤٤) المعجب لعبد الواحد المراكشي ص ١٧٧
(٤٥) م ١ - ق ٣ ص ٦٨٦ و ٧٠٩ طبعة بيروت ٠
(٤٦) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم ٤٩ - ٥٠
(٤٧) كودار صفحة ١٨٨
(٤٨) المعجب للمراكشي ٠
(٤٩) المجلة الاسيوية المجلد العاشر ص ١٥٢
(٥٠) راجع بعضها في المستدرك على المعاجم العربية لدوزي وبعضها الاخر في كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث » ٠
(٥١) راجع بحثنا حول رسل الفكر بين الشرق العربي والمغرب العربي فى مجلة « اللسان العربي » العد الخامس ١٣٨٧/ ١٩٦٧
★ خصصنا العراق الشقيق بالذكر لان هذا البحث أعد للمؤتمر الدولي للمؤرخين الذي انعقد عام ١٩٧٣ ببغداد ٠

ابن خلدون والمادية التاريخية

د. أحمد ماضي

رئيس قسم الفلسفة ـ الجامعة الاردنية

اختلف الباحثون الذين درسوا مقدمة ابن خلدون حول الاراء والافكار الرائدة التي طرحها هذا المفكر العربي العظيم . فالبعض اعتبره « مونتسكيو العرب » أو« مونتسكيو الشرق »، ولعل أول من تبنى هذا الاتجاه هو المستشرق النمساوي يوسف هامر Hammer (١٧٧٤ ـ ١٨٥٦) ويعتبر هذا الاتجاه من اقوى الاتجاهات السائدة في النظر الى المقدمة . فقد تبناه ، فيما بعد ، المستشرق الذي توفي شابا ، الا وهو فردريك شولتس (١٧٩٩ ـ ١٨٢٩) تلميذ المستشرق الشهير دي ساسي . والبعض الآخر من الدارسين اعتبر بعض افكار ابن خلدون مماثلة لافكار عصر النهضة الايطالية كما وردت في كتابات ميكافيلي. والجدير بالذكر ان أول من تبنى هذا الاتجاه في التفسير هو غريبرغ Graberg فقد قرأ بحثا في الجمعية الاسيوية اللندنية بعنوان « حول العمل التاريخي العظيم للفيلسوف الافريقي ابن خلدون » ، وذلك عام ١٨٣١ ، وفيما بعد أصبح هذا البحث اساس الكتاب الذي ألفه عام ١٨٤٦ في ذات الموضوع .

أمـا الاتجـاه الثالث في فهم المقدمـة فيتزعمه كـريمر «Kremer» (١٨٢٨ ـ ١٨٩٠) . وقد اعتبر هذا المستشرق ابن خلدون مؤسسا لـ « تاريخ الحضارة » ، او « تاريخ المدنية » وبناء على ذلك ، وانطلاقا من موقف ابن خلدون من الدين ، اعتبر كريمر ابن خلدون اول ممثل للوضعية التي ظهرت بعد حوالي خمسة قرون . زد على ذلك انه يعتبره رائد نظرية التطور الدائري للمجتمع ، وهذا الاتجاه في التفسير ، الذي يعتبر انصاره ابن خلدون ممثلا لعلم الاجتماع الوضعي ، من اقوى الاتجاهات النافذة في النظر الى دلالة المقدمة .

هذا بالاضافة الى اتجاهات اخرى في التفسير تقوى احيانا وتضعف احيانا اخرى ، لست قاصدا ان اتناولها بالعرض ، نظرا لان بعض المؤلفات الاجنبية والعربية قد شرحتها باسهاب وتفصيل . ولعل كتاب المرحوم ساطع الحصري « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » من اهم الكتب في هذا المجال . وبما ان عنوان المقال « ابن خلدون والمادية التاريخية » فساحاول ان اسلط الضوء على الاتجاه الذي يعتبر انصاره ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية .

لعل من اوائل الذين حاولوا تفسير مقدمة ابن خلدون ماركسيا هو راببورت Rappoportt . فقد نشر بحثا عن ابن خلدون عام ١٨٩٦ ، اكد فيه على الفكرات المادية الواردة في ابحاثه . وفي هذا الصدد تعلق الباحثة باتسييفا على هذه المحاولة بما يلي : « ... لقد قرب آراء ابن خلدون من بعض المبادىء الاساسية في المادية التاريخية المشروحة من قبل ك. ماركس في « بؤس الفلسفة » بدون حساب كاف للفارق التاريخي العظيم » (١) .

وفيما بعد نشر كولوزيو Colosio مقالا عن ابن خلدون عام ١٩١٤ ، حلل فيه ، لاول مرة آراءه الاقتصادية متأثرا بالاقتصاد السياسي الماركسي . وقد اعتبر هذا الباحث مبدأ « الحتمية الاجتماعية » الذي طرحه ابن خلدون لاول مرة - في نظره - ذا اهمية بالغة في فكره . والحتمية الاجتماعية - في نظر كولوزيو - هي حتمية التقدم الاجتماعي للمجتمع الذي يتجسد في الانتقال من الحياة البدوية الى الحياة الحضرية .

وبعد مرور سنوات قليلة على نشر مقال كولوزيو ، صدر كتاب للمؤرخ العلامة الروسي بارتولد ، بين فيه بوضوح ان ابن خلدون يختلف على الصعيد النظري بصورة كيفية عن المفكرين الاغريق . فقد قال ما يلي : « لو وضع في اساس نظرية ابن خلدون تغير ظروف الحياة الاقتصادية ، الانتقال من حياة التنقل الى حياة الاستقرار ، ومن الحياة القروية الى الحياة المدنية (الحضرية) بدلا من تغير الاشكال السياسية التي تشكل اساس النظريات الاغريقية » (٢) .

ان التركيز على ما هو اقتصادي ، من وجهه نظر بعض الدارسين ، هو الجديد في نظرية ابن خلدون . ومن المعلوم ان المادية التاريخية تعير العامل الاقتصادي اهمية خاصة ، وترى فيه العامل الحاسم في تغير المجتمع ، وانتقاله من حالة الى اخرى ، وابن خلدون من وجهه نظر هؤلاء الدارسين لا يختلف كثيرا عن رواد المادية التاريخية . وفي هذا الصدد يقول جوستون بوتول ما يلي : « وفي شروح ابن خلدون ، تراه يعطي المرتبة الاولى للخصائص الاقتصادية فهو

يرتب الشعوب بتمييزها تبعا لاساليب الانتاج » (٣) . ويطور هذا الباحث رأيه ليقول بمنتهى الصراحة « ويعود ابن خلدون الى تكرار هذه الفكرة التي تجعل منه شبه رائد لنظريات المادية التاريخة ، فهو يقول بالحرف الواحد عدة مرات « اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش . وسنرى ان فلسفته السياسية يمكن تفسيرها في جزء كبير منها باعتبارات اقتصادية » (٤) .

ومن الملاحظ ان وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي تتفق تمام الاتفاق مع وجهة نظر بوتول . فهو يرى في ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية . يقول روجيه جارودي ما يلي : « يمكن اعتبار ابن خلدون احد المبشرين بالمادية التاريخية ، فهو في دراسته للجدلية الباطنية لتطور المجتمعات يعلق اهمية كبيرة على تقسيم العمل . وهو يقسم الشعوب والاشكال الاجتماعية وفقا لاسلوب الانتاج الاقتصادي ، بل انه يقدم هذه الصيغة الاولية لمبدأ المادية التاريخية » (٥) ويحاول جارودي عدم الاكتفاء باعتبار ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية ، بل يجعل فكره ، بالنسبة للمسلم ، مدخلا ومنطلقا الى الاشتراكية العلمية اذ يحدد اصولا ومنطلقات فكرية عرقية ـ اسلامية مماثلة ، في نظره ، للاصول والمنطلقات الاوروبية الغربية التي مثلت مدخلا الى الماركسية . وفي هذا الصدد يقول : « ان الجزائري ذا الثقافة الاسلامية يستطيع ان يصل الى الاشتراكية العلمية بدءا من منطلقات اخرى غير سبل « هيجل » او « ريكاردو » أو « سان سيمون » : فلقد كانت له هو الآخر اشتراكيته الطوباوية ممثلة في حركة القرامطة ، وكان له ميراثه العقلاني والجدلي ممثلا في ابن رشد وكان لديه مبشر بالمادية التاريخية في شخص ابن خلدون . وهو على هذا التراث يستطيع ان يقيم اشتراكيته العلمية » (٦) .

وما تجدر الاشارة اليه ان هذا الاتجاه في تفسير نظرية ابن خلدون السوسيولوجية ـ التاريخية لم يكن مقتصرا على المستشرقين والمفكرين الغربيين بل تجاوزه ليضم بعض المفكرين العرب واخص بالذكر سلامه موسى . فقد اعتبره « اول مؤرخ يعلل التاريخ وينظر اليه النظرة المادية . . . » (٧) .

في ضوء ما تقدم ، يمكن القول ان هذا الاتجاه في تفسير مقدمة ابن خلدون يعود تاريخه الى نهاية القرن التاسع عشر ، وقد نما مع مرور الوقت ليصبح اتجاها نافذا في اوساط الدارسين والمفكرين المهتمين بهذا المفكر العربي العظيم . وليس خافيا أن هذا التفسير وثيق الصلة بأصحاب الاتجاه الماركسي في التفكير

والتحليل او الذين تأثروا على هذا النحو او ذاك بالماركسية مثل سلامة موسى . وهنا لامناص من ان يتساءل القارىء : هل ابن خلدون مبشر او شبه رائد للمادية التاريخية او ان تأويله على هذا النحو ليس موضوعيا انما يهدف الى جعله بصورة اعتباطية عصريا وقريبا من الماركسية في فهم الظواهر الاجتماعية والاحداث التاريخية ؟

تساؤل مشروع لا غنى عن طرحه . ولكن قبل الشروع في الكشف عن محاولتي للاجابة عن مثل هذا التساؤل ، اود القول سلفا ان لهذا التفسير ما يبرره في مقدمة ابن خلدون . وان كنت اتردد في اعتبار ابن خلدون شبه رائد للمادية التاريخية ، الا انني لا اتردد في القول بأنه وضع مقدمات الانتقال اليها. ولا يساورني ادنى شك في ان المقدمة تمثل مدخلا عربيا لفهم المادية التاريخية. وما استخلصه من ذلك هو ان التفكير المادي التاريخي ليس مقتصرا على شعب دون الاخر ولا على عقل دون الاخر .

ومن الجلي جدا ان ابن خلدون يعالج الحياة الاجتماعية على انها قبل كل شيء ، نشاط انتاجي مشترك للناس ، يهدف في المقام الاول الى تلبية احتياجاتهم المادية التي تكفل لهم البقاء . وفي هذا الصدد يقول الاتي : « العمران هو التساكن والتنازل في مصر او حلة للانس بالعشيرة ، واقتضاء الحاجات لما في طباع الناس من التعاون على المعاش » (٨) ويردف قائلا : « واما تقديم المعاش فلان المعاش ضروري وطبيعي . . . » (٩) .

نلحظ مما تقدم ان ابن خلدون يجعل « اقتضاء الحاجات » سابقا على اي شيء آخر متقدما على سواه . كما انه يعتبر « المعاش » ما تكون به الحياة ضرورية وطبيعية . وهذه الفكرة تمثل اللبنة الاولى في صرحه الفكري المادي التاريخي . وبعبارة ادق تعتبر هذه الفكرة المقدمة الاولى للمادية التاريخية . وحتى نتحقق من ذلك ، ينبغي علبنا ان نستعين بمؤسسي المفهوم المادي للتاريخ والمجتمع . « وهكذا فان الفعل التاريخي الاول هو انتاج الوسائل الضرورية من اجل تلبية هذه الاحتياجات ، انتاج الحياة المادية ذاتها . زد على ذلك ان مثل هذا الامر التاريخي ، مثل هذا الشرط الاساسي لكل تاريخ ، الذي ينبغي (الان مثلما قبل آلاف من السنين) ان يؤدى كل يوم وكل ساعة ، من اجل ذلك بعينه ، كي يتمكن الناس من العيش » (١٠) .

ان العمل من اجل تلبية الاحتياجات المادية هو مصدر حياة المجتمع . انه يمثل ضرورة طبيعية ابدية . انه الشرط الاساسي الاول لكل الحياة البشرية .

وهنا نلمس التمايز القائم بين ابن خلدون من جهة وارسطو واصحاب النظريات السياسية الاخرى من جهة اخرى . فهو لم يربط الوجود الاجتماعي للانسان بطبيعته الروحية بل قيده بالاحتياجات الطبيعية للانسان . وهكذا اصبحت الضرورة المادية قوة موجهة في تاريخ المجتمع . ان الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : «ان الانسان مدني بالطبع » اي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم ، وهو معنى العمران . وبيانه ان الله سبحانه ، خلق الانسان ، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء » (١١) « الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء ، غير موفية له بمادة حياته منه »(١٢) . « فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم » (١٣) . « واذا كان التعاون ، حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه . فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني ، والا لم يكمل وجودهم ... » (١٤) .

ليس خافيا ، مما تقدم ، ان ابن خلدون يرى ان جوهر المجتمع يكمن في التعاون ، في العمل المشترك لافراده ، في تقسيم العمل بين اعضائه من إجل تأمين وسائل الحياة المادية وتلبية احتياجات البشر . وتمثل الاقتباسات السابقة مزيدا من التوكيد على ضرورة الاجتماع ، التعاون ، العمل من اجل بقاء الانسان على قيد الحياة ، وحفظ نوعه .

اما المقدمة الثانية التي بلورها ابن خلدون فهي الفكرة التي تقول ان الاولوية للحياة المادية . فهي تسبق الحياة الروحية وبالتحديد النشاط العلمي . فالمعاش من قبيل الضروريات في حين ان العلم من قبيل الكماليات . « وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي ، وتعلم العلم كمالي او حاجي ، والطبيعي اقدم من الكمالي » (١٥) .

هذا المبدأ الذي طرحه ابن خلدون يعتبر رائدا ولا يختلف من حيث المضمون عن المبدأ الاساسي للمادية التاريخية ، الذي صاغه انجلز على النحو الآتي : « مثلما ان داروين اكتشف قانون تطور العالم العضوي ، فان ماركس (اكتشف) تلك الواقعة البسيطة المخفية تحت الطبقات الايديولوجية وهي ان الناس مضطرون في المقام الاول ، ان ياكلوا ويشربوا ويملكوا مسكنا ويلبسوا قبل ان يكونوا في حالة الاشتغال بالسياسة والعلم والفن والدين الخ ... » (١٦) .

يتضح مما تقدم ان التماثل في المبدأ الذي طرحه ابن خلدون والمبدأ الذي تطرحه المادية التاريخية كبير ، على الرغم من اقتضاب فكرة ابن خلدون . ان انتاج الخيرات المادية سابق على اي نشاط روحي . هذا ما يقوله ابن خلدون وما تؤكده المادية التاريخية . وفي هذا الصدد يقول احد كبار المختصين في المادية التاريخية ما يلي : « ان الدور الحاسم للانتاج المادي يكمن في انه يعتبر اوليا بالنسبة للحياة الروحية » (١٧) . وفي صفحة سابقة يؤكد على هذا المبدأ بشيء من التفصيل عندما يقول : « ان الناس قبل ان يفكروا ويتعاطوا الفن او السياسة ينبغي ان يعيشوا ، غير انهم مضطرون ، كي يعيشوا ، ان ينتجوا الخيرات المادية؛ المواد الغذائية ، والملابس والاحذية ، والسكن » (١٨) .

مجمل القول ان ابن خلدون لا يختلف جوهريا في طرحه لهذا المبدأ عن رواد وانصار المادية التاريخية . وان اردنا تحديد اختلاف واحد ، فما هو الا اقتضاب المبدأ لدى ابن خلدون واسهاب المادية التاريخية في تناوله .

ان مأثرة ابن خلدون تكمن في انه اول من اقر واعترف بالحياة المادية للبشر على انها اساس المجتمع ومحددة لجوانبه الاخرى بما فيها الجانب العلمي . اضف الى ذلك ان مفكرنا العظيم نظر الى المجتمع بمنظار يختلف كل الاختلاف عن منظار العهد الاغريقي ومنظار القرون الوسطى . فالعهد الاغريقي عالج المجتمع على انه مجتمع سياسي في المقام الاول ، والقرون الوسطى نظرت الى المجتمع على انه مجتمع ديني اولا وقبل كل شيء . اما ابن خلدون فقد عالج المجتمع على انه جماعات عمل تهدف الى تلبية احتياجات افرادها المادية في المقام الاول .

وما يستحق التنويه ان ابن خلدون لا يتوقف عند هذا المستوى ، بل يرتقي في تفكيره المادي ليجعل الحياة الاجتماعية ــ السياسية والقيم الاخلاقية لهذا الشعب او ذاك في تبعية لظروف حياته المادية . وهذا الارتقاء واضح للعيان عندما ما يميز مفكرنا المراحل التي يمر بها تطور المجتمع . وهذه المراحل ثلاث :

١ ــ المرحلة الاولى في تطور المجتمع : وهي اقرب الى السلوك الحيواني .

٢ ــ المرحلة الثانية في تطور المجتمع : وهي الحياة البدوية الزراعية « ومن هذا العمران ما يكون بدويا » ، وهو الذي يكون في الضواحي ، وفي الجبال ، وفي الحلل المنتجعة في القفار واطراف الرمال » (١٩) .

٣ ــ المرحلة الثالثة في تطور المجتمع : وهي الحياة الحضرية . « ومنه (أي العمران) ما يكون حضريا وهــو الذي يكون بالامصار والقرى والمدن والمــدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها » (٣٠) .

نلحظ مما سبق ذكره ان المجتمع يمر في مراحل مختلفة . وهنا لابد مــن طرح التساؤل الآتي:ما الذي يحدد الاختلاف، التباين بين هذه المراحل أو الانماط الحياتية ؟ ما هو المعيار الذي ينبغي ان نعتمد عليه في التمييز بين هذه المراحل ؟.

ان الذي يؤدي الى اختلاف البشر في احوالهم هو اختلافهم في كيفية انتاج ما تكون به الحياة . فالاختلاف في الاحوال مرده الى التباين في سبل المعيشة . وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون : « اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هــو باختلاف نحلتهم من المعــاش ، فان اجتماعهم انمــا هــو للتعــاون في تحصيله » (٢١) .

هذا المبدأ الذي يطرحه ابن خلدون ما هو الا تطوير لبذور فكره المادي ــ التاريخي ويعتبر مقدمة أخرى هامة تسمح بالانتقال الى المادية التاريخية . والجدير بالذكر ان هذا المبدأ يعبر عما يسمى اسلوب الانتاج في المادية التاريخية والاقتصاد السياسي الماركسي . وقد اشار اليه ماركس على النحــو الآتي : « العصور الاقتصاديــة لا تتباين بما ينتج ، انمــا بكيف ينتج ، بأي وســائــل العمل » (٢٢) .

وعندما اقارن بين مبدأ ابن خلدون واسلوب الانتاج المفهوم ماركسيا لا اجد كبير اختلاف بينهما من حيث الجوهر . فاختلاف العصور أو تباين الاجيال يعود الى أساليب الانتاج أو المعيشة المختلفة . وهكذا نحقق مزيدا من القناعة المبنية على اساس من الادلة ان الاتجاه الذي يعتبر ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية او على نحو ادق واضعا مقدمات الانتقال اليها له ما يبرره . فهذا الاتجاه لم ينبثق بصورة اعتباطية ، ولم يحاول رواده وانصاره ان يختلقوا مــا يتناسب وتأويلاتهم اختلاقا . فالذي دفعهم الى هذا التفسير هو تركيز مفكرنا على ان نمط المعيشة لهذا المجتمع او ذاك يعتمد على اسلوب الحصول على مستلزمات الحياة ، نوع النشاط الاقتصادي الذي يمارسه الافراد . ومصداقا لذلك يقول ابن خلدون : « والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي . فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها .

وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد الى البدو ، لانه متسع لما يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك . فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امرا ضروريا لهم ، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ، ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك »(٢٣)

واضح مما تقدم ان النمط الزراعي ـ البدوي للمجتمع يتصف بان اقتصاده قائم على الزراعة او تربية الحيوانات وهو يمثل الاسلوب الاولي ، المباشر ، والبسيط في الحصول على مستلزمات الحياة . اضف الى ذلك ان هذا النمط يعكس مستوى متدنيا للانتاج والاستهلاك والحياة والمدنية . والجدير بالذكر ان ابن خلدون جعل صفات البشر تابعة لنمط معيشتهم فصحة البدو افضل من صحة غيرهم ، كما انهم « اقرب الى الخير من اهل الحضر » (٢٤) . هذا بالاضافة الى انهم شجعان ، « قد صار لهم البأس خلقا ، والشجاعة سجية . . . » (٢٥) .

ومرد ذلك الى ان الانسان يتأثر على نحو حاسم بالبيئة . « واصله ان الانسان ابن عوائده ومألوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه ، فالذي الفه من الاحوال ، حتى صار خلقا وملكة وعادة ، تنزل منزلة الطبيعة والجبلة » (٢٦) .

وكما ان للنمط الزراعي ـ البدوي نتائج تترتب عليه ، بحكم انه يمثل اسلوبا معينا ، فان النمط الحضري يؤدي الى نتائج تختلف كل الاختلاف بسبب انه يمثل اسلوبا اخر للانتاج أرقى وارفع من الاسلوب السابق . فهو يتجاوز ما هو ضروري ، ما فوق الحاجة . ومرد ذلك الى الاختلاف في نوع النشاط الاقتصادي الذي يمارسه افراد المجتمع الحضري . ولا ريب ان هذا الاسلوب الجديد في الانتاج يؤدي الى نتائج ايجابية وعواقب وخيمة في الآن نفسه . فهو يتجاوز تلبية الاحتياجات الضرورية بتحقيقه للرفاهية والرغد في العيش الا انه يؤدي الى الفساد والجبن والبعد عن مسالك الخير . . . انه يمثل ارتقاء على الصعيد المادي ، الا انه يمثل تخلفا على الصعيد المعنوي ـ الاخلاقي . وقد قالها ابن خلدون بصراحة : « وقد يتوضح فيما بعد ان الحضارة هي نهاية العمران ، وخروجه الى الفساد ونهاية الشر ، والبعد عن الخير » (٢٧) . كما يقول : « واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ ، وعوائد الترف ، والاقبال على الدنيا ، والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق

والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه ، بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم : فتجد الكثير منهم يقذعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم ، وبين كبرائهم واهل محارمهم ، لايصده عنهم وازع الحشمة ، لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا »(٢٨)

ان هذه العواقب الوخيمة ما هي الا نتيجة للتقدم الاقتصادي والتحسن الملحوظ في احوالهم المادية وظروفهم المعيشية . « ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش ، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه ، دعاهم ذلك الى السكون والدعة ، وتعاونوا في الزائد على الضرورة ، واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنق فيها ، وتوسعة البيوت ، واختطاط المدن والامصار للتحضر . ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت ، واستجادة المطابخ ، وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها ، من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح ، واحكام وضعها في تنجيدها ، والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها ، فيتخذون القصور والمنازل ، ويجرون فيها المياه ، ويعالون في صروحها ، ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش او آنية او ماعون . وهؤلاء هم الحضر ، ومعناه الحاضرون أهل الامصار والبلدان . ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ، ومنه من ينتحل التجارة ، وتكون مكاسبهم أنمى وارفه من أهل البدو ، لان احوالهم زائدة على الضروري ، ومعاشهم على نسبة وجدهم » (٢٩) .

وبحكم انغماس اهل الحضر في الملذات ، واتكالهم على جملة من العوامل التي تحقق لهم الامن على انفسهم والمحافظة على ممتلكاتهم ، اصبحوا اقرب الى الجبن . « والسبب في ذلك ان أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، ووكلوا امرهم ، في المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم . واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم ، والحرز الذي يحول دونهم » (٣٠) .

واخيرا لامناص هنا من لفت انتباه القارىء الى ان الكاتب لايناقش ابن خلدون في صحة او بطلان ذلك ، انما الذي اثيره واحاول ان القي عليه بعض الضوء هو ان مفكرنا حاول الربط بين اسلوب معين من الانتاج ونتائج تترتب عليه ، وبالتالي حدد الاصل والفروع . ومن الممكن ان يتفق القارىء مع تحليل ابن خلدون

على مستوى التفاصيل والدقائق أو يختلف معه على صعيد القاعدة . فالموضوع لايتطلب الاقرار او الرفض لوجهة نظره ، انما يتطلب الاتفاق او الاختلاف مع انصار الاتجاه المادي ـ التاريخي في تفسير مقدمة ابن خلدون . ان محاولة ربط ابن خلدون لاسلوب الانتاج ، كأصل ، بنتائج تترتب عليه من حيث النظر اليها كقاعدة عامة ما هي الا محاولة قريبة من المادية التاريخية .

وهكذا نخلص الى أن مفكرنا العربي لعب دورا في وضع مقدمات معينة تمثل مدخلا عربيا الى المادية التاريخية . واخيرا ارجو من القارىء الا يتصور أن ابن خلدون كان متسقا في تفكيره حتى النهاية . فقد اسهمت عدة مؤثرات وعوامل في بلورة فلسفته التاريخية ـ الاجتماعية واخص بالذكر المناخ والغذاء . ومهما قيل في ابن خلدون ، فلا بد ، بناء على ادلة قوية لايرقى اليها الشك ، ان يعتبر رائدا للاتجاه المادي في علم الاجتماع . ومقدماته الى المادية التاريخية تمثل عنصرا عظيم الاهمية في اتجاهه المادي .

---

(١) س.م. باتسييفا ، « الدراسة السوسيولوجية ـ التاريخية لابن خلدون ـ المقدمة » ، اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، معهد شعوب آسيا ، دار « العلم » للنشر ، موسكو ، ١٩٦٥ ، ص ٩٠ (باللغة الروسية) .

(٢) ف. ف. بارتولد ، ثقافة الاسلام براغ ، ١٩١٨ ، ص ٥٤ (باللغة الروسية)

(٣) جوستون بوتول ، ابن خلدون ـ فلسفته الاجتماعية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٤ (ترجمة غنيم عبدون) .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٥

(٥) حوار عربي مع جارودي ، مجلة الطليعة ، العدد ١ ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٧ .

(٦) روجيه جارودي ، ماركسية القرن العشرين ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩

(٧) سلامة موسى ، مقالات منوعة ص ٨١

(٨) د. البير نصري نادر ، من مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٦٧

(٩) المصدر السابق ، ص ٦٨

(١٠) ك. ماركس و ف. انجلز ، الايديولوجية الالمانية ، مجموعة المؤلفات ، مجلد ٣ ، ص٢٦ (باللغة الروسية) .

(١١) المصدر ٨ ، ص ٦٩

(١٢) المصدر ٨ ، نفس الصفحة .

(١٣) المصدر ٨ ، ص ٧٠

(١٤) المصدر ٨ ، نفس الصفحة .

(١٥) المصدر ٨ ، ص ٦٨

(١٦) ك. ماركس و ف. انجلز ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ١٩ ، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ (باللغـة الروسيـة) .

(١٧) د. ا.تشيسنوكوف ، المادية التاريخية ، دار « الفكر » للنشر ، موسكو ، ١٩٦٥ ص٣٦ (باللغة الروسية) .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٥

(١٩) المصدر ٨ ، ص ٦٧

(٢٠) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢١) المرجع السابق ، ص ٨٢

(٢٢) ك. ماركس ، رأس المال ، المجلد ١ ، ك. ماركس و ف. انجلز ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٢٢ ، ص ١٩١ (باللغة الروسية) .

(٢٣) المصدر ٨ ، ص ٨٢

(٢٤) نفس المصدر ، ص ٨٥

(٢٥) نفس المصدر ، ص ٨٧

(٢٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٨٤ ــ ٨٥

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٨٢ ــ ٨٣

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٨٦

بعض من ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي

د. نبيه عاقل

عميد كلية الآداب ـ جامعة دمشق

لابد في التمهيد للحديث عن موضوع الصراع الطبقي في التاريخ العربي منذ مرحلة الاصول وحتى مرحلة الاستقرار والازدهار ، من أن نذكر بكلمة سريعة بحال بعض اجزاء الوطن العربي التي كانت في الفترة السابقة لقيام الاسلام ترزح تحت نير استعمارين غريبين ، ولم يتم لها التحرر من هذين الاستعمارين الا بعد قيام حركة الفتح العربي التي ابتدأت بعد وفاة الرسول وقيام خلافة الراشدين ، واستمرت خلال خلافة بني أمية .

ففي بداية ما اصطلح على تسميته بالعصور الوسطى كان يتقاسم النفوذ على بعض أجزاء الوطن العربي قوتان كبيرتان هما بيزنطة وفارس . وعندي ان دراسة تحليلية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة في هاتين الدولتين، وفي ما كان يقع تحت سلطانهما من أراض تساعد كثيراً على فهم التركة التي وجدها المحررون العرب في هذه البلاد حين جاؤوا إليها في عصر الفتوح .

هـذه الدراسة محاولة في التحليل التاريخي المعتمد على جملة من المعلومات التاريخية الاساسية المتفق عليها ، والتي يستخدمها الباحث ليقدم من خلالها وجهة نظر تنطلق من فهم متكامل لمنظومة تاريخية تضم مجموعة متجانسة من الاحداث تؤدي ، حسب راي الباحث ، الى صورة متسلسلة ومتكاملة يزعم الباحث انها الصورة التي خرج بها من استقرائه لهذه الاحداث . ولا يعني هذا ان الباحث يقف موقف الملتزمت مما قدم من وجهة نظر . والامر متروك للقارىء ، يقبل أو يرفض أو يعدل حسبما يرى . كما ان الباحث لم يلجأ الى التهميش لان ما ذكر من احداث هو من المعروف المتداول ، فلم يجد ضرورة لاسناده الى مظانه .

إن الاتجاه الحديث في الدراسات التاريخية البيزنطية يقرر أن بيزنطة كانت تعيش في القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية في ظل نظام كان **يزول فيه تدريجياً الاقتصاد المعتمد على العبيد ويقوم مكانه اقتصاد يتجه نحو النظام الاقطاعي .**

وفي المقاطعات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية لم يعان النظام الاقتصادي الذي يعتمد على العبيد ، ماعاناه هذا النظام في الغرب كايطاليا مثلا ، حيث قام العبيد بثورات عنيفة ضد سادتهم . ويبدو أن سبب ذلك أن أوضاع العبيد في الجزء الغربي من الامبراطورية كانت اسوأ منها في الجزء الشرقي ، وذلك لأن خيرات الشرق ووضعه الاقتصادي الزاهر قد قللا من الأسواء التي كان تعانيها طبقة العبيد فيه . هذا فضلا عن الدور الكبير الذي ظل العبيد في الشرق يلعبونه في الميادين الاقتصادية المختلفة ولا سيما ميدان الزراعة .

* * *

كان على رأس الهرم الحاكم في بيزنطة الامبراطور ويساعده في الحكم فئة ارستقراطية من كبار ملاك الأرض ، ويثبت دعائم هذا الحكم جيش من المرتزقة يأتمر بأوامر الامبراطور ويحمي نظامه .

وقد حاول الأباطرة ما وسعتهم المحاولة أن يحتفظوا بنظام العبيد وأن يعرقلوا قيام النظام الاقطاعي .

وفي خلال الفترة الانتقالية التي مرت بين النظامين ؛ نظام العبيد ونظام الاقطاع ، كانت الأراضي الزراعية الكبيرة تدار بطريقتين مختلفتين :

الطريق الأول : هو تشجيع العبيد على زيادة انتاج الأرض التي يعملون فيها وذلك عن طريق تزويدهم بكل ما يحتاجون من أدوات وبذار وحيوانات واعطائهم الحق في الاحتفاظ ببعض فائض المحصول ، ومنحهم بعض الحريات ، مع الابقاء على عبوديتهم .

أما الطريق الثاني : فهو إيجارها لفلاحين أحرار ، كانوا إلى جانب عملهم في أراضي كبار الملاك ، يملكون قطعاً صغيرة من الأرض يستغلونها لحسابهم الخاص ويتصرفون بخيراتها كما يشاؤون بعد أن يؤدوا ما عليهم من ضرائب .

أما من كان من هؤلاء لا يملك أرضاً خاصة فكانت حالهم لا تختلف كثيراً عن حال العبيد أو الأقنان ، فهم مرتبطون بالأرض لا يستطيعون مغادرتها أو الانتقال للعمل عند ملاك آخر ، هذا فضلا عما كان عليهم دفعه من انتاجهم إلى السيد ، وما يترتب عليهم من سخرة وأعمال غير مأجورة .

* * *

كان هذا حال طبقة الفلاحين في الريف ، ولم يكن حال الطبقة الكادحة في المدن بأحسن من ذلك . فقد كان على اصحاب الحرف الانتاجية أن يكدحوا ويعملوا ليوفروا مواد الرفاه لطبقة السادة والحكام ورجال الدين ، وما يفيض عن حاجتهم كان يعد للتصدير دون أن يسمع به الشعب أو يراه .

* * *

وكان اصحاب الحرف في بيزنطة على نوعين : نوع يستخدمه الامبراطور وكبار رجالات الدولة والملاك وكبار رجال الكنيسة ، ويزودوهم بالمواد الأولية اللازمة لانتاج ما يحتاجون من مواد الرفاه المختلفة ، ونوع آخر هم أصحاب الحرف الأحرار الذين يعملون لحسابهم والذين لا يتمتعون بحماية أحد من الأرستقراطيين أو رجال الدين . وكان الناس من هذا النوع يعانون أشد أنواع البؤس لعدم تمكنهم من الحصول على المواد الأولية الضرورية لصناعتهم ، فكانت أوضاعهم تسوء باستمرار ويعيشون في ظل أسوأ شروط الاستغلال والاضطهاد .

* * *

وقد شهد التاريخ البيزنطي نتيجة الظلم الذي احاق بهذه الطبقات المحرومة العديد من الثورات التي قام بها العبيد والفلاحون ، وغيرهم من سكان الريف، مما لا مجال للدخول في تفصيلاته هنا ، ويكفي أن نذكر بالعديد من ثورات الريف والمدن التي جرت أيام الامبراطور جستنيان ، هذه الثورات التي أججت نيرانها الطبقة التي تعرف باسم « المعدمين » Lumpen Proletariat في التاريخ البيزنطي ، وثورة Nika في القسطنطينية التي بلغت حداً من الشدة جعل الامبراطور ورجال حاشيته يعدون السفن للهرب إلى المقاطعة الافريقية ، والتي انتهت بمذبحة رهيبة ذهب ضحيتها خمسة وثلاثون الفاً من الثوار ، ذبحوا في ملعب القسطنطينية كما تذبح النعاج .

هذا بسرعة عن حال الطبقات الكادحة بمختلف فئاتها في ظل حكم الامبراطورية البيزنطية . أما في الامبراطورية الفارسية التي كانت تحكمها الأسرة الساسانية والتي كانت المنافس العنيد للامبراطورية البيزنطية ، فمن المهم أن نذكر ان المصادر مقلة في ذكر نوع النظام الاجتماعي الاقتصادي الذي كان يسود في البلاد الواقعة تحت حكمها ، كما أن المعلومات القليلة المتوفرة حول هذا الموضوع لم تدرس بعد دراسة وافية ولم تستخلص منها معلومات تعطي صورة صادقة عن حال الطبقات الكادحة ، والحياة التي كانت تحياها . ويبدو ان الزراعة في فارس زمن حكم الأسرة الساسانية كانت تعتمد بشكل رئيسي على خدمات العبيد . وكان هؤلاء العبيد يؤخذون غالباً من بين أسرى الحرب الرومان الذين يقعون في قبضة القوات الفارسية . وقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى حد القول بأن هدفاً أساسياً من أهداف فارس من الحروب التي كانت تخوضها ضد روما (وبيزنطة فيما بعد) هو الحصول على أسرى لتستخدمهم كعبيد يعملون في زراعة الأرض .

* * *

على أن نظام العبودية الذي استمر قائماً في بلاد ما بين النهرين لفترة تزيد على اربعة الآلاف سنة ، أخذ منذ القرن الرابع والخامس الميلاديين يزول ، ولم يعد العبيد المصدر الأساسي للعمل في الزراعة ، وغدا الانتاج الزراعي يعتمد على جماعة من الفلاحين كانوا أول الأمر يملكون الأرض ملكية جماعية ، ثم ما لبثت ملكية الأرض أن تحولت الى أيدي زعماء ظهروا بينهم واستلبوا الأرض والماء لأنفسهم تدريجياً ، وغدوا ملاكاً كباراً ، وغدا من كان معهم من الفلاحين أقناناً وعبيد أرض عليهم أن يكدحوا ويعملوا ويسلموا ما تنتجه الأرض إلى سادتهم الجدد محتفظين لأنفسهم بما هو دون الكفاف .

وهكذا قام في فارس نظام اقطاعي يعتمد فيه المنتج ، وهو الفلاح ، على ما يقدمه له الملاك من ارض وحيوانات وأدوات عمل . كما قام نوع آخر من أواسط الملاك ، هم فئة الخيالة في الجيش ، الذين كانت الدولة تمنحهم اقطاعات صغيرة مقابل بعض الخدمات العسكرية البارزة . وشيئاً فشيئاً دخلت هذه الأرستقراطية الزراعية الجديدة الحياة السياسية للدولة ، واخذت تلعب دوراً بارزاً في حياة الدولة وتبسط سيطرتها على بعض المدن الزراعية والقبائل البدوية الضاربة في أراضيها . ومن هنا كان لها دور سياسي كثيرا ما كان يتعارض مع مصالح الدولة وأهدافها . وقد أدى تسلط هذه الفئة على ادارة دفة الدولة

الى تهافت القوى المنتجة في فارس وضعفها ،كما أن أساليبهم في الاستغلال ونهب خيرات البلاد أضرت بمصالح الدولة اضراراً كبيراً ، ونشأت عند بعضهم نزعات انفصالية ادت الى قيام حروب أهلية بينهم ، كثيرا ما كان ثمنها أرواح الآلاف من اتباعهم المحرومين .

* * *

وإذا أضيف الى تسلط السادة هذا ، النظام الضريبي الجشع الذي كان يقوم على تنفيذه موظفون ماليون وملتزمو ضرائب لا يشبع نهمهم الى السلب شيء ، لتصورنا أي حال متردية كانت تعيش فيها جماهير الشعب المحرومة . وقد ادت هذه الحال المتردية للجماهير العاملة الى قيام الحركة المزدكية ، التي ينظر إليها الكثير من المؤرخين الاشتراكيين المحدثين على أساس انها حركة جماهيرية كان أهم ما تهدف إليه هو رفع الظلم عن هذه الطبقات التي عانت مالا يطاق من عنت وجور السادة ، واعادة توزيع الثروة توزيعاً لا يكون فيه المحرومون هم الكثرة الكاثرة من ابناء الشعب . كما طالب زعماء المزدكية بفتح مخازن الغلال للجائعين وهددوا بأنهم سيفتحونها بالقوة إذا لم تستجب السلطة إلى طلبهم .

وهكذا فقد كانت المزدكية ، في نظر هؤلاء المؤرخين ، النظرية التي عكست آمال ومصالح ملاك الأرض الحقيقيين الذين انقلبوا بسبب جور السادة وجشعهم إلى أقنان وعبيد أرض في ظل نظام اقطاعي .

وفعلا اتيح للمذهب المزدكي أن يلقي تأييد جماهير واسعة من الفرس ، واستطاع المزدكيون أن يقيموا مجتمعاً خاصاً بهم في شمال فارس يطبقون فيه تعاليمهم . ولكن الغريب في أمرهم انهم ، مع كل ما كانوا يؤمنون به من مبادىء العدالة والمساواة ورفع الظلم الاجتماعي ، احتفظوا في مجتمعهم الجديد بنظام العبودية واعتبروا وجود العبيد ضرورة لازدهار الزراعة في مزارعهم الجماعية . وغدت ملكية العبيد تابعة للمزرعة الجماعية لا لأفراد بعينهم . على أن الرجعية الحاكمة ما لبثت أن تغلغلت إلى صفوف المزدكية ، واستطاعت بعد أن اكتشفت خطرها وانجذاب الجماهير اليها ، أن تهدمها من الداخل وأن تفشي الفساد فيها ، وأن تطرح نظرية المشاع في ملكية المرأة وغير ذلك من المفاسد . واخذ المزدكيون يصبحون شيئاً فشيئاً من اتباع الأسرة الحاكمة حتى طفت هذه

الأسرة عليهم وضمتهم تحت جناحها بعد أن سلطت عليهم فئة الملاك الكبار ، ووعدت هذه الفئة باعطائها مزارعهم الجماعية مقابل تعاونهم معها في القضاء عليهم .

* * *

وإذا تركنا الريف والفلاحين وحالهم مع السادة وكبار الملاك ، وانتقلنا إلى المدن حيث جماهير الحرفيين والعاملين في الصناعة والتجارة ، لوجدنا ان الانتاج الحرفي فيها كان مرتبطاً الى حد كبير بطبقة السادة وما تحتاجه من أدوات رفاه من جهة ، وبتجارة التصدير من جهة أخرى . ويبدو أن جماعات الحرفيين في ايران القديمة كانوا منظمين في نقابات مهنية ، وكان لهم أهميتهم في الحياة الاقتصادية لدرجة أن الجيوش الفارسية ، كانت في كل غزوة لها إلى سورية تحضر معها من تستطيع أسره من الحرفيين السوريين المهرة الذين ساهموا في رفع مستوى الصناعات الفارسية القديمة .

* * *

بعد هذا الحديث الذي حاولنا من خلاله أن نظهر بعضاً من جوانب قضية التفاوت الطبقي الذي كانت تعيش في ظلاله كل من بيزنطة وفارس في الفترة السابقة لعصر الفتوح العربيـة ، باعتبارهما الدولتين المجاورتين والمعاصرتين لأقطار الوطن العربي من جهة ، ولأن بعضاً من هذه الأقطار كانت ترزح تحت نير استعمار هاتين الدولتين ، بعد هذا الحديث لابد لنا من أن نسلط اضواء التحليل والمناقشة على الحال في المجتمع العربي منذ أقدم العصور التي تمدنا المصادر ببعض المعلومات عنها ، وحتى نهاية العصر العباسي ، وسنتوقف في بحثنا عند موضوع الصراع الطبقي مع نهاية العصر العباسي ، لأن التيارات الفاعلة والمؤثرة في هذا الصراع ستأخذ لوناً جديداً بعد هذا العصر .

* * *

هناك نظريتان متباينتان حول التركيب الاجتماعي والاقتصادي للقبيلة العربية التي كانت تضرب في فيافي الجزيرة العربية قبل الاسلام . وأولى هذه النظريات تعتبر القبيلة مجتمعاً اشتراكياً فاضلا يتساوي فيه الأفراد بالحقوق والواجبات ، ولهم جميعاً وبالتساوي تعود ملكية الدعائم الأساسية للحياة الاقتصادية ، وهي الحمى والقطيع .

والنظرية الثانية التي تقول بهـا جماعة المدرسة الماركسية في التفسير التاريخي والتي لا تعترف بأن الثروة كانت موزعة توزيعاً عادلا ، لا في القبيلة ولا في المدينة العربية قبل الاسلام . ويقول أنصار هذه المدرسة ان سوء توزيع الثروة في القبيلة العربية في الجاهلية أمر ظاهر ولا يحتاج برهانه الى كبير عناء . فقد كان لكل قبيلة سادتها الذين ترتكز سيادتهم على نبل المحتد وعراقة الدم ، والذين كانوا يملكون قطعاناً كبيرة من الماشية ، ولهم الاولوية في استعمال المرعى ومصادر المياه . ومعروف ان ملكية القطيع سابقة ، في تاريخ الملكية ، على ملكية الارض . وهنا يجب التفـريق بـين الملكيـة الشخصيـة والملكيـة الخاصة . فكل انسان لا بد وأن يكون له أملاك شخصية (ثيابه ، سلاحه ، راحلته ... الخ) ، وهي لا تؤدي بالضرورة الى تزايد ثروته أو ما يملك ، اما الملكية الخاصة فهي التي تؤدي عادة الى الربح ، ويستطيع المالك عن طريقها أن يزيد في ثروته . وبما أن الارستقراطية القبلية كانت هي التي تملك القطعان الكبيرة التي تنتج لبناً ولحماً وصوفاً يفيض عن حاجة استهلاكها ، فهي لذلك كانت تملك الفائض الذي يحتاجه ابن القبيلة المحروم والذي قد لا يستطيع الحصول عليه لفقره وعدم كفاية ما عنده من نقد أو عين للمقايضة عليه . ومن هنا جاء التفريق بين الذين يملكون والذين لا يملكون داخل القبيلة .

وقد وجد في القبيلة عبيد ، وكانوا في الغالب من الغرباء أو من الذين استعبدتهم القبيلة نتيجة الغزو ، أو من أبناء الاماء الذين لم يحررهم آباؤهم الاحرار . كان هؤلاء العبيـد يعملون في رعي ماشية السادة وتأديـة مختلف الخدمات لهم .

* * *

لقد أدى عدم التساوي في الثروة داخل القبيلة الى نشوء فئة **الصعاليك** . هذه الفئة التي تتكون في الغالب من أفراد فقراء تتضح فيهم الميول الثورية . وكانت هذه الفئة تمثل في نظر طبقة السادة خطرا لا بد من التخلص منه ، وكان الصعاليك بدورهم ، وهم الفقراء الجائعون ، لا يتورعون عن السلب والنهب والقتل في سبيل تدبر أمر معاشهم ، وقد ألفوا عصابات ، كانت تلجأ الى بعض الغدران ومنابع المياه وتعيش على الصيد والقنص وتتربص بقطعان السادة أو قوافلهم لتنهبها وتأخذ منها ما يسد عوزها . وخلافاً لكل الاعراف القبلية كان الصعلوك لا يتورع عن مهاجمة أو ايذاء ابن قبيلته اذا ما وجد المبرر لذلك . وقد أدى هذا الى اضطرار القبيلة للتخلي عنه وطرده من عضويتها . وهكذا

نشأت فئة الطرداء (ومفردها طريد) ، الذين تسقط القبيلة عنهم حمايتها أو مسؤوليتها النابعة من الاعراف القبلية التي كانت سائدة آنذاك .

واذا كانت كتب الادب العربي لم تول الصعاليك والطرداء ما يستحقون من دراسة واهتمام ، فان الدراسات الاجتماعية الحديثة ترى فيهم التعبير الحي عن التفكك والانهيار الذي أصيبت به العلاقات الاجتماعية والاقتصادية داخل القبيلة العربية ، بدءا من القرن الخامس والسادس الميلاديين ، وترى في قيامهم تعبيرا عن الثورة التي كانت تضطرم في نفوس بعض ابناء القبائل المحرومين على سادتهم وجلاديهم .

* * *

ومهما قيل عن الواجبات والمهام الكثيرة التي كانت ملقاة على عاتق رئيس القبيلة ، وما تفرض عليه رئاسته من مسؤوليات مادية ومعنوية تجاه جميع ابناء قبيلته ، فان هذا الرئيس أو السيد ، كان يعيش حياة مادية لا يحلم بها او يدانيها أي فرد من افراد قبيلته . فخيمته اكبر خيام القبيلة واجودها نوعاً واغناها بالمتاع والاثاث . وما يصح على خيمته يصح على طعامه ولباسه وفراشه وجميع مظاهر حياته المادية . ولعل اهم ما يميز السيد عن بقية أفراد قبيلته هو نصيبه من الغنائم في اي عملية غزو تقوم بها القبيلة ، هذا النصيب الذي يجمعه الشاعر في قوله :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد ادت هذه الامتيازات كلها الى نشوء حركة معارضة في المجتمعات الرعوية البدوية عبر عنها الصعاليك والطرداء برفضهم لهذه القيم التي تقوم على أعراف وتقاليد لا تشيع العدالة والمساواة في كثير من الاحيان .

* * *

هذا بالنسبة للمجتمع القبلي الذي كان يعيش حياة بداوة ورعي واقتصاد يقوم على القطيع والارتحال في طلب الكلأ والماء واذا انتقلنا لتقصي الحال في بعض المجتمعات المستقرة في الجزيرة العربيه قبل الاسلام ـ كمكة مثلا ـ التي كان يتحول اقتصادها من اقتصاد بدوي الى اقتصاد تجاري ، والمدينة أو يثرب التي كان اقتصادها البدوي ينتقل الى اقتصاد زراعي ، لوجدنا ان قضية العلاقات الاجتماعية وصراع الطبقات تدخل في طور جديد يجعل الباحث يلحظ بوضوح القلق وعدم الرضا الذي أخذ يسود طبقات المجتمع المختلفة والمتفاوتة المصالح

ففي مكة مثلا التي كانت مركزاً دينياً وتجارياً في آن واحد ، والتي كان فيها الدين والتجارة مرتبطين بأكثر من مظهر وهدف ، نلاحظ أن هذه المدينة قد وسعت فعالياتها الاقتصادية في القرن السادس للميلاد توسيعاً سيجعل التناقض الطبقي امراً حتمياً ولا بد أن يقود الى صراع مكشوف بين المستغلين والمستغلين . وكان الصراع البيزنطي الفارسي قد ادى الى شل طريق تجارة الهند الى الخليج العربي ، كما أن سقوط الدولة السبأية على يد الاحباش ، ومساوىء الابحار عبر البحر الاحمر وما فيه من اخطار ملاحية بسبب الشعاب المرجانية مكنت قريش ، سيدة مكة من السيطرة على طريق التجارة المار بغربي الجزيرة . وغدت لقريش مع الزمن اغنى القوافل التجارية في الجزيرة ، وأخذت تتولى مبادلة بضائع الترف من الهند والحبشة ، والبخور من اليمن ، بانتاج الشام وبلاد البحر المتوسط . كما اتسعت صلاتها التجارية حتى شملت العراق والخليج العربي . وهكذا غدت هذه المدينة الواقعة في « واد غير ذي زرع » تقوم برحلتي الشتاء والصيف ، وتكونت فيها ارستقراطية نشيطة حاولت عن طريق الاحتكارات أن تنمي ثرواتها ، واتخذت المال سبيلا لتأكيد نفوذها وقوتها. لقد بلغ من حجم التجارة المكية أن الطبري يتحدث عن قافلة لقريش بلغ عدد جمالها ٢٥٠٠ بعير يحرسهم مائة رجل من قريش ، وعن قوافل صغيرة كانت عدة جمالها لا تقل عن الالف جمل .

وطبيعي أن تنشأ في مجتمع تجاري له هذا الحجم التجاري الكبير المعاملات المصرفية والربا . والاقراض بالفائدة ، وأن تتداول فيه عملات الدول الاجنبية التي لها مع مكة تعامل تجاري . وقد بلغ من حدة جشع تجار مكة انهم كانوا يأخذون فائدة الدرهم المقترض درهما وفائدة الدينار دينارا . وكثيرا ما لجأ بعضهم الى تقاضي فوائد تصل الى حد ٢٠٠٪ أو ٤٠٠٪ ، وكانت معاملاتهم لا تقتصر على أهل مكة فحسب بل جميع بدو الحجاز الذين لهم علاقات بالقوافل التجارية وعملية التجارة بشكل عام .

* * *

وهكذا تدرجت بعض بيوتات قريش في معارج الثروة والغنى ، وانغمست في حمأة الابتزاز والاستغلال واستثمار عرق وجهد الطبقات المحرومة من ابناء جلدها . وكان بنو أمية على راس هذه البيوتات التي أثرت ثراء غير مشروع واستغلت ظروف سيادتها وسلطانها لتزيد في ثروتها . فكانت لهم رئاسة معظم القوافل التجارية ، ونبع من بين صفوفهم كبار التجار والمرابين فآلت اليهم

هكذا رئاسة قريش نفسها . وقد نازعهم هذه السيادة بطون أخرى من قريش على رأسها بطن هاشم الذي كانت له السيادة قبلا . وأدى هذا التنافس بين البطون القرشية الى صراع داخل قريش نفسها كان من أهم نتائجه عقد حلف الفضول الذي نستطيع أن ننظر اليه على ضوء هذا التفسير بمنظار جديد . فالمصادر تذكر أن السبب المباشر الذي دعا الى عقد هذا الحلف هو أن شخصاً من بني سهم (أحد البطون القرشية) رفض أن يدفع لتاجر يمني ثمن سلعة أخذها منه . وفي هذا الرفض دلالات أبعد من كونها سوء ذمة عادية من شخص اشترى بضاعة ولا يريد أن يسدد ثمنها . ان في هذا الرفض ، اذا أعملنا النظر في التيارات والحزبيات والاوضاع الاجتماعية للبطون الملكية المختلفة ، ما قد يستدل منه على أن البطون الغنية من قريش ، وسهم منها ، كانت تريد أن تقصي اليمنيين عن تجارة الجنوب وان تحصر هذه التجارة في يدها . وكان رد فعل بني هاشم ومن والاهم ، التكتل في وجه هذا الفرع الغني وانشاء تحالف يقف في وجه مطامعهم المتزايدة ، لا سيما وأن آل هاشم وحلفاءهم لم يكونوا على جانب من الثروة يساعدهم على تسيير قوافل خاصة بهم الى اليمن ، بل كانوا مضطرين للتعامل مع هذه البلاد عن طريق تجار يمنيين يقيمون في مكة ، أو عن طريق اشتراكهم في القوافل العامة . واحتكار فئات ، كبني عبد شمس ومخزوم ، لتجارة مكة مع اليمن يعني بالنسبة لهم أن تفرض هذه الفئات عليهم شروطاً قد لا تكون في صالحهم اذا شاركوها في قوافلها الذاهبة الى هناك ، أو أن يعطوهم نصيباً ضئيلا من أرباح القوافل المشتركة .

* * *

واذا كان الصف القرشي نفسه لم يخل من مستغل ومستغل ، وبالتالي من صراع سببه تباين المصالح وتسلط فئة قرشية على فئات قرشية أخرى ، فن الطبيعي أن يكون استغلال هذه الطبقة المتسلطة لجماهير المكيين أشد وأدهى ، وأن يقع فقراء وضعفاء هذه المدينة فريسة نظام ليس للضعيف فيه مكان . وهكذا عاش المجتمع المكي في الفترة السابقة للاسلام في ظل نظام اجتماعي يسوده القلق وتتسم علاقاته بالتفكك ، كما أن هذا النظام زعزع من ناحية ثانية المفاهيم القبلية وضربها في الصميم ، فلم يعد الولاء للقبيلة هو الناظم للعلاقات بين الفرد وقبيلته ، وحل محله الولاء للطبقة ، وزالت رابطة الدم لتحل محلها رابطة المصلحة المادية .

لقد ضعفت الروح الجماعية القبلية في مكة واتسعت الفجوة بين قريش البطاح وقريش الظواهر . وفي الوقت الذي وجد الاغنياء فيه ضماناً لهم في ثرواتهم ، أحس الاخرون بالقلق والمرارة بسبب قسوة الاستغلال الذي خضعوا له . اننا نشم رائحة التجارة والمصلحة المادية لا في العلاقات بين البطون القرشية وتكوين الاحلاف والصراع بين القوى المحتكرة والمتسلطة ماديا والقوى المعارضة لها فحسب ، بل نشم هذه الرائحة في حركة المعارضة للاسلام نفسه ، هذا الدين الذي سيظهر بعد قليل والذي سيهدد في جملة ما يهدد مصلحة قريش التجارية . لذلك لن نستغرب وقوف أبي لهب ــ وهو عم الرسول ــ في الصف المعارض للرسول ضارباً عرض الحائط بكل تقاليد التضامن القبلي ، لأن ابا لهب وهو الأخ الاصغر لأبي طالب كان متزوجاً من احدى أخوات أبي سفيان سيد بني عبد شمس وزعيم مكة المطاع . ولا شك أن العامل القوي في معارضته للرسول كانت مصالحه المادية والتجارية التي كانت مع بني عبد شمس .

* * *

واذا انتقلنا بعد ذلك الى الحركة الاسلامية الوليدة لوجدنا ان الاسلام ظل لا يلقى أية معاضة من الارستقراطية القرشية المحتكرة والتي لم تأبه لما كان يقول محمد ، حتى أخذ يعيب آلهتها ويشتم دينها ويظهر سفه أسلوبها في الحياة والعبادة . حينئذ فقط تنبهت هذه الارستقراطية الى الخطر الذي تمثله هذه الدعوة .

والسؤال الذي يفرض نفسه بهذه المناسبة هو هل كانت الارستقرا لية القرشية متمسكة بآلهتها الى الحد الذي يجعلها تخوض ما خاضته من حروب وتصرف ما صرفته من أموال وجهود للوقوف في وجه دعوة محمد ؟! أم هل تراه امرا آخر !!

ان المطلع على حقيقة الوثنية المكية يعرف بما لا يقبل اي شك أن المكي كان اكثر الناس استهتارا بآلهته ، وانه كان يعرف انها لا تسمن ولا تغني من جوع ، وانه انما يعبدها لتقربه « من الله زلفى » وانها شفيعته عند الله فقط . هذا فضلا عمن تنصر أو تهود أو اعتنق دين ابراهيم ورفض عبادة الاوثان . ان في كل هذه الحقائق ما يجعلنا نرى بوضوح أن عيب محمد لآلهتهم لم يكن الأمر الذي أثارهم ضده ، بل كان الذي أثارهم وجعلهم يحسون بالخطر الذي تمثله دعوة محمد هو ما قد تؤدي اليه هذه الدعوة من انقلاب في المفاهيم قد

يكون من نتائجه فقدانهم لزعامتهم المادية التي تنبع الى حد بعيد من زعامتهم الوثنية ووجود الكعبة رمز وحدة العرب ومحط انظارهم ، بين ظهرانيهم . والى هذه القدسية الدينية لمدينتهم والى سيادتهم القبلية يعود الفضل في مكانتهم التجارية .

* * *

وبعد أن اتيح للاسلام أن يصبح ديناً ودولة حقاً وان يطرح شعاراته الجديدة التي تلغي الفوارق الطبقية المبنية على اساس من نبل الدم وشرف الجاه والمال ، أقام عوضاً عنها جميعاً « أمة » يتساوى فيها « المؤمنون » جميعاً ، ولا يتفاضلون الا « بالتقوى » والاخلاص للعقيدة . وقد طبق الرسول هذه المساواة في « الحكومة » التي أقامها في المدينة وضرب المثل بنفسه وأعضاء أسرته . فسار الناس على سنته وشاعت عدالة اجتماعية لفترة من الزمن امحت معها الفوارق الطبقية وعاش الناس في ظل مجتمع فاضل يسوده قانون صارم يأخذ المسيء بجريرة فعلته .

* * *

وحين انتقل الرسول الكريم الى جوار ربه وقامت دولة الراشدين حاول الخليفتان الاولان أبو بكر وعمر أن يسيرا على هدي الرسول ، وأن يستمرا في اقامة دولة المساواة التي يتفاضل الناس فيها بالتقوى وحسب . ولنا في قسمة أبي بكر غنائم الفتوح الاولى بالتساوي ودونما تمييز بين كبير أو صغير ، رجل أو امرأة ، على أفراد الجماعة الاسلامية ، وفي ادخال عمر مقياسين للتفاضل بين الناس حين عرضت له مشكلة قسمة غنائم الفتوح ، وهما القرابة من الرسول والسبق الى الاسلام ، خير دليل على ان المساواة كانت ما تزال هي الاساس في مجتمع الاسلام ، وأن الناس يتفاضلون بمقدار ما قدموا للدين الجديد من عمل وجهاد . وكانت نظرية عمر تتلخص بقوله انه لن يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه .

* * *

وتبدأ مرحلة جديدة من التطور بقيام عصر الفتوح وتدفق الثروات من الاقطار المفتوحة على حاضرة الدولة في الحجاز . وهنا لا بد من أن نلاحظ أن الفتوح في زمن أبي بكر وعمر كانت من السعة والغنى بحيث نبهت الارستقراطية المكية القديمة الى الدور الذي يمكنها أن تلعبه في الامصار المفتوحة ، والمكاسب

التي تستطيع أن تحققها . غير أن وجود عمر على رأس الدولة في هذه الفترة وما عرف عنه من قوة وبطش وعدم تساهل او تفريط في المبادىء جعل هذه الارستقراطية تقبع في الظل وتنتظر الفرصة لتستعيد نشاطها وفعاليتها . وفعلا جاءت هذه الفرصة حين طعن عمر ودبرت الخلافة لعثمان الاموي العريق في الغنى وممثل الارستقراطية القرشية القديمة . ان عملية الشورى والمناورات التي دبرت لاقصاء علي عن كرسي الخلافة كانت لعبة ماهرة لعبت فيها الارستقراطية دورا لا مجال لتفصيله في هذه العجالة .

وهكذا آلت الخلافة الي عثمان ، الخليفة الضعيف الذي وقع تحت تأثير جماعته من أفراد البيت الاموي ، ورثة ماضي مكة التجاري وأصحاب السيادة والجاه والمال . ورغم أن بني أمية وقفوا من الاسلام موقفا معاديا أول الامر وحاربوه حتى اليوم الذي فتح فيه الرسول مكة ، الا انهم ، على عادة رجال الاعمال الاذكياء ، ما لبثوا أن انضووا تحت لواء الدين الجديد وانسربوا اليه وحاولوا أن تكون لهم السيادة في المجتمع الجديد ، واستطاع أولاد أبي سفيان ومنهم يزيد ومعاوية أن يحصلا على مكانة رفيعة في المجتمع الجديد منذ زمن أبي بكر وعمر . والمهم أن نلاحظ في هذا المجال أن بروز يزيد وأخيه معاوية لم يكن في المدينة بل كان في الامصار .

ان انتعاش الارستقراطية الحجازية القديمة بدءا من خلافة عثمان يتمثل في الارقام الهائلة التي وصلت اليها ثروات بعضهم . فالمسعودي مثلا يذكر أن خزانة عثمان كانت تشتمل يوم قتل على نقد يقدر بمئة وخمسين الف دينار ومليون درهم . هذا فضلا عن البساتين والمزارع التي كان يملكها في وادي القرى وحنين وغيرها . ويبدو أن الزبير وطلحة لم يكونا بأقل منه غنى . فقد جاء في ابن سعد في حديث عن ثروة الزبير انه كان يملك احدى عشر دارا في المدينة ، ودارين بالبصرة ، ودارا بالكوفة ودارا بمصر ، وان ميراثه الذي اقتسم بعد وفاته قد بلغ اثنين وخمسين مليون درهم . هذا فضلا عن الخيل والجمال والعبيد وما شابه . أما طلحة فقد كانت غلته من العراق كل يوم الف درهم ، وكانت غلته السنوية على تقدير آخر ما بين ٤٠٠ ــ ٥٠٠ الف ، هذا في العراق فقط ، اما اذا أخذنا بعين الاعتبار مجموع ثروته فقد بلغت على حد تقدير ابنه موسى بن طلحة مليوني درهم ومائتي الف دينار ما عدا العروض والماشية والعبيد .

ان هذه الارقام على ما قد يكون فيها من مبالغات تشير بوضوح الى بدء قيام نظام طبقي يتربع فيه أغنياء استغلوا الفرص والمناصب التي أتيحت لهم ليثروا على حساب عامة الناس . والمهم في الامر ان الفتوح التي ادخلت هذه الثروات الى جيوب هذه القلة من أفراد المجتمع كانت من صنع رجال الجيش المحاربين الذين كانوا زمن أبي بكر وعمر قد شغلوا بأمر الفتح الى حد لم يترك لهم فرصة للتفكر والتدبر . هذا فضلا عن أنهم كانوا يقنعون بنصيبهم من الغنائم وما يصل اليهم من عطاء قررته لهم الدولة . وفي زمن عثمان حين خفت موجة الفتوح وانقطع عن المحاربين السيل المتدفق من الغنائم الذي كان يأتيهم ويجعلهم في بحبوحة لايبالون معها بما تفعله الدولة بأموال الفيء وريع الاراضي التي يغنمونهـا من البلاد المفتوحة ، أخـذ هؤلاء المحاربون يجأرون بالشكوى ويعلنون ان واردات الدولة من الفتوح هي حق لهم ، وان الدولة حسب التشريع القرآني لا تملك سوى خمس هذه الواردات .

ولا بد لنا أن نوضح أن المقاتلة كانوا هم الجماهير الواسعة ، صاحبة الحق في الثروة العامة ، وأن نصيبها من الدخل العام كان يتضاءل باستمرار كما بينا واذا أضفنا الى هذه الفئة ، فئة الاتقياء ـ كأبي ذر الغفاري ـ وغيره من بقايا صحابة الرسول الذين كانوا يرفضون نهب فئة قليلة لثروات الامة واحتكارها لخيراتها ، ويعتقدون أن الثروة العامة وواردات بيت المال حق يتساوى فيه جميع المسلمين ويجب أن يصرف على الصالح العام ، لاستطعنا أن ندرك أن الثورة التي قامت على عثمان لم تكن ثورة لا مبرر لها ، وان ما يسميه المؤرخون عادة باسم الفتنة الاولى كان عبارة عن تحرك جماهيري شاركت فيه جماهير قدمت من مختلف الامصار المفتوحة ، كالبصرة والكوفة ومصر . وقد انتهت هـذه الثورة بمقتل الخليفة عثمان . وكان مقتله بداية صفحة جديدة لعب فيهـا السيف دور الفيصل في حل المنازعات ، وولدت الحزبية السياسية وتداخلت أمور الدين بأمور الدنيا .

* * *

وكانت خلافة علي بن أبي طالب هي مرحلة الانتقـال التي حاول فيهـا المتزمتون ورجال العقيدة أن يعيدوا للدولة نقاءها وللمجتمع المبادىء الخلقية والاجتماعية التي طرحها الرسول وطبقها في حكومته في يثرب ، في حين كانت الارستقراطية القرشية القديمة وعلى رأسها معاوية سليل الاسرة الاموية ومن والاه يحاولون من طرف آخر أن ينهوها لصالحم حتى يعود اليهم ما انقطع من سيادتم وما تأخر من منافع ومصالح .

* * *

وهكذا وصل البيت الاموي الى الحكم ودخلت قضية الصراع الطبقي فترة جديدة انقسم فيها المجتمع الى قسمين متمايزين : عرب وغير عرب . عرب سادوا بحق الفتح وبأس السلطان ، وغير عرب غدوا مواطنين من الدرجة الثانية ، عليهم الكثير ولهم القليل . ان أهم مظهر من مظاهر التفاوت الطبقي بين العرب وغير العرب في العصر الاموي هو اضطرار كل مسلم غير عربي أن ينتمي بالولاء لقبيلة عربية . وهكذا انقسم المجتمع العربي المسلم الى طبقتين تتمايزان بوضوح : طبقة العرب وطبقة الموالي .

واذا تركنا قضية الموالي جانبا لنستأنف الحديث عنها بعد قليل ، وبحثنا امر نشأة حركة الخوارج لوجدنا أن قيام الخوارج مرتبط الى حد كبير بالتناقضات التي كانت تقوم داخل المجتمع العربي ، وبالحال المتردية التي وصلت اليها جماهير القبائل المحاربة في ظل نظام أخذت فيه قلة من المستغلين تسيطر على خيرات المجتمع وثرواته ، ويرى البعض في هذه الحركة استمرارا للثورة التي قامت على عثمان ولم تنته بمقتله . ولنا في المبادىء الديمقراطية التي طرحتها هذه الفئة الثائرة خير دليل على النجاح الذي لاقته عند بعض رجال القبائل العربية ، وما اجتذبته فيما بعد من انصار بين قبائل البربر في شمال افريقية .

ان انتقال القبائل من الجزيرة الى الاطراف والامصار المفتوحة ، وما آلت اليه حال الدولة حين بدأ الاستغلال والاثراء غير المشروع يتسربان الى رجالاتها والمتسلطين على شؤونها جعلت هذه القبائل تشعر أنها حرمت من ثمار الفتوح التي هي من صنع يديها ، فلم توزع عليها الاراضي المفتوحة ، ولم تحصل على نصيبها الحقيقي من الغنائم والاموال المنقولة . ورات أن قريش عادت لتتربع مكان الصدارة ولتتسلم السلطة ، وأن دورها ثانوي ، ولا يتناسب مع ما كان لها من فضل حقيقي في الفتوح . فارتفعت الاصوات الفردية ــ كصوت أبي ذر ــ والجماعية ، وقامت الثورة التي امتزجت فيها القبلية بنوع من الاقليمية الجديدة، التي نشأت بنتيجة انتقال هذه القبائل الى الامصار وارتباط مصالحها بمصالح هذه الامصار .

* * *

وقد زاد في سوء الوضع انقسام قريش على نفسها وقيام الحرب بين زعيمين من زعمائها : علي ومعاوية ، وحين انتهت الحرب ووصل البيت الاموي الى الحكم كان أول وأهم النتائج التي ترتبت على هذا الحادث انتقال مركز

الثقل السياسي والاقتصادي للدولة من الحجاز الى الامصار ، وغدت المنافسة بين الشام والعراق الشغل الشاغل للدولة . وزاد عدد الاحزاب السياسية وولد حزب الشيعة الذي كان يؤمن بأحقية علي في الخلافة ، وما لبث هذا الحزب ان استقطب عناصر عديدة بين الناقمين من غير العرب الذين لم يكن ممكنا أن ينضموا الى صفوف الخوارج .

وهكذا غدت المعارضة معارضتين : معارضة مبنية على أساس اجتماعي واقتصادي ، ومعارضة سياسية مبنية على اسس دينية يمثلها آل البيت ومن انضم الى صفهم .

* * *

ان التناقضات التي عاشها المجتمع الاموي تنبع من أسس عديدة كانت وليدة الظروف التي أوصلت الامويين الى الحكم .

فالامويون سادة عرب تمتد جذور سيادتهم الى ما قبل الاسلام ، وقد انسلوا الى النظام الجديد واستطاعوا بالسياسة واللين تارة ، وبالسيف والقوة تارة أخرى أن يعودوا لتربع مكان الصدارة في الدولة العربية الكبيرة .

وهم ممثلو الارستقراطية القرشية القديمة وسادة تجارة مكة واصحاب رؤوس الاموال فيها،ولا يمكن ان يكون في دولتهم مكان لنظرية المساواة التي طرحها الاسلام في دولته الاولى في المدنية .

وهم بعد كل هذا بمن والاهم من القبائل وانضم الى صفوفهم من الرجال يمثلون أرستقراطية عسكرية سادت بقوة السيف فاعتبرت أن خيرات المجتمع من حقها بقطع النظر عن الدور الذي تلعبه في الازدهار الاقتصادي لهذا المجتمع أو ما تقدمه له على شكل انتاج أو عمل . ومع مرور الزمن غدت المدن التي سكنها العرب اول الامر كقبائل محاربة ، مراكز تجمعات حضرية ، وزالت عنها الصفة العسكرية ونشطت فيها الفعاليات المدنية . وقد تمثل هذا التحول في النواحي الاجتماعية والاقتصادية كما تمثل في النواحي الفكرية . وغدت المدن بسكانها المختلفين واحوالهم المادية المتباينة مجتمعات طبقية متمايزة تفصل بين افرادها حواجز ومستويات مادية واجتماعية متفاوتة .

ولم يكن الحال في الريف حيث استمرت سيادة الدهاقين ، وحيث قام نظام الاراضي الخراجية بأحسن منه في المدن ، وكانت الضرائب من الكثرة

والقسوة بحيث هجر الفلاحون الارض اكثر من مرة وانتقلوا للعمل في المدن مما اضطر الدولة لاجبارهم على العودة الى الريف بوشم أسماء قراهم على أيديهم ، كما حصل زمن الحجاج واعادتهم اليها بالقوة وقد ادى نظام الخراج وطرق استغلال الارض وحرمان الفلاح من الجزء الاكبر من خيراتها الى نقص ظاهر في الانتاج الزراعي مما أدى الى انتشار المجاعات ولا سيما بين الطبقات الشعبية في المدن ، والى تكاثر الاوبئة ، الامر الذي كثيرا ما أدى الى موت الناس جملة وبأعداد غير قليلة .

* * *

واذا اضفنا الى الحال المادية البائسة التي عانى منها جمهور الموالي ، الوضع الاجتماعي المتردي الذي كانوا فيه ، والذي لا اراني بحاجة لضرب الامثلة عليه ، ويكفي أن أقول انه حتى في ميدان الدين كان عليهم ان يصلوا في مساجدهم الخاصة التي لا يدخلها عربي ، واذا تصادف أن صلى مولى مع عربي مسلم فلا يستطيع أن يؤمه في صلاته مهما علت منزلته الدينية أو العلمية ، أقول إنه في هذا الحال المادي والاجتماعي المتردي للموالي يجب ان نبحث عن أسباب انضمامهم لكل ثورة كانت تقوم على البيت الاموي . ولست هنا في صدد تفصيل هذه الثورات فهي عديدة وكثيرة ، ويكفي أن نذكر انه ما قام الشيعة بثورة ضد بني أمية الا وكان الموالي من جندها المخلصين . وطبيعي الا يستطيع الموالي الانضمام الى الثورات الخارجية لان الخوارج عرب قبليون ولم يقبلوا بين صفوفهم من لم تكن له هذه الصفة . ولعل أهم الثورات التي انضموا اليها وكانت القاضية على البيت الاموي هي الدعوة العباسية التي لعب الموالي فيها دورا قياديا لا يخفى على انسان .

* * *

واذا كان على المؤرخ أن يرسم صورة أمينة لما حدث فان القارىء قد يتوهم بأن الصورة التي رسمت للنظام الضرائبي والاقتصادي في عصر بني امية هي صورة قاتمة سوداء ليس فيها أي جانب حسن . وهذا خطأ لا أريد لنفسي الوقوع فيه .

لقد كانت حركة الفتح العربي عاملا هاما في تدمير نظام الاقطاع القديم في البلاد المفتوحة ، وذلك ان مساحات كبيرة من الارض في العراق وسورية ومصر كانت اقطاعات للاسر الحاكمة والنبلاء ورجال الدولة الكبار ، أو أراض

تتبع المعابد والكنائس . وكان عدد كبير من الفلاحين يرتبط بهذه الأرض بصفة أقنان وفي حال عبودية أو شبه عبودية .

وحين فتح العرب هذه البلاد وصارت هذه الاراضي في حوزتهم اعتبروها ملكا لبيت مال المسلمين يصرف الخليفة شؤونها بما يعود بالخير على جماعة الامة ، ويعطيها بالمزارعة للفلاحين الذين كانوا عليها أو يتركهم فيها مقابل خراج يدفعونه لخزانة الدولة ، وقد ادى هذا النظام الى ظهور ملكيات خاصة صغيرة ، لاسيما بين من أسلم من هؤلاء الفلاحين ، فغدوا من الموالي الملاكين لان من يسلم يعفى من الخراج ولا يدفع الا العشر .

على أن عملية تمليك اراضي الخراج للمزارعين كانت في أغلب الاحيان عملية غير مشروعة ، وظلت مشكلة ملكية الارض مشكلة قائمة بالنسبة لاغلب الفلاحين من غير السادة العرب ، لدرجة انه أثناء ثورة ابن الاشعث التي اشترك فيها بعض الموالي أحرقت سجلات الاراضي الخراجية واستحوذ بعض الموالي على أراض هي في الاساس من ارض الخراج . ويقول الماوردي في هذا الصدد : « ... فلما حدثت فتنة ابن الاشعث ، أحرق الديوان وضاعت الحسابات ، فأخذ كل قوم ما يليهم » (الاحكام السلطانية ، ص ١٨٣) .

* * *

وبعد أن انتقل الحكم الى البيت العباسي كان لا بد من ملاحظة ان العناصر التي ساهمت في الثورة على الامويين والتي كان من المفروض ان يكون لها نصيب في غنائم الحكم ، لم تحصل كلها على هذه الغنائم . فالشيعة مثلا ، الذين جرت الدعوة باسمهم (الرضا من آل محمد) كانوا أول من أبعد عن دفة الحكم وأخذوا يعيشون فترة جديدة من الاضطهاد والثورات . أما الموالي فقد طرأ تحسن ظاهر على حال قياداتهم ، وغدا بعض هؤلاء القادة شركاء حقيقيين في الحكم والادارة . وانقلب ميزان القوى في المجتمع العباسي وانعكست فيه الصورة الاجتماعية عما كانت عليه أيام الامويين وغدا الناس كما كان يقول الفضل بن يحي البرمكي ينقسمون الى طبقات أربع :

١ ــ ملوك قدمهم الاستحقاق .
٢ ــ وزراء فضلهم الفطنة والراي .
٣ ــ علية أنهضهم اليسار .
٤ ــ أوساط الحقهم بهم التأدب .

٥ ــ والناس بعدهم زبد وجفاء وسيل غثاء ... هم احدهم طعامه ونومه (عن ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان) .

فلم يعد الناس عرباً وغير عرب ، ولم يعد المقياس الاجتماعي او الانتماء الطبقي مرتبط بعرق دون عرق ، بل غدا النبل ، نبل الثوب Nob. de Robe ونبل الثروة بقطع النظر عن الاصل والدم والعرق .

ان هذه النظرة التي تخالف نظرة المساواة التي طرحت في دولة الاسلام الاولى في المدينة ، ونظرة السيادة القبلية التي تعود بجذورها الى عصر الجاهلية والتي اخذ بها الامويون في دولتهم ، تجعل المجتمع مجتمعاً راسمالياً يتحدد فيه مكان المرء بنوع المنصب الذي يشغله او بمقدار الثروة التي يملك ولا يجد الفقير فيه مكاناً فهو زبد جفاء وسيل غثاء .

* * *

وظلت الزراعة في العصر العباسي عمادا اساسيا من أعمدة الاقتصاد ، وكان العراق يشكل العمود الفقري في الانتاج الزراعي ويقدم ما يعادل ٣٠٪ من دخل خزينة الدولة . وكانت الزراعة تعتمد على الري ، وكانت اساليب الري ابتدائية وكثيرا ما عانى الفلاح من سوء هذه الاساليب ومن فقره في الادوات الزراعية . ولم تكن الدولة لتهتم كثيرا بتحسين هذه الاساليب والادوات لان نظام استخدام العبيد في الميدان الزراعي ، رغم انه اخذ يزول في كثير من الاماكن ، ظل معمولا به في الاراضي التي تحتاج الى جهد شاق كالمستنقعات والسباخ والاراضي البور وغير ذلك .

ويمكننا ان نعلل عدم اهتمام المزارع بتطوير اساليبه في الري أو أدواته الزراعية الى شعوره بأن كل تقدم في الانتاج ستعود فوائده على الملاك المتخم اصلا ، ولن يكون له هو منه أي نصيب .

وكانت معظم الاراضي ملكاً للدولة ، وكانت الدولة تفرض على الفلاحين الذين يستغلون هذه الاراضي ضرائب ضخمة كثيرا ما وصلت الى حد يفوق كل معقول . وقد الغى خلفاء الخليفة المنصور العرف القديم الذي كان يجيز للفلاح دفع ضريبته نقداً وعيناً ، وفرضوا على الفلاحين دفع ضرائب نقدية فقط . وكان النظام الضرائبي يزدادتعقيداً مع مرور الايام حتى ان كتباً كثيراً الفت في هذا العصر لتحديد انواع الضرائب وتباينها بتباين الاحوال الكثيرة والظروف المختلفة .

وكما كانت الزراعة من اعمدة الاقتصاد الاساسية ، فقد لعبت المهن المختلفة دورا بارزا في الحياة الاقتصادية للمجتمع ، وغدا الانتاج المهني بمختلف فروعه مورد رزق قطاع كبير من طبقات الشعب الذين سخرت جهودهم لانتاج مواد الرفاه لفئة السادة من جهة ، ولاغناء تجارة التصدير التي تدر الربح الوفير على قطاع آخر من قطاعات الفئة المستغلة . وكانت غالبية العاملين في هذه المهن تعيش حياة البؤس والفقر ، وتعتمد الى حد كبير على احتكارات تجار المواد الاولية ووسطاء البيع وتجار الجملة وغيرهم من المستغلين الذين يزخر بهم اي نظام راسمالي .

* * *

لقد ادى هذا التفاوت الطبقي الصارخ الى قيام ثورات كثيرة شاركت فيها جماهير المحرومين المستغلين من عرب وموالي ، وهذه الثورات من الكثرة والاتساع بحيث لا تتسع هذه العجالة لذكرها وسردها . واذا ذكرنا أن بعض المؤرخين المحدثين يعتبرون أن حركات العيارين والشطار لم تكن سوى مظهر من مظاهر الثورة الاجتماعية الاقتصادية التي سببها الظلم الطبقي الصارخ ، وان كثيرا من هؤلاء العيارين كانوا يسرقون وينهبون ليأخذوا من الاغنياء ويعطوا الفقراء ، لوجدنا أن هذه الثورات أكثر من أن تحصى او يتناولها عرض سريع كمثل هذا الذي نحن بصدده .

لذلك آثرت ، وقد شعرت بأني أطلت ، أن أقف وقفة سريعة عند حركة واحدة من هذه الحركات ، هي حركة الزنج محاولا ابراز جانب الصراع الطبقي فيها وما تضمنته من افكار اجتماعية واقتصادية كانت حصيلة حال من البؤس والاستغلال لا تحتمل السكوت . ولا بد لي من أن أنبه بأن هذه الحركات الشعبية قد قامت في سورية ومصر والعراق العربي والعجمي ومنطقة الخليج العربي وشمال افريقية وغيرها ، واخذت أشكالا مختلفة ، فقد كان منها العسكري ، والقبلي ، والعرقي ، والشعوبي ، والمذهبي ، والمرتبط اسماً ببعض الاشخاص ، ولكنها كلها ذات مضمون اجتماعي واقتصادي ، كما انها كانت كلها تعبيراً صارخاً عن الظلم الاجتماعي الذي أحاق بعامة الشعب ، ومحاولة لكسر الطوق الذي فرضه السادة على من هم دونهم من المحرومين .

ولم تخل هذه الثورات من مفكرين دينيين ودنيويين وضعوا لهذه الثورات فلسفاتها وأسسها العقائدية المبنية على أسس من الدين والفلسفة . ان النشاط الفكري والثقافي والديني الكبير الذي عاشه المجتمع العربي في العصر

العباسي بمختلف ادواره كان تعبيرا ثورياً عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي البائس لجماهير الشعب التي صنعت بعرقها ودمها ذلك الواقع الاقتصادي الرفيع والذي لم ينلها منه الا فتات لا يسد الرمق .

* * *

وبعد ، فلنتوقف قليلا عند ثورة الزنج ، هذه الثورة التي تمثل بحق مظهرا بارزا من مظاهر الصراع الطبقي في المجتمع العباسي ، ولنبدأ بأن نقرر بأن المجتمع العباسي ، كمجتمع اقطاعي ، احتفظ بنظام العبيد واعتمد عليهم كما أشرنا سابقا في الاعمال الزراعية الشاقة ، وكانت منطقة زنجبار (ومنهـا كلمة زنج) هي الممول الرئيسي للخلافة العباسية بالعبيد . وقد دخل بعض هؤلاء العبيد في خدمة الخلفاء والسادة ، كما انصرف بعضهم للعمل الزراعي حيث كان يشتريهم كبار الملاك ويستغلونهم في كسح السباخ وردم المستنقعات بشروط معاشية لايحتملها بشر . فقد كانوا يحشرون في مخيمات يبلغ عدد أفراد كل منها بين ٥٠٠ ــ ٥٠٠٠ شخص ، ويجبرون على العمل في ظروف بالغـة السوء . وكانوا يقيمون في أكواخ حقيرة صنعت من القصب أو أوراق النخيل ولا يتوفر لهم فيها أي شرط من شروط الحياة البشرية .

في ظل هذه الظروف المادية القاسية ، وفي ظروف العمل التي لاتطاق ، وبسبب من الوضع الاجتماعي المهين الذي أقسروا على العيش في ظلاله ، تفجرت ثورتهم سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستمرت اربعة عشر عاما عرضوا فيها الدولة ومؤسساتها الحاكمة والعسكرية الى أشد أنواع الاضطراب والجزع ، وغدوا شوكة في جنب الحكم تقض مضجعه وتحرمه لذيذ الرقاد .

وقد رأس ثورتهم شخص يدعى علي بن محمد تتضارب الروايات حول نشأته الاولى وأعماله . ويبدو انه قبل أن يتصل بالزنج وينظم حركتهم ، قـام ببعض النشاط في هجر والبحرين والحسا وترأس بعض ثورات القبائل البدوية الضاربة هناك . ومن ثم اتصل بالزنج وسار على رأس حركتهم ونظمها عقائدياً وعسكرياً حتى غدا عدد رجاله بعد سنة واحدة من قيامه ١٥٠٠٠ من العبيد يتجمعون في منطقـة البصرة . وكانت مبادؤه خليطاً مـن العقائـد الشيعية والخارجية على مذهب الازارقة المتشددين . ويبدو أن تشيعه مشكوك فيه ، وأن عقيدة الخوارج أوضح في فلسفته الفكرية . وقد استطاع خلال سنوات ثورته هذه أن يسيطر على الزنج سيطرة فكرية وعقائدية وأن ينتقل بحركته من نصر الى نصر وأن يكسر الجيوش المختلفة التي وجهتها الدولة ضده .

وقد أثار عمله الذعر بين سادة هؤلاء العبيد . ويقال إن وفدا من هؤلاء السادة جاءه وعرض عليه أن يدفع له عن كل عبد خمسة دنانير اذا سلمه اليهم ، فما كان منه الا ان أمر العبيد فبطحوا سادتهم ، وضرب كل عبد سيده خمسمائة سوط ، ثم أطلقهم بعدها .

وقد انتشرت جيوش صاحب الزنج هذا ، أو الدعي كما كان يدعى ، في العراق والبحرين وخوزستان ، ونهبت الاموال وقتلت الناس ، وظل الحال كذلك حتى سنة ٢٦٩ هـ حين استطاع الموفق ، اخو الخليفة المعتمد ، أن يقضي على الزنج وحركتهم .

ويبدو أن مقتل الزنج وثورتهم قد جاء من تنكرهم لمبادئهم ، فبعد فترة وجيزة من بدء الثورة ، وحين أخذت هذه الثورة تحرز الانتصارات وتستولى على البلاد والعباد ، تنكرت للمبادىء التي طرحتها وأخذت تستعمل أساليب السادة الذين وجهت الثورة ضدهم . أخذ الزنج يستعبدون الناس ، وهم العبيد الثائرون على العبودية ، وأخذوا يبيعون الحرائر ، وبعضهن هاشميات وقرشيات ، كاماء في أسواق النخاسة حتى أن المسعودي يذكر أن بعض الزنج غدا يملك ٢٠ أو ٣٠ حرة لخدمته وملذاته ، وكان يبيع ما يفيض عنه منهن بدرهمين أو ثلاثة للواحدة . هذا ، فضلا عن أن قادتهم غدوا من كبار ملاك الارض ، وأخذوا يبتاعون العبيد للعمل في اراضيهم ،وأساؤوامعاملة الفلاحين ، فانقلبت الحال وانقلب الميزان العسكري لغير صالحهم ، وتمكنت الدولة من القضاء عليهم .

ومهما يكن من أمر فقد كان من ابرز النتائج التي ترتبت على ثورة الزنج . انتهاء نظام العبودية في الدولة العباسية وذهابه الى غيرما رجعة في ميدان العمل الزراعي ، وان ظلت بعض بقاياه قائمة في ميدان الانتاج الحرفي ، ومع مرور الايام أخذت تجارة العبيد تتضاءل ، وغدا العبيد يشترون فقط للعمل كخدم في المنازل .

* * *

وبعد ، فهذه دراسة سريعة لبعض من ملامح الصراع الطبقي خلال مرحلة من مراحل التاريخ العربي ، لا أدعي انني أوفيتها حقها ، ولعلها بداية أرجو ان يتاح لي ان اكملها .

البَصْـــرَة

أوّلُ قاعدةٍ بحريّةٍ للتوسّعِ العثماني في الخليج العربي ١٥٤٦ ـ ١٨٦٩

د . مصطفى عبد القادر النجار
مدير مركز دراسات الخليج العربي ـ جامعة البصرة

شهد العراق في العهد العثماني صلات كبيرة ربطت ما بينه وبين أقطار الخليج العربي الاخرى ، وكانت هذه الصلات تتفاوت مدا وجزرا وتختلف من وقت لاخر . وقد اتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم(١) نحو التقدم في مياه الخليج العربي لضم أقطاره الواحدة تلو الاخرى الى امبراطوريتهم الشاسعة . وكانوا بهذا يصارعون الزحف الاوربي من جهة والامبراطورية الفارسية من جهة أخرى .

ويمكن ان نميز مرحلتين لمحاولات التوسع العثماني في الخليج العربي . الاولى كانت محاولات عامة لم يستطع العثمانيون تثبيت أقدامهم أو احداث أي تغيير يذكر في المنطقة (٢) . والثانية كانت محاولات موفقة استطاعوا أن ينفذوا خلالها الى عدد كبير من أقطار الخليج العربي ويدخلوا اليها تنظيماتهم ويجعلوها تحت الادارة المباشرة .

وقد كان الفصل الاول من تلك المحاولات بطيئاً وضعيفاً ذلك لان العثمانيين عجزوا عن تثبيت نفوذهم في البصرة نفسها وما حولها . فبقى آل عليان حكام المدينة ـ قرب القرنة ـ في حالة تمرد مستمر ، وقد فشل الاسطول العثماني سنة ١٥٥٤ من احتلال حصونهم . ولاقى العثمانيون فشلا مماثلا في الحويزة . وبقيت عشائر المنتفك مصدر ازعاج مستمر للولاة (٣) .

اما الحالة في البصرة نفسها فهي لا تختلف عما كان يجري حولها فمرة كانت تتعرض لغزو الفرس واخرى تنفصل عن بغداد على يد افراسياب والمماليك

والمنتفك . وكان مـن العسير على ولاة بغداد ان ينقذوها مـن متاعبها . وان الاسطول الذي انشأوه فيها كان ضعيفاً ومهملا ومفككا . لذا فانه لم يوفق في احراز اي نصر يذكر .

وفشلت جميع المحاولات التي بذلت للسيطرة على بعض أجزاء الخليج العربي . ذلك انها جوبهت بمقاومة اجنبية : برتغالية وهولندية وانكليزية من جهة ومقاومة فارسية على ضفة شط العرب اليسرى من جهة ثانية وبمقاومة العصبيات المحلية من جهة ثالثة(٣) . وكانت القوات البحرية العثمانية في كل هذا بعيدة عن مراكز تموينها في البحر المتوسط ـ قبل فتح قناة السويس ـ ومع هذا فان العثمانيين بذلوا مساعي كبيرة مـن أجل جعل البصـرة قاعدة لعملياتهم البحرية في الخليج العربي ضد البرتغاليين (٤) . واولى تلك المحاولات كانت سنة ١٥٥٢ اذ جعلها (بيري بك رئيس) نقطة تجمع لاسطوله(٥) بعد فشله في أخذ هرمز . وقد ابقى قسما مـن اسطوله في البصرة وعاد الـى السويس بالقسم الباقي(٦) .

وتكررت المحاولة سنة ١٥٥٤ اذ قاد حاكم القطيف (مراد بك رئيس) اسطول البصرة متوغلا في الخليج العربي . ولكنه عاد من حيث أنطلق بعد فترة قصيرة .

على أن ما أصاب الاسطول العثماني بعدئذ على يد (سيدي على رئيس) سنة ١٥٥٤ كان ضربة قوية وجهت الى الاسطول العثماني في البصرة جعلته لا يستطيع ان يفيق منها فترة طويلة . فقد بدأ قائد الاسطول مغامرته قاصدا القطيف ، وليتتبع خطوات الاسطول البرتغالي الذي فاجأه عندما اتجه جنوبا مجتازا هرمز . وكانت خسارة كبيرة لا تعوض للعثمانيين عندما اضطر (سيدي علي) الى بيع قطعات اسطوله التي نجا بها بعد ان قذفته الامواج الى الساحل الهندي (٧) .

وقد فشل العثمانيون في اخراج البرتغاليين من الخليج العربي ولكن عندما ضعف هؤلاء ـ عند انضمام بلادهم الى اسبانيا سنة ١٥٨٠ ـ كان العثمانيون بدورهم قد وهنوا وبرزت قوتان جديدتان هما هولندا وبريطانيا . ولم يلاحظ على العثمانيين أنهم قاموا باي نشاط يذكر في الخليج العربي باستثناء محاولتهم الفاشلة في احتلال البحرين سنة ١٥٥٩ (٨) .

وكانت حصيلة العثمانيين في هذا المرحلة ـ الاولى ـ هو احتلالهم ـ بمساعدة قبائل المنتفك ـ مقاطعة الاحساء . الا ان هذا الاحتلال لم يتم عن طريق البحر وانما حققه جيش من المشاة عن طريق البر وذلك سنة ١٥٩٢ بقيادة فتحي باشا ، واستطاع أن يقضى على ادارة سلالة أجود ويحول امارتهم الى التبعة العمثانية .

وعندما انفرد آل افراسياب بالسلطة في البصرة كانت الاحساء من مناطق نفوذ العثمانيين . وقد استمرت في تبعيتها الاسمية لهم . ويذكر لونكرك انهم « ما كانوا يجبون الضرائب من اهلها ولم يسندوا نفوذ الباشوات فيها بأية قوة مادية أو عسكرية » (٩) .

وحتى هذه التبعية الاسمية ما كانت تخلو من تأرجح . فقد حدث ان ايد والى الاحساء محمد باشا (١٠) ثوار البصرة ضد اميرها حسين افراسياب (١١) (١٦٤٧ ـ ١٦٦٧) . الامر الذي دفع افراسياب لاعداد الخطط لمعاقبة والى الاحساء . فاستمال اليه عشائرها وفي مقدمتها بني خالد (١٢) بزعامة براك بن عريعر الخالدي ، الذي كان يطمع في الحكم وقد نجح افراسياب بوساطة جيشه الذي ارسله سنة ١٦٦٤ بقيادة احد امرائه ـ سلمان ـ وبمساعدة بني خالد من الاستيلاء على الوضع . ولكن براك تنكر للحلف بعد النصر . وأخر جند البصرة واستقل بالاحساء . الا أنه اجبر على الفرار بعد ان وصل اليه جيش افراسياب بقيادة يحيى باشا .

والملاحظ ان حكم آل افراسياب في الخليج العربي لم يترك اي اثر يذكر وهو في حقيقته تحالف مع قوى القبائل في الاحساء اكثر منه حكما اداريا . وقد كان ممثل افراسياب خلاله خاضعا بشكل او آخر لما تفرضه عليه القيم القبلية وسلطات الشيوخ المحليين من تبعات . ورغم ذلك لم يدم حكم آل افراسياب طويلا في الاحساء . وقد حدث ان لجأ محمد باشا ـ الوالي السابق للاحساء ـ الى شريف مكة ومنه الى بغداد ، حث أخـذ من هناك يستنجد بالسلطان . فصدرت الاوامر الى الجيش العثماني بالقضاء على حكم آل افراسياب فتم ذلك سنة ١٦٦٧ (١٣) .

ولكن رغم عودة الحكم العثماني المباشر للبصرة الا أن الاحساء بقيت بمنأى عن آثاره . والذي حدث ان اسند منصب الولاية في البصرة الى عمر باشا والي

الاحساء ، فاضطر خليفته عيسى باشا ـ بعد ان عجز في تثبيت حكمه ـ الى براك زعيم بني خالد . فانتقل بذلك الحكم الى امرائها المحليين .

ويعد براك أول من اسس حكم بني خالد في الاحساء بعد طرد العثمانيين منها سنة ١٦٧٠ ، وبذلك وضع نهاية لاول احتلال قام به العثمانيون لتلك البلاد (١٤) .

ويبدو لنا أن الحكم المحلي لآل افراسياب في البصرة ساهم في مد فترة الحكم العثماني في الاحساء ـ مهما كانت سماته ـ مدة أطول ، في وقت لم يستطع فيه العثمانيون ان يحافظوا عليه ـ في الاقل ـ بعد عودة حكمهم المباشر الى البصرة . وهذا راجع في تقديرنا الى ان حكم آل افراسياب كان اكثر تفهما من العثمانيين لطبيعه الحياة في جهات الخليج العربي ، اضافة الى امتلاك آل افراسياب قوة محلية ـ لابأس بها ـ قريبة من تلك الممتلكات استطاعوا بوساطتها ان يهددوا الحركات المناوئة لهم .

وقد أمتد نفوذ بني خالد من الاحساء الى منطقة نفوذ العثمانيين في العراق (١٥) وكانت الكويت مقر حكمهم الصيفي . والملاحظ انهم استطاعوا المحافظة على علاقات طيبة ـ رغم انفرادهم بحكم الاحساء ـ بولاة البصرة وعدوا انفسهم حلفاء للعثمانيين .

والثابت ان أمراء الخليج العربي بشكل عام كانوا يكنون عطفا كبيرا للخليفة العثماني للرابطة الدينية والمذهبية التي تربط بينهم . كما ان لهم من المصالح الاقتصادية والسياسية ما يجعلهم على صلة وثيقة بالعراق . وربما حاولوا ان يستفيدوا من قوة العثمانيين النامية في الخليج العربي . ومن هنا جاء اندفاع شيوخ الكويت لان يطلبوا الولاء سنة ١٧١٨ تقريبا من الوالي العثماني في البصرة (١٦) وبذلك قررت الدولة العثمانية سيادة اسمية على الكويت ـ لم تكن لها اهمية تذكر ـ دون اي تدخل من جانبها في الشؤون المحلية . ويذكر لوريمر ان الكويت كان ينظر لها في ذلك الوقت انها تابعة للبصرة (١٧) وقد كان رخاؤها يسير في اتجاه معاكس مع البصرة . حيث انها افادت فائدة كبرى من احتلال الفرس للبصرة بعد ان تحولت تجارة الهند اليها في الفترة ما بين سنة ١٦٧٥ ـ سنة ١٧٧٩ (١٨) . كما ان الوكالة البريطانية في البصرة قد تحولت اليها مؤقتا للمرة الثانية في الفترة ما بين سنة ١٧٩٣ ـ ١٧٩٥ (١٩) .

وتحدثنا وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية عن قيام اول ازمة سياسية بين العراق والكويت حينما قرر متسلم البصرة مصطفى أغا ان يحكم البصرة حكما مستقلا عن بغداد . وقد ايده في فكرته الشيخ ثويني بن عبد الله امير المنتفك وانضم اليه . الا ان قوات باشا بغداد اجبرت الانفصاليين للالتجاء الى الكويت (٢٠) . وعندئـذ دارت مراسلات مطولة بـين بغداد والكويت لتسليم اللاجئين . لعب فيها صموئيل مانيستي المقيم البريطاني في البصرة دورا كبيرا في تهدئة الامور حيث كتب الى شيخ الكويت عبد الله الصباح (١٧٧٦–١٨١٤)(٢١) رسالة يشرح فيهـا الموقف اثر مقابلة اجراها مع سليمان باشا جـاء فيهـا (لقد قمت مؤخرا بزيارة باشا بغداد في معسكره ... فقال ان علاقة قديمة ربطت وما تزال تربط أهل الكويت بأهل البصرة . الا انه عبر عن دهشة وغضب عظيمين تجاه سلوككم في منح الحماية لاناس كانوا ثائرين عليه وفروا ليتجنبوا العقاب الذي يحتمه ذنبهم . وحذر مالم تسلموهم اليه أو تأمروهم بمغادرة بلدة الكويت فانه سيعتبركم عدوا له . ويرسل اليكم حملة عسكرية ـ مدعمة بقوات بحرية طلبها من بومباي ـ يقودها بنفسه الى القرين (٢٢) ... » (٢٣) وقد اجاب شيخ الكويت المقيم البريطاني على رسالته بقوله « .. ان بلدة القرين ملك للباشا وان سكانها خدم له . ولكنكم تعرفون حق المعرفة ان عادتنا تلزمنا حماية اي انسان يستجير بنا ومن العار التخلي عنه او تسليمه الى اعدائه.. واني اعتمد على صداقتكم في ايضاح الامر على حقيقته للباشا ... » (٢٤) . واستطاع المقيم ان يقنع الباشا بالعدول عن ارسال الحملة التي كان يزمع القيام بها ولا سيما ان من كان يطلبهم قد تركوا الكويت الى نجد بنصيحة من شيخ الكويت .

اما الاحساء فكان ولاؤها شبيها بموقف الكويت ونلاحظ ان امرائها من بني خالد سارعوا الى تقديم معونتهم الى متسلم البصرة سليمان اغا سنة ١٧٧٥ للدفاع عن البصرة عندما تعرضت لحصارها الكبير على يد الفرس .

كما ان احمد بن سعيد امام عمان (١٧٤٤ – ١٧٨٣) ارسل اسطوله للبصرة ليساهم في الدفاع عن ذلك الثغر (٢٥) . وتمكن من السيطرة على شط العرب طوال الصيف فأمن وصول ما تحتاجه المدينة . وقد كافأته السلطات العثمانية مكافأة سنوية رصدت له من خزينة البصرة لتعاونه الصادق مع العثمانيين(٢٦)

ومن الجدير بالذكر ان معظم تجارة عمان في ذلك الوقت كانت مع العراق (واسطول اللبن) الذي يرسله الامام كل سنة كان من الاحداث التجارية المهمة في البصرة (٢٧) .

وبصورة عامة فقد حافظت منطقة الخليج العربي على ولائها للعثمانيين وكانت انظارها متجهة دائما اليهم . الا ان العثمانيين لم يقدموا لها شيئا . ولم يحاولوا أن يملأوا الفراغ الذي كانت تشكو منه . الامر الذي فسح المجال للوهابيين ـ في اواخر القرن الثامن عشر ـ في ان يحلوا في تلك الربوع . فاجتاحت جيوشهم الاحساء فاستولوا علها واخرجوا بني خالد منها .

وقد التجأ بنو خالد الى البصرة ليطالبوا مماليك العراق بنجدتهم . فكان رد الفعل العثماني خروج حملتين كبيرتين ضد الوهابيين الاولى سنة ١٧٩٧ ابحر فيها ثويني (٢٨) ـ شيخ المنتفك السابق ـ الى الاحساء . وكان قد توقف في الجهرة يجمع مستلزمات الحرب . ويذكر لونكرك ان اسطوله كان يشتمل على « ناس من عرب عقيل بغداد وما يزيد على كتيبة واحدة من الجنود الاجيرة اذ ذاك ، ثم تقاطرت الارتال من الكويت والبحرين والزبير » (٢٩) اما بروكلمان فيذكر أنه كان يتألف من سبعة آلاف جندي تركي وضعف هذا العدد من العرب (٣٠) . ولكن كل هذه الاستعدادات فشلت بسبب اغتيال قائد الحملة قبل الاشتباك بأية معركة . مما جعل الحملة تتقهقر للوراء وتعود الى البصرة امام ملاحقة القوات السعودية لها التي غنمت من الحملة العراقية الشيء الكثير (٣١) .

وقد ابحرت في اواخر السنة التالية حملة أخرى بقيادة متسلم البصرة الكخيا (٣٢) علي باشا . وكانت تشتمل « على خمسة آلاف انكشاري وعدد من الجنود الاجيرة غير النظامية ومدفعية وافرة ، ولكن غير مؤثرة . وقطعات من قبائل عقيل والعبيد وشمر وغيرهم . ورافق الكهية (الكخيا) محمد بك الشاوي مشاورا في شؤون البادية . فوصلت هذه الجيوش الى البصرة في اليوم الثاني من شهر كانون الاول سنة ١٧٩٨ ، وهناك أضيف الى الجيش قطعات من قبائل الضفير والمنتفك وبني خالد وبذا بلغ عدد القوات العشائرية ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل . » (٣٣) . وسارت الحملة نحو الجهرة (٣٤) وقد سلكت طريقين بريا وبحريا في تقدمها نحو الاحساء . وقدم لها شيخ الكويت عبد الله الصباح معونات بحرية ساعدتها كثيرا . ورغم ان الحملة حققت بعض النجاح الا انها فشلت في حصارها لحامية الاحساء في المبرز والهفوف (٣٥) . وقد كلفها الحصار ثمنا غاليا زهقت فيه أرواح كثيرة نتيجة الاوبئة وصعوبة المناخ وصمود المحاصرين الامر الذي دعا الكخيا الى ان يتخذ قرارا بالعودة دون ان يحرز أي نصر (٣٦) . وفي سبيل عدم استفادة الوهابيين في مؤونته وعتاده قام باتلافها (٣٧) .

وفي هذه الاثناء وصلت قوات الامير سعود بن عبد العزيز . ولما كانت قوات الطرفين في وضع لا تحسد عليه ، قبل الكخيا المفاوضة مع القوات القادمة .

وقد دارت المفاوضات حول تبعية الاحساء ، ووجوب استرداد المدافع التي استولى عليها الوهابيون في اعقاب حملة ثويني . والمطالبة ببعض التعويضات عما لحق الحملة من اضرار وعدم التعرض للحجاج العراقيين في اثناء مرورهم بالاراضي السعودية .

اما مدى استجابة الوهابيين لمطالب الكخيا فقد حددها جواب الامير سعود في رسالته الى المفاوض العثماني جاء فيها .

« اما الاحساء فهي قرية خارجة عن حكم الروم (العثمانيين) ولا تساوي التعب ، وما فيها (ليس فيها) شيء يوجب الشقاق . واما الاطواب (المدافع) فهي عند والدي في الدرعية . اذا صدرت (توجهت) اليه اعرض الحال بين يديه . والوزير سليمان باشا ايضا يكتب له . فان صحت المصالحة وارتفع الشقاق من الطرفين فهي لكم وانا الكفيل بها ان اجيبها (أوصلها) الى البصرة . واما مصاريفكم فاني لا املك من الامر شيئا والشور (الامر) في يد والدي . والذي يقرره يصل اليكم . واما الامنية (الامان) فهي التي لا زلنا نقاتل الناس عليها حتى جعلنا الارض كلها لله وجميع المسلمين مشتركين فيها » (٣٨) ولم ير متسلم البصرة بدا من الاقتناع بما ورد بالرسالة ورجع الى البصرة مرغما على الصلح (٣٩) ومعه ممثل ابن سعود ليوقع وثيقة الصلح في بغداد . حيث تم عقد هدنة امدها ست سنوات (٤٠) . ويذكر ديكسون ان الامير عبد العزيز وجد « من الحكمة ان يصالح بغداد فارسل هدايا ثمينة وقطيعاً من الخيول الاصيلة كعربون لاسترضاء الوالي سليمان باشا » (٤١) .

ولكن قوة الوهابيين المتزايدة لم يقتصر تهديدها ـ في الفترة التالية ـ على مناطق نفوذ العثمانيين في الخليج العربي فحسب وانما تعدتها الى العراق نفسه . فأقضت بذلك مضاجع حكام بغداد الذين صاروا لا يعرفون سبيلا لدرء خطر الوهابيين . اذ استطاع هؤلاء ان ينقلوا ساحات القتال الى الاراضي العراقية . وشنوا هجمات عنيفة على المدن العراقية . وكان ما اصاب البصرة منها هجمات ثلاث ؛ الاولى كانت سنة ١٨٠٣ عندما حاصرت جيوش الامير سعود الزبير (٤٢) وهدمت قبابه ومساجده واحدثت في أهله القتل والنهب ،

وازالت جميع القبور خارج سور المدينة كمشهد طلحة والحسن البصري (٤٣) واتجهت بعدئذ الى مدينة البصرة فضربت عليهـا حصارا استمر اثنى عشر يوما (٤٤) . والثانية سنة ١٨٠٥ تكبدت المدينة من جرائها خسائر كبيرة في الارواح والاموال . أما الثالثة فكانت سنة ١٨٠٨ ولم تقـل فيهـا الخسائر عن سابقتيها (٤٥) . وكانت البصرة في كل هذا عاجزة عن درء تلك الاخطار .

وقد اشتدت في تلك الفترة مطالبة سلطان مسقط لولاة بغداد بأن يتدخلوا في مقاومة الزحف الوهابي في منطقة الخليج العربي . وهدد السلطان بالانضمام للوهابيين اذا لم يتحرك « الباشا » لتلافي الامر . ولكن لم يثمر طلبه ، وكل ما وجده مكافأة لا حلفا (٤٦) .

واذا تأملنا اسباب عدم تحمس مماليك العراق في هذا الوقت للتحالف مع عمان وجدناه يرجع الى عجزهم الظاهر عن الدفاع الخارجي . وكانت قـد اذهلتهم اعتداءات الوهابيين وصـاروا في خوف مستمر من هجماتهم وهم في عقر دارهم . زد على ذلك انهم لا يملكون من القوة البحرية ما يؤهلهم لمقاومة الزحف الوهابي . فمما يذكره لنا الرحالة البريطاني جيمس بكنغهام ــ الذي زار العراق سنة ١٨١٦ ــ ان الاسطول العثماني في عهد سليمان باشا لم تكن تتعدى سفنه المسلحة تسليحا جيدا العشرين سفينة . وقد تقلصت بعده الى ست او خمس سفن ، لا توجد واحدة منها صالحة للملاحة في البحار . ويستطرد قائلا . « لم تجر اية محاولة لارسالها الى الخليج العربي فهي تجوب شط العرب بزعم تطهيره من المهربين . وبينما تقف واحدة منها عند مدخل نهر البصرة لحراسة دائرة الكمرك » (٤٧) .

هذا في وقت كانت سفن مسقط نفسها تساعد باشا بغـداد على حفظ مصالحه في الخليج العربي . وقد كوفيء على ذلك بأن فسح المجال له لارسـال ثلاث سفن الى البصرة سنويا تفرغ حمولتها من السلع معفاة من الرسوم (٤٨) . كما ان المماليك سبق ان جربوا حظهم في حملتين كبيرتين على الاحساء لم تأت اية منها بنتيجة . فلم يروا ــ بعد كل هذا ــ مبررا للوقوع في مزيد من الاخفاق وهم الذين لم يستطيعوا ان يدرأوا خطر الوهابيين عن المدن العراقية نفسها(٤٩) .

ومن هنا يتضح لنا ان النفوذ العثماني في الخليج العربي لم يستطع ــ في هذه الفترة ــ ان يحافظ على وجوده . فقد انتابته هزات متوالية كادت تطبق

عليه . وكانت السيادة في الاقطار التي امتد اليها المد العثماني اسمية . وقد لاحظنا أن البصرة اصبحت عاجزة عن أن تقوم بمهمتها الحقيقية . لهذا فقد تركزت الامور بيد والي بغداد . وقد لعبت العصبيات القبلية دوراً في حياتها . ولم تقتصر على القبائل التي تحيطها وانما تعدتها الى سلطنة عمان التي بدأت تتخذ مواقف مناوئة للعثمانيين . فلما تعرضت البصرة لحركات المنتفك سنة ١٨٢٦ بسبب عزل داود باشا للشيخ حمود الثامر من زعامة المنتفك واسنادها الى عجمي السعدون ، كان سلطان عمان من المؤيدين لحمود الثامر شيخ المنتفك المعزول . وعندما طلبت المنتفك النجدة لبت عمان النداء . وكان باشا بغداد قد رفض طلب السلطان بالمتأخر من الجزية السنوية التي تدفعها الحكومة العثمانية له ــ مقدارها ١٠١ الف روبية ــ فحاصرت قطعات الاسطول العماني البصرة ولم تتراجع الا بعد ان استطاع متسلم البصرة ان يقنع قائدها بالانسحاب من المعركة وقد استجاب لاهم مطالبه (٥٠) . ولقد أصبحت عمان خطرا يهدد البصرة دائما وتعاونت مع الانكليز ضد داود باشا . الا ان هـذه القوة أخذت تتلاشى ــ في الفترة التالية ــ فتفككت قوتها وضعف بالتالي أمر تهديدها للبصرة .

أما الكويت وهي أقرب الامارات الى ولاية البصرة فلم يستطع العثمانيون ان يثبتوا السيادة عليها . وظلت تتأرجح بين الولاء والانفصال لكنها في كل هذا كانت على صلات طيبة مع الولاة العثمانيين . فقدمت لهم المساعدات ــ في مناسبات عديدة ــ عندما اعوزتهم الظروف اليها . وكان أبرز تلك المساعدات ما قدمه الشيخ جابـر الاول ــ الحاكم الثالث ــ (١٨١٤ ــ ١٨٥٩) لمتسلم البصرة عزيز آغا في حربه مع كعب سنة ١٨٢٧ ، حيث جعل اسطوله البحري في خدمة المتسلم ، مما غير مجرى الحرب وحقق نصرا حاسما (٥١) .

ولم يحاول مماليك العراق الاستفادة من موقف شيوخ آل الصباح منهم . وظلوا لا يقدرون الظروف الذي تمر بها المنطقة واتجاه الانكليز للنفاذ اليها . ورغم ذلك فقد جاءت المبادرة من آل الصباح عندما احسوا بأن ضغطا يقع عليهم من الانكليز للتحكم في شؤون امارتهم الناشئة ، من مظاهره طلب الانكليز منهم رفع العلم البريطاني ، وقطع الصلات مع العثمانيين ، والحصول على بعض الامتيازات الخاصة . فقد لجأ جابر الصباح سنة ١٨٢٩ الى الاعتراف بالسيادة العثمانية ورفع العلم العثماني على قصره . وصار يدفع جزية سنوية تقدر بأربعين « كيسا من الرز » وأربعمائة « سباطة من التمر » يتلقى مقابلها خلعة سنوية تكريما له ، ويجد تسهيلات كاملة لتجارته في شط العرب (٥٢) .

وقد استمرت صلة الشيخ جابر وثيقة بالولاة العثمانيين ــ حتى بعد انحسار حكم المماليك عن العراق ــ فساهم معهم سنة ١٨٣٦ بالقضاء على خروج أهل الزبير عن السلطة العثمانية . كما اشترك سنة ١٨٣٧ مع على رضا باشا اللاز في احتلاله للمحمرة واستجاب سنة ١٨٤٥ لطلب الدولة العثمانية في حماية ميناء البصرة . وكانت حصيلة الشيخ جابر من تلك المساعدات ان كافأته الدولة العثمانية بفرمان وعلم أخضر وبمائة وخمسين كارة من التمر سنويا ظلت تجري على خلفائه من بعده (٥٣) حتى سنة ١٨٩٦ حين توترت العلاقة بين الدولة العثمانية والامارة في أول عهد الشيخ مبارك الصباح .

هذا اضافة الى ما جناه الشيخ جابر من اقطاعيات في البصرة منحت له من بعض الملاك الذين ادى لهم جميلا . فقد اهدى له راشد السعدون بساتين نخيل الفاو، اعترافا منه بمساعدته له عندما قصد الكويت فوجد اكراما واحتراما(٥٤). كما اهداه سليمان الزهير نخيل الصوفية مكافأة له عندما استجار به فرارا من آل الثاقب الذين ورثوا كرسي الحكم في الزبير (٥٥) . وبقيت هذه الممتلكات له ولابنائه من بعده .

ويبدو ان الصلات بين الشيخ جابر والدولة العثمانية قد تعدت مراحل الشك والريبة التي كانت في عهد سلفيه . وبلغت من الثقة والاطمئنان ما جعله يعلن سنة ١٨٤٧ انه ينوي في ظروف خاصة ان « يضع نفسه تحت حماية الباب العالي » .

وفي عهد خليفته الشيخ صباح (١٨٥٩ ــ ١٨٦٦) كانت الكويت متجهة بخطى سريعة نحو الدولة العثمانية وقد أكد الشيخ للمقيم السياسي البريطاني ان حكام الكويت كانوا دائما يدفعون الجزية للدولة العثمانية (٥٦) .

ولكن رغم هذا فاننا نلاحظ ان الكويت توقفت عن رفع العلم العثماني على سفنها الا ان هذا الاجراء لم يكن بدافع عدم الولاء للعثمانيين . وانما هو اجراء اقتضته ظروف الكويت الاقتصادية بعد ان وجدت السفن الكويتية نفسها تلقي معاملة غير طيبة في بومباي الامر الذي دفعها الى ان تغير اعلامها باعلام اجنبية .

ويبدو ان الازدهار الاقتصادي النسبي الذي جنته الكويت من تجارتها قد جعلها راغبة في ان تؤكد شخصيتها وتحاول ان لا تجعل من علاقتها الوطيدة مع الدولة العثمانية سببا يدعو الى اعاقة نموها الاقتصادي . فعندما عزم

نامق باشا والي بغداد سنة ١٨٦٦ ان يحول سيطرة الباب العالي على الكويت الى سيطرة فعلية ، وقد عقد العزم على اسناد منصب القائمقامية الى حاكمها ، واتخذ الترتيبات اللازمة لانشاء كمرك فيها تمهيدا لتطبيق نظم الادارة العثمانية، لقيت هذه السياسية معارضة من جانب آل الصباح . الامر الذي استدعى من نامق باشا طلب سفينتين مسلحتين من القسطنطينية للوقوف بوجه هذه المعارضة . وقد كانت الدوافع الخفية لموقف آل الصباح هذا ــ بلا شك ــ هو خشيتهم من ان تصاب تجارتهم بالوهن لحساب تجارة البصرة لو قبلوا تلك الاجراءات اضافة الى تخوفهم من ان الادارة العثمانية المباشرة سوف تفقدهم حرية الحركة التي اعتادوها . هذا الى جانب تشجيع البريطانيين لشيخ الكويت في وجوب عدم توثيق العلاقة مع العثمانيين . وقد أفصح عن ذلك المقيم البريطاني كامبل الذي اعتبر اجراءات نامق باشا من شأنها ان تجعل حرية الكويت المكتسبة منذ زمن بعيد اثرا من آثار الماضي (٥٧) وهكذا بقيت الكويت ميناء حرا للتجارة ترفع سفنها الاعلام الاجنبية . وحافظت على كيانها .

والثابت ان العثمانيين صاروا يوجهون اهتماما ملحوظا الى الخليج العربي بعد انسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة العرب سنة ١٨٤٠ في محاولة لتلافي مافاتهم في الفترة السابقة . وحظيت الاحساء ــ التي هزموا فيها من قبل ــ بقسط كبير من ذلك الاهتمام ، وقد اسند السلطان حكمها الى علي رضا باشا اضافة الى ولايته على العراق ولكن الوالي الجديد لم يعمل على ادخال نظم الادارة العثمانية في هذه البلاد . وانما اتبع الاسلوب نفسه الذي يعامل به مشيخات الكويت والزبير وسوق الشيوخ . وكان في هذا خطر كبير على مستقبل هذه الجهات ارتكبه علي رضا وعدد كبير من ولاة العراق العثمانيين اذ تركوا هذه الجهات المطلة على الخليج العربي عرضة للضغوط البريطانية المختلفة الاشكال (٥٨) .

وعليه فان نفوذ العثمانيين في هذه الفترة لم يستطع ان ينفذ الى القسم الجنوبي من الخليج العربي مما أفسح المجال لبريطانيا لان تنمى قوتها فيه . وصارت تقف بوجه كل المحاولات العثمانية التي يشم منها رائحة التقدم نحو الجنوب . وبدا ذلك واضحا عندما سعى العثمانيون الى ادخال البحرين في دائرة نفوذهم . وقد ارسلت سلطات البصرة وفدا عثمانيا سنة ١٨٥٨ مؤلفا من بعض شيوخ البصرة وبغداد لتقديم عروض كثيرة الى شيوخ البحرين الذين أظهروا استعدادا كبيرا لقبول التبعية العثمانية (٥٩) ونجح الوفد في اعلان تبعية البحرين للدولة العثمانية وابقاء ممثل لها في الامارة .

ووافق شيخها على رفع العلم العثماني (٦٠) . ولكن بريطانية ارغمت البعثة العثمانية وممثلها في البحرين الى الانسحاب دون تنفيذ اي شيء من الاتفاق بعد ان احتج بالمرستون لدى حكومة الاستانة التي تراجعت عن موقفها وأمرت الوفد بالانسحاب (٦١) .

وقد كان ذلك باعثا لبريطانية أن تسرع في عقد اتفاقية جديدة مع شيخ البحرين .

وبعد هذا التاريخ نلاحظ تجسم الصراع البريطاني ـ العثماني في الخليج العربي الذي استمر حتى قيام الحرب العالمية الاولى . وقد بدات علاماته تظهر في الافق منذ ان وجهت الحكومة العثمانية سنة ١٨٤٧ تعليماتها الى باشا بغداد بممارسة حق تفتيش السفن في الخليج العربي بقصد منع تجارة الرقيق حتى اذا كانت تلك السفن ترفع العلم العثماني . ولكن بريطانية اعترضت على ذلك الاجراء بسبب مخاوفها من امتداد السيطرة العثمانية على البحرين (٦٢) .

على أن بريطانية لم تكتف بذلك بل اخذت بيدها زمـام المبادرة لضرب مناطق النفوذ العثمانية ، فكان ضرب ميناء الدمام سنة ١٨٥٩ ، والاعتداء على السواحل النجدية سنة ١٨٦٦ عندما ادعى نامق باشا والى بغداد بأنها من ممتلكات الدولة العثمانية ، بينما كانت السلطات البريطانية ترى أن الامير السعودي لا يخضع للسيادة العثمانية ، وان بريطانية تتعامل معه مباشرة . وقد رفضت الحكومة البريطانية احتجاجين وجهتهما الدولة العثمانية الى حكومة الهند بصدد ذلك .

---

(١)خضعت البصرة للحكم العثماني المباشر سنة ١٥٤٦ . راجع
Longrigg, **Four Centuries of Modern Iraq,** P. 31.
(2) Wilson, **The Persian Gulf,** P.P. 124 - 125.

(٣) كانت قبيلة المنتفك وكعب من أبرز القبائل التي تتعرض البصرة لجهماتهما .

(٣) ـ مكرر ـ احمد عزت عبد الكريم ـ العلاقات بين الشرق العربي وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ص : ٢٢٧

(٤) ابو حاكمة ـ تاريخ شرقي الجزيرة العربية ـ نشأة وتطور الكويت والبحرين ص : ٥٩

(٥) بعد أن بادر الاسطول البرتغالي الى احراق حصن القطيف في الاحساء وهدمه سنة ١٥٥٠ وكان العثمانيون قد أخضعوه لهم بعد فترة من احتلالهم البصرة راجع :

عبد الكريم محمود غرايبه ـ مقدمة تاريخ العرب الحديث : ص ٢٤٩

(6) Sitripling, **The Ottoman Turks and the Arabs,** P. 94.

(7) Miles, **Countries and Tribes of the Persian Gulf,** Vol. 2 PP. 172-177.

(8) Wilson, op. cit, P. 126.

(9) Longrigg, op. cit., P. 38.

(١٠) لقد تعاقب على حكم الاحساء من الولاة بعد فتحي باشا كل من علي باشا سنة ١٦٢٣ وابنه بكر باشا ثم يحيى باشا (حتى وفاته سنة ١٦٦٢) فمحمد باشا .

(١١) راجع عن تفاصيل احداث البصرة هذه المادة : Encycl. of Islam Al-Basra
New. Ed. Vol. 1, Leiden - London, 1960, P. 1087.

(١٢) لزيادة الاطلاع على تفاصيل وافية عن بني خالد في هذه الفترة راجع :

ابو حاكمة ـ محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ـ الفصل الخـامس .

(١٣) العزاوي ـ العراق بين احتلالين ج٥ ص ٥ ٧ـ ٧٦

(١٤) ابو حاكمة ـ تاريخ شرقي الجزيرة العربية ـ نشأة وتطور الكويت والبحرين ص ٦٠ـ٦١

(١٥) امتدت سلطتهم حتى مشارف البصرة .

(١٦) ديكسون ـ الكويت وجاراتها ـ ترجمة جاسم مبارك الجاسم . ج١ ص ٩ . ويبدو أن الذي طلبها هو صباح الاول أول امراء الكويت .

(١٧) لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي ج٣ ص ١٥٠٥

(18) Wilson, P. 184.

(١٩) يمكن تتبع تفاصيل وافية عن الوكالة في :أبو حاكمة ـ تاريخ الكويت ج١ القسم الاول ص : ٢٣٧ ـ ٢٤٣

(٢٠) ابو حاكمة ـ الكويت في سجلات شركة الهند الشرقية ـ مجلة العربي العدد ٣٠ أيـار ١٩٦١ ص ٥٥ . راجع أيضا : ابن غملاس ولاة البصرة ومتسلموها ص ٧٠

(٢١) هناك من يرى أن بدء حكمه كان حوالي سنة ١٧٦٢ .

(٢٢) عرفت الكويت باسم القرين نسبة الى الساحل الذي تقطع عليه حيث ينحني في إتجاه دائري مكونا ما يشبه القرن .

(23) Factory Records, Persia and Persian Gulf, Vol. 18 - serial No 1532. Letter Dated 17th April 1789

(24) Ibid. letter dated 30th April 1789.

(٢٥) كان العثمانيون قد رفضوا تأييد هجوم كريم خان على مسقط فترك ذلك اثرا طيبا في نفس امام عمان أظهره للعثمانيين عند الهجوم الفارسي على البصرة .

راجع تفصيل تلك الاحداث في الدراسة التي اعدها : جمال زكريا قاسم ـ دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١ (القاهرة ـ ١٩٦٨) .

(٢٦) لقد كانت هذه المكافأة سببا في اثارة ازمات كبيرة بين امام عمان والولاة العثمانيين في البصرة . وقد حدث في سنة ١٧٩٨ أن تدخل الكابتن مالكولم المقيم البريطاني في البصرة لتسوية النزاع سلميا ـ كان العثمانيون في ذلك الوقت على تقارب وثيق بالبريطانيين ـ وذلك بسبب تأخر والي بغداد عن دفع حقوق امام عمان المالية مقابل الخدمات التي قدمها أبوه في اثناء حصار البصرة . راجع لوريمر ـ المصدرق السابق ج٢ ص : ٥٦٩

(27) Pelly, Lt. Col. Remarks on the Tribes, Trade and Resources around the shore line of the Persian Gulf Transactions of the Bombay Géographical Cociety (jan. 1963 - Dec. 1864) Vol. 17, Bombay 1965, PP. 32-112.

(٢٨) وهو الذي خبر المنطقة وأقام بها طويلا وكان قد فرضت عليه الاقامة الاجبارية في بغداد بعد تأييده متسلم البصرة ضد باشا بغداد .

راجع عن تاريخه وامارته : النبهاني ـ التحفة النبهانية ج١ ص ٥٦ ـ ٧٠

(٢٩) لونكريك ـ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٥٧

(٣٠) بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج٤ ص ٢١

(31) Philby, **Saudi Arabia**, P. 88.

(٣٢) معناه النائب او المعاون وتلفظ الكهية . والكيخيا ليس هو باشا بغداد كما توهم ابو حاكمة في تاريخ الكويت ج١ القسم الاول ص ١٨ ، ص ٢٩

(٣٣) لونكريك ـ المصدر السابق ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩

(٣٤) لقد ترك لنا بريدجز وصفا كاملا لاستعدادات الحملة هذه ، راجع :
Brydges, **Wahauby**, Vol. II, P. 19.

(٣٥) رسول الكركوكلي ـ ترجمة كاظم نورس ـ دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

(٣٦) Philiby, op. cit. PP 91 - 92 وكتابه تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ تعريب عمر الديراوي ص ٩٧

(٣٧) للاطلاع على تفاصيل حملة علي باشا على الاحساء راجع كتاب . لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ـ تحقيق ابو حاكمة ص ١٢٦ ـ ١٣٣

(٣٨) انظر نص الرسالة في : عثمان بن سند البصري ـ مطالع السعود ص ٢٦

(٣٩) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ص ١٣٣ . ومما هو جدير بالذكر أن مدة الحملة استغرقت تسعة اشهر وخمسة وعشرين يوما .

(٤٠) لوريمر ـ المصدر السابق ج٤ ص ١٩٠٦

(٤١) ديكسون ـ الكويت وجاراتها ج١ ص ١٠٤

(٤٢) عن تفاصيلها راجع : يعقوب سركيس ـ مباحث عراقية ص ١٤ ـ ٢٨

(٤٣) العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين ج٦ ص ١٦٠ ـ ١٦١ ، عبد الله فلبي ـ تاريخ نجد ص ١١٠

(٤٤) ابن بشر ـ عنوان المجد ص ١٢٩ ـ ١٣٠

(٤٥) نفس المصدر ـ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ . انظر ايضا علي ظريف الاعظمي ـ مختصر تاريخ البصرة ص ١٤٩

(٤٦) نوار ـ داود باشا ص ٢٢٦

(٤٧) جيمس بكنغهام ـ ترجمة سليم طه التكريتي ـ رحلتي الى العراق ج٢ ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦

(٤٨) نفس المصدر ـ ص ٢٨٦

(٤٩) لم ينقذ العراق من الهجمات السعودية الا دخول القوات المصرية الى جزيرة العرب سنة ١٨١١

(٥٠) لوريمر ـ المصدر السابق ج٣ ص ٦٩٨ ـ ٦٩٩

(٥١) للتفاصيل راجع : حسين الشيخ خزعل ـ تاريخ الكويت السياسي ج١ ص ١٠٧ـ١١٢

(٥٢) لوريمر ـ المصدر السابق ج٣ ص ١٥١٣

(٥٣) القناعي ـ صفحات من تاريخ الكويت ص ١٣

(٥٤) عبد العزيز الرشيد ـ تاريخ الكويت ص ١٢٠

(٥٥) نفس المصدر ص ١٢٢

(٥٦) حاول عبد العزيز محمد المنصور ـ الكويت وعلاقتها بعربستان والبصرة : (الفصل الرابع الخاص بعلاقات الكويت بالبصرة ص ٨٣ ـ ١٠١) أن يدلل باندفاع عاطفي على أن علاقة الكويت بالدولة العثمانية في جميع مراحلها كانت اسمية ويؤكد في جميع كتاباته أن الكويت عاشت دائما مستقلة .

(٥٧) لوريمر ـ المصدر السابق ج٣ ص ١٥٢١

(٥٨) نوار ـ تاريخ العراق الحديث ص ٢٣٤

(٦٠) محمد النبهاني ـ التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ج٦ ص ٣٨

(٦١) جمال زكريا قاسم ـ مصدر سبق ذكره ص ١٥٦ ، ص ١٧٢

(٦٢) راجع عنها : محمود بهجت سنان ـ البحرين درة الخليج ص ٩ وما بعدها .

مُطـالعات
في تاريخ العلوم في العصر الأموي

د . أحمد سليم سعيدان

عميد كلية العلوم ـ جامعة القدس

يلم بعض الباحثين إلمامة عاجلة بتاريخ العلوم في العصور الاسلامية ، فيخرجون أحيانا بانطباعات خاطئة ، ومنها قد يقفزون الى استنتاجات وأحكام مبنية على الخطأ . ولا يخفى الخطأ على المتخصصين الذين يتوفرون على دراسة العلوم الاسلامية دراسة مقارنة ، وتبين مراحل تطورها ، بأصالة وموضوعية . ولكنهم قلما أتيح لهم التنبيه الى الخطأ ، الا بعد فوات الاوان . فاذا ما حاولوا تصحيحه ، ذهبت محاولتهم كصيحة في واد ، اذ ما نفع بحث ينشر في مجلة محدودة القراء ، في تصحيح وهم درج الناس على التسليم بصحته ، مذ انفرد الغرب برسم مناهج تعليمنا ، والاشراف على تكوين بنيتنا الثقافية ؟

من هنا تأتي أهمية كتابة التاريخ الاسلامي من جديد ، بأقلام اسلامية متفتحة واعية ، ويقيننا ان اللجان التي ستوكل اليها هذه المهمة ستعطي تاريخ العلوم في الاسلام اهتماما خاصا ، ذلك أن المصادر التي استقينا منها معلوماتنا، في سني الطفولة والشباب ، عن تاريخ العلوم في العصور الاسلامية ، ظلمت الفكر الاسلامي ، عن عمد أو عن جهل ، اذ ضخمت من قيمة الفكر الأغريقي من قبله ، والفكر الاوربي الغربي من بعده ، فبقي مكانه فيها على الهامش .

وفي هذه الصفحات ألفت الانظار الى واحد من هذه الاوهام التي أشير اليها ، وهو الزعم بأن تاريخ العلوم في الاسلام يبدأ بالعصر العباسي .

طلائع الحركات العلمية في الاسلام :

قد لا يلام القارىء العجلان اذا سلم بأن الحركة العلمية في الاسلام انما بدات في العصر العباسي ، فهذا ما يوحي به أوثق ما لدينا من مصادر عربية عن طلائع المسيرة العلمية الاسلامية ، وأعني بذلك كتاب الفهرست ، لابن النديم، وقد فرغ منه مؤلفه في أواخر القرن الرابع الهجري .

ففي الفهرست (الصفحة ٣٥٣ ، طبعة القاهرة) نقرأ ، تحت عنوان « ذكر السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد » أن من أوكد الاسباب أن الخليفة المأمون رأى ارسطو في منامه ، شيخاً مهيباً ينطق بالحكمة ، فدفعه ذلك الى النظر في الكتب القديمة بحثاً عن هذه الحكمة ، « وكان بين المأمون وملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ، المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلما صاحبُ بيت الحكمة ، وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه ، أمرهم بنقله ، فنقل » .

وابن النديم ينقل عما توافر له من مصادر لم تصل الينا ، ولكن كأنه هنا قد استبعد ، في قرارة نفسه ، ان يكون سبب تلك الثورة العلمية التي غمرت العالم الاسلامي في عصر المأمون ، مجرد حلم رآه المأمون ، ولكنه كفى نفسه مغبة طرح الرأي باعطاء الحقائق للقارىء المتأني الواعي ، كاملة ، فهو يستطرد فيذكر ان غير المأمون ، من معاصريه ، كانوا أيضا يحرصون على جمع الكتب ، ونقلها فهاهم أحمد ومحمد والحسن ، أبناء موسى بن شاكر المنجم ، « بذلوا الرغائب ، وأنفذوا حنين ابن اسحق ، وغيره ، الى بلد الروم ، فجاءهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات ، في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارتماطيقى والطب » . ويضيف ابن النديم نقلا عن أبي سليمان المنطقي السجستاني « ان بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم حنين بن اسحق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة ، وغيرهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار ، للنقل والملازمة » . وكان هذا يومئذ ثروة تربو على مليون دينار في هذه الايام .

ويضيف ابن النديم ان قسطا بن لوقا البعلبكي حمل معه شيئاً ، فنقله أو نقل له .

ثم كأن ابن النديم قد استبعد ان يتأخر النشاط العلمي في الاسلام . زهاء قرنين من الزمان ، حتى يبدأ انطلاقته في عصر المأمون ، وقد تولى الخلافة من ١٩٨ الى ٢١٨هـ ، فيذكر ان ابا جعفر المنصور أيضا قد امر بنقل التنجيم الهندي الى العربية منذ سنة ١٥٤ حين جاءه وفد من الهند وفيه منجم يحمل أعظم كتاب هندي في الفلك والتنجيم . ويضيف أن الفرس قد نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى العربية عبد الله بن المقفع ، وغيره . وابن المقفع عاصر أواخر العهد الاموي ، وقتل بتدبير من ابي جعفر المنصور .

ولا ينسى ابن النديم أيضاً ان يذكر ان خالد بن يزيد ، المتوفى سنة ٨٥ أو ٩٠ هـ ، في أواسط العهد الاموي ، قد نقل له في مصر كتب في الصنعة * والطب ، وذلك هو أول نقل في الاسلام .

ترى ان ابن النديم يبعثر الحقائق في ثنايا كتابه القيم ، ويترك استنتاج النتائج للقارىء المتأني . الا ان قراء قرأوه وهم في عجلة من امرهم ، فسلموا بان الحركة العلمية في الاسلام انما بدأت في العصر العباسي ، وأوقعهم ذلك في مشاكل لم يجدوا لها جوابا . من ذلك : كف نفسر أن فيلسوف العرب ، يعقوب بن اسحق ، الكندي ، قد استوعب الفلسفة اليونانية ، من قبل ان تنقل هذه الفلسفة الى العربية ، وكيف نفسر ظهور ملامح واضحة من التأثر بنحو اللغة اللاتينية من أيام ابي الاسود الدؤلي الذي يقال انه وضع قواعد اللغة امتثالا لامر تلقاه من الامام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه .

ليس بدعاً في التاريخ أن يظلم العباسيون العصر الامـوي ، فيغمطوه حقه ، فهذه هي خلقيات السياسة ، من قديم الزمان . ولكن يبدو ان التاريخ أقوى من الناس الذين يصنعونه ، فمهما حاول جيل أن يخفي أمجاد جيل سبقه ويطمس معالمها ، يبقى من تلك المعالم رواسب بها يستعيد المؤرخ بعض ما طمس أو جله . ورواسب الامجاد الاسلامية قبل العصر العباسي هي التي نستقرئها الان .

* « الصنعة » هي الاسم العربي القديم للكيمـا (Alchemy) اي الكيمياء القديمـة ، تمييزا لها عن علم الكيمياء الحديث (Chemistry)

وأول ما يطالعنا من ذلك اقرار التأريخ الاسلامي بأمر الفاروق عمر رضي الله عنه اذ رأى ان تكون سنة الهجرة هي بدء التاريخ الاسلامي ، فكان ذلك يوم الجمعة في ١٦ تموز/يوليو من سنة ٦٢٢ م .

وغني عن البيان ان هذا دليل على ان الامة بدات تشعر انها دخلت التاريخ وشرعت تصنعه . انها اليوم غيرها بالامس ، فلتسجل اذن احداثها في سجل جديد .

والتسجيل يعني الكتابة ، والكتابة مادتها الورق ، وقد كان العرب يكتبون في أكتاف الابل ، واللخاف ، وهي الحجارة الرقاق البيض ، وفي عسب النخل ، وكان اقباط مصر ما يزالون يصنعون القرطاس من لحاء نبات البردي، وكان الصينيون يصنعون الكاغد من حشائش يكثر نموها في بلادهم . فصنع في خراسان من الكتان ورق على غرار الكاغد الصيني ، وذلك هو الورق الخراساني .

واذا كان الورق الخراساني لم يصنع على نطاق واسع قبل العصر العباسي ، فان الامويين ، قد توافر لهم الكاغد والقرطاس والادم ، مواد للكتابة ، حتى الحرير صنعوا منه ورقا للمصاحف . فماذا عن الكتابة ذاتها ، أعني الحروف والخط ؟

عندما كانت تدعو الحاجة للكتابة في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان زيد بن ثابت واكثر كبار الصحابة ، رضي الله عنهم ، يكتبون . ويقول ابن النديم ان اول الخطوط العربية هو الخط المكي ، وبعده المدني . ولكن مع اتساع رقعة الدولة وتزايد الحاجة الى الكتابة وتبادل الرسائل ، كان لا بد من تنظيم الكتابة ، وهذا ما حدث في ايام بني امية ، ويقال ان اول من كتب في العصر الاموي هو قطبة ، وهو الذي « استخرج الاقلام الاربعة ، واشتق بعضها من بعض » ، اما اول من كتب المصاحف فهو خالد بن ابي الهيلة ، وكتب للوليد بن عبد الملك ، ويوصف بحسن الخط . وللحجاج بن يوسف الثقفي يعزى الفضل في وضع الحركات على الحروف .

واللغة لا بد لها من قواعد تضبطها ، ويعزى ذلك في المصادر العربية الى ابي الاسود الدؤلي ، ويقال انه شرع بوضع قواعد اللغة بأمر من علي كرم الله وجهه . الا ان مدرستين تكونتا لوضع قواعد اللغة هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، وكان من رجال مدرسة البصرة ابو الاسود والخليل بن احمد

الفراهيدي ، وكان من رجال مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود ، والشعبي الذي تعلم ابو حنيفة عليه . في هاتين المدرستين وضعت قواعد اللغة والفقه ورسمت مناهج وضع المعاجم .

اما وقد توافرت المقومات الاولوية التي بدونها لا تكتب اللغة ، فلم يكن بد من تعريب الديوان . ونعني بذلك سجلات الدولة ولغة المعاملات الرسمية ، وقد كان الديوان روميا في سوريا ، بهلويا في العراق وفارس . لقد ترك الفتح الاسلامي ، أول الامر ، ديوان كل قطر ، باللغة التي كان عليها قبل الفتح . ولكن اذا جاز هذا الترتيب في بادىء الامر ، فلا يجوز ان يدوم طويلا . ولقد نقل الديوان الفارسي الى العربية في ايام الحجاج ، وعن ذلك يحدثنا الفهرست (الصفحة ٣٥٢) فيقول : « والذي نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم ، وكان ابو صالح من سبي سجستان ، وكان يكتب لزاد انفروخ بن بيري ، كاتب الحجاج ، يخط بين يديه بالفارسية والعربية ، فخف على قلب الحجاج .

فقال صالح لزاد انفروخ : انك أنت سببي الى الامير، وأراه قد استخفني، ولا آمن أن يقدمني عليك وان تسقط منزلتك .

فقال : لا تظن ذلك . هو الي أحوج مني اليه ، لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري .

فقال : والله لو شئت ان أحول الحساب الى العربية لحولته .

قال : فحول منه أسطرا حتى أرى !

ففعل . فقال له : تمارض ! فتمارض ، فبعث الحجاج اليه تيادورس طبيبه . فلم ير به علة . وبلغ زاد أنفروخ ذلك ، فأمره أن يظهر .

واتفق أن قتل زاد أنفروخ في فتنة ابن الاشعث ، وهو خارج من موضع كان فيه ، الى منزله . فاستكتب الحجاج صالحا مكانه . فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين صاحبه في نقل الديوان . فعزم الحجاج على ذلك ، وقلده صالحا ، فقال له مراد شاه ، ابن زاد انفروخ ، كيف تصنع بدهويه وششويه ؟

قال : أكتب « عشرا ونصف عشر » .

فقال : كيف تصنع بويد ؟

قال : أكتب « وأيضا » . (قال : الويد : النيف ، الزيادة تزاد) .

فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية .

وبذلت له الفرس مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن نقل الديوان ، فأبى الا نقله ، فنقله .

فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله در صالح ! ما أعظم منته على الكتاب.

« وكان الحجاج أجّله أجلا في نقل الديوان » .

القصة مؤثرة ، تنطق بالصدق . ولكن ما تصفه انما هو الشرارة التي اطلقت المارد من عقاله . اما المارد فنستطيع ان نقدر انه كان امنية في بال كل عربي مسؤول ، ينتهز الفرصة لتحقيقها .

وقد تحققت الامنية في فارس والعراق بأمر من الحجاج . اما في الشام « فكان الديوان بالرومية ، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور ، لمعاوية بن ابي سفيان ، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان في زمن هشام بن عبد الملك . نقله ابو ثابت ، سليمان بن سعد ، مولى حسين ، وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل ان الديوان نقل أيام عبد الملك ، فانه أمر سرجون ببعض الامر ، فتراخى فيه ، فأحفظ عبد الملك ، فاستشار سليمان ، فقال له : انا أنقل الديوان ، وآرتجلَ منه » .

* * *

أول الغيث :

في موسم الامطار ، اذا انخفضت درجة الحرارة وارتفعت درجة الرطوبة، وتلبدت السماء بالسحب وجاءت النذر بهبوب رياح باردة ، قلنا ان كل ذلك مقدمات لنزول المطر . الا ان المطر قد يبدو كأنه يأتي مع مقدماته ، بل يكاد يسبقها ، وهذا ما حصل في العالم العربي . فلم يتدرج الامر من ضبط لقواعد الخط فقواعد اللغة فتعريب للدواوين ، فنقل للعلوم فدراسة لها فانتاج ، وانما تداخلت هذه الخطوات بعضها ببعض حتى ليبدو ان الدراسة والانتاج قد سبقا النقل أو زامناه .

فاذا بدا هذا مخالفا للمعقول ، اذ قلما يتم انتاج فكري ذو قيمة دون دراسة وخبرة وتدبر ونضوج ، فلنتذكر ولنذكّر أن البلاد الاسلامية لم تبدأ من الصفر . اللغة العربية القرشية كانت كالطارئة على عالم الفكر ، وأعراب

الجزيرة كانوا كالطارئين على عالم الحضارة ، اما سائر العالم الاسلامي فكان ذا حضارات عريقة موصولة ، يدل على حاضرها الراهن مدارس في الاسكندرية وانطاكيا وحران وجنديسابور . اساتذة هذه المدارس وخريجوها هم الذين حفظوا ، من قبل الاسلام ، الخيط الذي ربط ماضيها بحاضرها ، وهم الذين زودوا البلاد بما لا غنى لها عنه ، من اطباء ومنجمين وعلماء . وهم الذين كانوا في صدر الاسلام علماء الدولة واطباءها الذين تولوا نقل الفكر العالمي الى العربية. لا ينقص من دورهم هذا انهم لم يكونوا عباقرة ، ولا من كبار العلماء أو المؤلفين .

كانت الغالبية العظمى من هؤلاء من السريان . والفهرست يذكر اسماء عشرات من النقلة ، منهم قلة من الفرس والهنود ، وسائرهم من السريان .

من خريجي هذه المدارس ، ابان ظهور الاسلام ، كان اصطفان الاسكندري وقد عمل في شرح فلسفة ارسطو ، ووضع كتباً في الطب والكيمياء ، لعلها هي التي لفتت نظر خالد بن يزيد فعمل على ترجمتها .

وكان منهم يعقوب الرهاوي مطران الرها ، وكان لغوياً وضع قواعد النحو السرياني وجعل ابجدية السريانية ٣٦ حرفاً منها سبعة أحرف علة . ولقد توفي هذا الرهاوي سنة ٩٠ للهجرة ، وعاصر أبا الاسود الدؤلي ، وخالد بن يزيد .

وكان منهم أيضاً أهرون القس ، وقد وضع بالسريانية كنّاشاً وكتاباً في الطب ، ونقل كتابه الى العربية سنة ٦٤ هجرية .

وكان منهم يحيى الدمشقي ، وكان مسؤولا عن مالية الدولة ابان الحكم الاموي ، ثم اعتزل الخدمة ، وعاش في دير مارسابا ، في أبو ديس ، بجوار القدس ، وهناك وضع كتاب ينبوع الحكمة ، وفيه يقارن المسيحية بالعقائد الاخرى ، ومنها الاسلام . وقد توفي يحيى الدمشقي في أوائل العصر العباسي .

ويذكر فللينو في كتابه : علم الفلك عند العرب ، ان مما ترجم في العصر الاموي كتاباً في أحكام النجوم تمت ترجمته سنة ١٢٥ هـ .

وكان من أساتذة هذه المدارس وخريجها عرب من الجزيرة العربية . من هؤلاء عبد الملك بن ابجر ، الكناني . وكان طبيباً معلماً في مدرسة الاسكندرية ألى أن نقل تدريس الطب منها الى انطاكيا وحران ، لتوسطهما في ديارالاسلام ، وذلك في أيام الوليد الثاني .

ومن هؤلاء ايضاً الحارث بن كلدة ، الثقفي . وقد جرى بينه وبين ملك الفرس ، على ما تذكر المصادر العربية حوار لا يخرجنا ايراده عن الغاية التي

نرمي اليها ، وننقله هنا من عيون الانباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي اصيبعة (الصفحة ١٦٢ ، طبعة بيروت) :

« وفد على كسرى أنو شروان ، فلما اذن له بالدخول ، وقف بين يديه منتصبا :

فقال له : من أنت

قال : أنا الحارث بن كلدة الثقفي .

قال : فما صناعتك ؟

قال : الطب .

قال : أعربي أنت ؟

قال : نعم . من صميمها وبحبوحة دارها .

قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها ، وسوء اغذيتها ؟

قال : أيها الملك : اذا كانت هذه صفتها ، كانت أحوج الى من يصلح جهلها ، ويقوم عوجها ، ويسوس ابدانها ، ويعدل أمشاجها ، فان العاقل يعرف ذلك من نفسه ، ويميز موضع دائه ، ويحترز من الادواء كلها بحسن سياسته لنفسه .

قال كسرى : فكيف تعرف ما تورده عليها ، ولو عرفت الحكم لم تنسب الى الجهل ؟

قال : الطفل يُناغَى فيداوَى ، والحية تُرقى فتحاوَى . ثم قال :

أيها الملك : العقل من قِسَم الله تعالى ، قسمه بين عباده ، كقسمه الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب . وخص بها قوم ما زاد ، فمنهم مثرٍ ومعدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم .

قال كسرى : فما الذي تحمد من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها؟

قال الحارث : أيها الملك : لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، والسن بليغة وانساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرامي ، أعذب من هواء الربيع ، والين من سلسبيل المعين ، مطعمو الطعام في الجدب ، وضاربو الهام في الحرب ، لايرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يضرون بفضل للأنام ، الا للملك الهمام ، الذي لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة ولا ملك » .

ان لم يكن مثل هذا الحوار قد وقع فعلا بين الحارث والملك ، فقد كان يمكن ان يقع بين اي عربي واي فرد غير عربي ، سرياني او فارسي او هندي في ديار الاسلام .

واذا كان كل ما عمله السريان والفرس والهنود ، من نقل في العصر الاموي، هذا الذي نعرف ، فلا ريب انه قليل . انه اول الغيث ، ولكن لعل ما لا نعرف اكثر واغزر مما نعرف . الا ان اثر هؤلاء السابقين في تلقيح الافكار بالحوار أوسع واعمق . فيحيى الدمشقي ، الذي عمل طويلا على مالية الدولة في دمشق ، ثم اعتزل في دير مار سابا ليكتب عن البدع ، لم يدفعه الى ذلك الا ما كان يجري بينه وبين المسلمين من حوار .

وسواء كانت المحاورات ودية أو عدائية ، موضوعية أو شخصية ، هادئة أو صاخبة ، فقد كانت سبيلا منها وصلت المذاهب الفلسفية الى الفكر الاسلامي ولنذكر ان واصل بن عطاء ، شيخ المعتزلة قد توفي قبل ظهور الدعوة العباسية بسنتين .

فليس غريباً اذن ان يظهر في الاسلام فلاسفة من أمثال الكندي والفارابي من قبل ان ينقل الفكر اليوناني والروماني كله الى العربية ، فهو وان لم ينقل ، كان هنالك في المدارس ، وكان هنالك من فهم بعضه على نحو ما .

وليس غريباً ايضاً — في تقديري — ان تحمل بواكير أعمال البصرة والكوفة دلائل تأثر بلغة لم يبدأ تأثر العرب المباشر بها بعد ، فان لم يكن رواد مدرستي البصرة والكوفة قد ألموا بقواعد اللاتينية أو اليونانية ، فقد تتلمذوا على من اتقنوها، في مدارس الرها وحران ونصيبين وجنديسابور وانطاكيا والاسكندرية . وان لم يكونوا قد تتلمذوا عليهم مباشرة ، فلعلهم دخلوا معهم في حوار علمي أو جدلي .

* * *

وأول كتاب عربي في التاريخ وضع في الاسلام انما وضع في أيام معاوية وبأمر منه ، فقد استدعى معاوية عبيد ابن شرية ، من صنعاء اليمن « فسأله عن الاخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الالسنة وأمر افتراق الناس في البلاد ، فأجابه الى ما طلب ، فأمر معاوية أن يدون وينسب الى عبيد ابن شرية (الفهرست ، الصفحة ١٣٨) . وينسب الفهرست لعبيد ايضا كتابا في الامثال .

ويبدو ان كتابا آخر في التاريخ وضع في العصر الاموي ، هو كتاب التيجان المنسوب لوهب بن منبّه .

الا ان أعظم انجاز اموي علمي انما جاء مع بدء تدوين الاحاديث النبوية الشريفة ، فقد استدعى ذلك أقصى درجات الحرص في تحقيق النصوص ، حتى كان المحدث يشد الرحال من العراق الى اليمن ، ليتأكد من صحة حديث سمعه . لقد أفضى هذا الى وضع اسس تحقيق النصوص والاسانيد والوثائق، وتحقيق الوثائق سماه العرب علم الشروط ، ومن ذلك جاءت كلمة Chartar وهذا الحرص في تحقيق النصوص والاسانيد والوثائق أرسى قواعد الامانة العلمية ، التي هي ركن هام من اركان النهج العلمي ، هذا بالاضافة الى ما استتبع من تحقيق سيرة الرسول والغزوات والفتوحات ، مما كان باكورة الانتاج التاريخي في العصر العباسي .

ولقد انعكست هذه الامانة العلمية على اعمال النقل . جاء في الفهرست (الصفحة ٣٨) نقلا عن احمد ابن عبد الله بن سلام ، مولى هرون الرشيد ، انه ترجم من العبرانية واليونانية ولغة الصابئة ، الى العربية ، قال: «ترجمت.. الى اللغة العربية ، حرفا حرفا ، ولم أبتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه ، مخافة التحريف ، ولم ازد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته ، ولم انقص ، الا ان يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب ، فلا يستقيم لفظه ، في النقل الى العربية ، الا ان يؤخر ، ومنه ما هو مؤخر لايستقيم أن يقدم » .

كان ما ترجمه ابن سلام نصوصا دينية تقتضي هذه الحرص ، ولكن الحرص انعكس ايضا على الانتاج الفكري الاسلامي أمانة علمية محمودة ظل الكتاب يتحلون بها ، الى ان فقدوها في سني التقهقر ، ومن أسف ان الغرب لم يتنبه لاهميتها ، أو لم يعد اكتشافها ، الا متأخرا ، في القرن العشرين .

ولقد جاء الاسلام بركن آخر من اركان النهج العلمي ، ذلك هو قبول التجربة دليلا علميا ، وقد كان الفكر الاغريقي لا يقبل الا الدليل العقلي الاستنتاجي . فان روجر بيكون الذي يعده الغرب رسول مبدأ التجربة لم يبتكر هذا المبدأ ، وانما تلقاه من اساتذته العرب في مدارس الاندلس ، فكان دخوله الى أوربا مدعاة قلق كبير انجلى عن صراع مرير بين العلم والدين . وانجلى هذا الصراع عن انتصار مبدأ التجربة الذي جاء به الاسلام سبيلا بدهيا للتعرف على نعم الله وآلائه ، ولكن لعل هذا أولى به حديث آخر .

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام
بين سنتي ١٣٢ و ٣٥٩ هـ

د . أمينة بيطار
قسم التاريخ ـ جامعة دمشق

كانت بلاد الشام في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٢ ـ ٣٥٩ هـ / ٧٥٠ ـ ٩٧٠ م تحت حكم الخلافة العباسية ، التي أطاحت بالخلافة الاموية ، ونقلت مركز الخلافة من دمشق باتجاه الشرق .

وقد حكم بلاد الشام في ظل الخلافة العباسية في الفترة المذكورة ولاة العباسيين مباشرة حتى سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ ـ ٨٧٨ م ، حيث أصبحت تابعة للطولونيين حتى سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ ـ ٩٠٥ م . وعادت تبعيتها بعد سقوط الدولة الطولونية للخلافة العباسية مباشرة ، حتى تمكن الاخشيد من تأسيس الدولة الاخشيدية في مصر والشام .

وتعرض الاخشيديون في بلاد الشام لمنافسة الحمدانيين ، الذين تمكنوا في سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ ـ ٩٤٥ م من تأسيس الدولة الحمدانية في حلب . وبذلك انقسمت بلاد الشام بين امارتين ، فشمالها يتبع للامارة الحمدانية ، وجنوبها للامارة الاخشيدية . ولسنا الآن في معرض الحديث عن أوضاع بلاد الشام السياسية في هذه الفترة ، بل اهتمامنا منصب على الحديث عن الاوضاع الاقتصادية في الشام .

ويمكن القول ـ في هذا المجال ـ أن الاوضاع الاقتصادية في بلاد الشام تأخرت في هذه الفترة عما كانت عليه في العصر الاموي ، وذلك لاسباب متعددة يأتي على رأسها : ـ

١ ـ ان خلفاء بني العباس وولاتهم في الشام لم يوجهوا اهتمامهم للقيام باصلاحات غايتها تنمية الحياة الاقتصادية ودفع عجلتها الى الامام . وكان هم ولاة العباسيين الوحيد في بادىء الامر،القضاء على الامويين وانصارهم،ومصادرة اموالهم وأموال مؤيديهم . وقد اسفر ذلك عن ثورات متكرره جعلت البلاد في وضع مرتبك ، وفي حالة شديدة من الفوضى .

٢ ـ خوف العباسيين من نفوذ أصحاب الثروات الكبيرة والمصالح الاقتصادية في بلاد الشام ، وخشيتهم من أن يستغل هؤلاء أموالهم لافساد الاهالي على العباسيين . ومما يروى في هذا الصدد قصة الرشيد مع أحد رجال بني امية الذي علم عنه انه عظيم الجاه ، واسع الدنيا ، كثير المال والاملاك . فقد أمر الرشيد احد رجاله بالخروج الى الشام ، وأمهله ثلاثة عشر يوما فقط للذهاب والعودة لاحضار الرجل . ولكنه لما علم بأن الرجل محسود على النعمة امر باعادته الى بلده على أحسن حال (١) .

٣ ـ استمر تأخر بلاد الشام اقتصاديا في عهد الطولونيين والاخشيديين ، لان دمشق لم تكن عاصمة لاي من هاتين الامارتين ، وانما كانت ولاية تابعة لكل منهما . يضاف الى ذلك ما تعرضت له الشام من تخريب بسبب الحروب التي اجتاحتها نتيجة للتنافس بين الامارات المختلفة التي حكمت بلاد الشام في هذه الفترة ، مثل الحروب بين الطولونيين والعباسيين ، وبين الاخشيديين والحمدانيين ، وبين الاخشيديين وابن رائق ، ثم بين كل من الاخشيديين والحمدانيين والبيزنطيين .

٤ ـ لم تعد بلاد الشام كما كانت مركزاً للخلافة الاسلامية ، ومكان تجمع أموال الولايات في بيت مال المسلمين في عاصمتها دمشق (٢) . حيث يصرف الجزء الاكبر من فائض الاموال لعمران بلاد الشام ، ولاسترضاء أهاليه ، ليبقوا في خدمة الدولة الاموية .

٥ ـ ثقل الضرائب المفروضة في هذه الفترة على الاراضي ، دفعت بعدد كبير من الزراع الى النزوح عن اراضيهم (٣) ، كما دفعت صغار ارباب الضياع الى الافلات من عبء الخراج العادي ، بالجاء ضياعهم الى الكبار الاقوياء ليخفف عنهم الخراج ، ويدفعون العشر فقط ، كما هو الحال في الاقطاعات (٤) .

٦ ــ كثرة مصادرة الخلفاء والولاة ، لاموال العمال والكتاب والتجار والاغنياء . فقد صادر محمد بن طفج الاخشيد عماله مراراً . واذا أفلت أحد من المصادرة حياً ، لم يكن يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته . وكان العامل اذا صودر ، وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له أصحابه ، وجمعوا له الاموال للتخفيف عنه . وكذلك كان يفعل الاخشيد مع التجار الاغنياء (٥) . ومن القصص التي تذكر في هذا المجال أن الاخشيد كان في أحد الايام خارجا للصيد بظاهر دمشق ، فرأى حماما فأرسل عليه الجارح فأخذه ، فاذا مع الحمام كتاب من الراشدي (٦) الى بعض الدمشقيين يقول فيه : قد حصل عندك تمام ثمانين ألف دينار . فأحضر الاخشيد الرجل ، وطالبه بالمال وأخذه منه (٧) .

وسار الحمدانيون على نفس الخطة . فقد قام سيف الدولة بمصادرة الاموال ، كما كان يصادر التركات . وكان قاضيه أبو الحسين الرقي يقول : التركة لسيف الدولة وليس لابي الحسين الا أخذ الجعاله . وشاع بين الناس القول : من هلك ، فلسيف الدولة ما ملك . وأدت ساسة سيف الدولة في المصادرة الى كره اهالي دمشق له ، وبخاصة حين أدركوا مطامعه في غوطة دمشق لاعجابه بها ، من الحديث الذي دار بينه وبين أحد رجالات دمشق المسمى بالعقيقي ، اذ صرح له بقوله : ــ بعد أن أوضح له الاخير بأن غوطة دمشق تعود ملكيتها الى أسر مختلفة ــ بأنهم سيتركوها اذا استولت عليها القوانين السلطانية (٨) .

ولا بد لنا ونحن في معرض الحديث عن الاوضاع الاقتصادية في بلاد الشام ، من القول بأن الضرائب بأنواعها في الشام في هذه الفترة ، كانت تختلف من وقت الى آخر حسب الازمان والاحوال . وقد ترك لنا المؤرخون تقديرات لما كان يحمل منها الى بيت المال في بغداد . تعطينا فكرة واضحة عن الاوضاع الاقتصادية في المنطقة ، وأول قائمة وصلتنا من قوائم العصر العباسي هي القائمة التي أوردها الجهشياري (٩) ، وهي التي عرضت على يحيى البرمكي ، وتنص في جملة ما تنص على ما كان يحمل من الشام الى بيت المال في بغداد في عهد الخلفة هارون الرشيد ، وقد جاء فيها ما يلي :

قنسرين والعواصم ــ أربعمائة وتسعون ألف دينار

حمص ــ ثلاثمائة وعشرون ألف دينار

دمشق ــ أربعمائة وعشرون ألف دينار

الاردن ــ ستة وتسعون ألف دينار
فلسطين ــ ثلاثمائة وعشرون ألف دينار

واضاف بأنه من جميع أجناد الشام من الزبيب يحمل ثلاثمائة ألف رطل .

وبلغ بذلك مجموع ما يحمل من الشام الى بغداد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد مليونا وستمائة وستة واربعين ألف دينار ، وهو مبلغ كبير ، يدل على أن خراج الشام في عهد الخليفة هارون الرشيد ، كان قريبا جدا مما كان عليه في عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك ، حيث كان الخراج مليونا وثمانمائة ألف دينار (١٠) .

وعلى الرغم من تقارب مقـدار خراج الشام في عهدي الخليفتين هارون الرشيد العباسي ، والوليد بن عبد الملك الاموي ، الذي يعتبر عهده من أزهى العهود في العصر الاموي . فلا يمكن أن نستنتج من ذلك أن الوضع الاقتصادي في الشام كان في هذه الفترة مزدهراً لاسباب منها : ــ

١ ــ ان الخليفة هارون الرشيد عاقب واليه على الشام (١١) لانه جعل من دمشق التي كانت جنة خضراء منطقة جرداء .

٢ ــ ان اهالي قرى فلسطين تركوا أراضيهم في عهد الخليفة هارون الرشيد لتشدد عماله في جباية الاموال منهم ، وتعذيب من يمتنع عن أدائها بكافة صنوف العذاب لاجبارهم على دفع ما عليهم (١٢) .

وبالتالي يمكن القول بأن ارتفاع جباية الخراج في عهد الخليفة هارون الرشيد ، يمكن أن يرد الى ارهاق الاهالي بالجباية .

وهناك قائمة أخرى أوردها قدامة بن جعفر (١٣) ذكر فيهـا ارتفاع (١٤) البلاد الاسلامية بعد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ ــ ٨٢٠ م ، وربما كان ذلك في السنوات التي تلت هذه السنة من خلافة المأمون العباسي . ومما جاء فيها عن الجباية في بلاد الشام ما يلي :

ارتفاع أعمال حمص ــ مائة وثمانية عشر الف دينار
ارتفاع جند دمشق ــ مائة وعشرة آلاف دينار
ارتفاع جند الاردن ــ مائة وتسعة آلاف دينار
ارتفاع جند فلسطين ــ مائة وخمسة وتسعون ألف دينار

ومما يلاحظ على هذه القائمة انها أقل بكثير من القائمة التي جاءت في عهد الرشيد . وقد يكون هذا الانخفاض ناتجا عن الاضطرابات الداخلية في بلاد الشام أثناء الحرب بين الامين والمأمون وبعده . كما أن هذه القائمة تهمل خراج قنسرين والعواصم . وقد يكون خراج هذه المنطقة قد انقطع في هذه الفترة بسبب ثورة نصر بن شبث العقيلي . واذا حاولنا أن نجمع الارقام التي وردت في هذه القائمة لوجدنا أن ارتفاع الشام بأجمعه بلغ خمسمائة واثنين وثلاثين الف دينار ، وهو ثلث الجباية في عهد هارون الرشيد . وهذا انما يدل على سوء الاحوال الاقتصادية في الشام ، او على خروج مناطق كثيرة من الشام عن طاعة العباسيين .

وهناك قائمة أخرى أوردها ابن خلدون (١٥) عن الجباية في عهد المأمون . ويحتمل ان تكون هذه القائمة قد سجلت جباية الشام بعد أن استقرت أمورها للمأمون ، وقد جاء فيها :

ارتفاع قنسرين والعواصم ـ اربعمائة ألف دينار وألف حمل زيت
ارتفاع دمشق ـ اربعمائة وعشرون الف دينار
ارتفاع الاردن ـ سبعة وتسعون ألف دينار
ارتفاع فلسطين ـ ثلاثمائة وعشرة آلاف دينار وثلاثمائة الف رطل زيت

والملاحظ في هذه القائمة أنها اهملت خراج حمص ، كما انها تعتبر عودة بخراج الشام لما كان عليه في أيام الخليفة هارون الرشيد . فقد بلغ ارتفاع الشام بأجمعه مليونا ومائتين وسبعة وعشرين ألف دينار ، أي أن الجباية زادت عن الضعف في الفترة بين سنتي ٢٠٤هـ / ٨١٩ ـ ٨٢٠ م والقائمة الثانية في عهد المأمون التي يجب أن تكون قبل سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٣٤ م وهي سنة وفاته .

وتدل قائمة الجباية التي وردت في أيام الخليفة المعتصم عن انخفاض خراج الشام عما كان عليه في عهد الخليفة المأمون . وبشكل خاص في دمشق التي انخفض خراجها من اربعمائة وعشرين الف دينار الى مائة وعشرة آلاف دينار اي الى الربع ، وكذلك في فلسطين . بينما ارتفعت الجباية في الاردن قليلا . ويبلغ مجموع الجباية فيالشام حسب هذه القائمة مليونا ومائة واثنين وتسعين الف دينار . ويبدو أن انخفاض الجباية في دمشق وفلسطين كان بسبب ثورة المقنع

اليماني التي قامت في منطقة فلسطين (١٦) . وثورة زعار أهل الغوطة على الخليفة المعتصم بحسب راي ابن العديم في البغية (١٧) . اما تفاصيل هذه القائمة فقد وردت كما يلي :

جباية قنسرين والعواصم ـ ثلاثمائة وستون ألف دينار
جباية جند حمص ـ مائتان وثمانية عشر ألف دينار
جباية جند دمشق ـ مائة وعشرة آلاف دينار
جباية جند دمشق مائة وعشرة آلاف دينار
جباية فلسطين ـ مائتان وتسعة وخمسون ألف دينار (١٨)

وهناك قائمة أخرى للجباية في أواسط القرن الثالث الهجري جاء فيها عن جباية الشام ما يلي :

جباية قنسرين والعواصم ـ اربعمائة ألف دينار
جباية جند حمص ـ ثلاثمائة وأربعون ألف دينار
جباية جند دمشق ـ أربعمائة وعشرة آلاف دينار
جباية جند الاردن ـ ثلاثمائة وخمسون ألف دينار
جباية جند فلسطين ـ خمسمائة ألف دينار (١٩)

والملاحظ في هذه القائمة ، ارتفاع الجباية في دمشق وعودتها الى ما كانت عليه في عهد الخليفة المأمون . أما جباية فلسطين فقد بلغت شأواً بعيداً ، وقاربت جباية الشام بكامله في القائمة التي وردت بعد سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩ ـ ٨٢٠ م وارتفعت جباية الاردن بشكل لم نره في أي قائمة أخرى . فقد تجاوزت ثلاثة أمثال ما جاء في الجباية في سائر القوائم الاخرى . وبلغ مجمل جباية الشام في هذه القائمة مليونا وتسعمائة وتسعين ألف دينار ، وهي اكبر جباية عرفتها الشام في سائر العهود . واذا كانت الارقام التي وردت في هذه القائمة صحيحة، فان ذلك يدل على غبن أهالي الشام وزيادة الضرائب عليهم في تلك الفترة ، وبخاصة اذا علمنا أنه لم تحدث أية اصلاحات اقتصادية في هذه الفترة ؛ بل كان الاقتصاد في تدهور مستمر .

وفي قائمة سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ ـ ٩١٩ م ، وهي قائمة علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر ، اختلف الامر عن غيرها من القوائم التي سبقتها ، فحين

يذكر جباية المشرق يذكر لكل بلد رقمين يضع أمام أحدهما انه للخراج ، والآخر للضياع . أما للدلالة على الارقام التي ذكرها عن جباية المغرب بما فيها بلاد الشام ، فكان يذكر أمام الرقم الاول كلمة مال ، ولم يذكر شيئا أمام الرقم الثاني (٢٠) . وقد يكون ذلك دلالة على جباية عينية . وقد ورد فيها بالنسبة للجباية في الشام مقدرة بالدنانير ما يلي :

جند فلسطين	٨٠٧٥٠	مال	و	٢٣٠٦٤٧	=	٣١١٣٩٧
جند الاردن	٤٠٤٦٠	مال	و	١٠٢٠٦٢	=	١٤٢٥٢٢
جند دمشق	١١٣٠٥٧	مال	و	٣١٥٣٠٠	=	٤٢٨٣٥٧
جند حمص	٢٠٠٤٦٠	مال	و	١١٥١١٤	=	٣١٥٥٧٤
قنسرين والعواصم	١٣٣٠٩٧	مال	و	٣٥٢٥٧٠	=	٤٨٥٦٦٧
دلوك ورعبان				١٥٧٦٥	=	١٥٧٦٥
الثغور الشامية سوى						
ما صولح عليه احمد بن الحسين الكاتب				٥٢٩٨٥	=	٥٢٩٨٥
شمشاط وحصن منصور وكيسوم						
بعد الموضوع أي بعد الذي						
أسقط	٥٣٩٧	مال	و	٦٥٣٣٢	=	٧٠٧٢٩
ارزن وميافارقين	٥٦٧٥٠	مال	و	٨٢٤٢٢	=	١٣٩١٧٢

وأهم ما يتضح في هذه القائمة هو ان جباية كل مدينة من مدن الثغور قد أصبح منفصلا . فكأن كل ثغر له شؤونه الخاصة منفرداً عن غيره . وبلغ مجموع هذه القائمة مليونا وتسع مائة واثنين وستين الفا ومائة وثمانية وستين ديناراً أي ما يقارب مليوني دينار .

أما تقدير خراج الشام في القرن الرابع فلم يكن ثابتا . فقد احتل البيزنطيون سواحل الشام شمالي طرابلس ، الى جانب ما استولوا عليه من الثغور ، ولذلك لم تعد جبايتها تعرف على وجه الدقة يضاف الى ذلك أن بلاد الشام في تلك الفترة كانت مضطربة سياسياً . وموزعة بين دويلات وحكام يتنازعون السيطرة عليها . ويقدر ابن حوقل (٢١) خراج الشام بعد دفع أرزاق العمال بتسعة وثلاثين مليون درهم . هذا واذا اعتبرنا الدينار يساوي خمسة عشر درهماً ، كان خراج الشام يساوي مليونين وستين الف دينار وهو رقم قياسي .

وقد أمدنا المقدسي بقائمة اخرى عن خراج الشام ، ذكر فيها ما يلي :

جباية قنسرين — ثلاثمائة وستون ألف دينار
جباية الاردن — مائة وسبعون ألف دينار
جباية فلسطين — مائتان وتسعة وخمسون الف دينار
جباية دمشق — أربعمائة ألف دينار ونيف (٢٢)

ومن استقراء قوائم الجباية في فترة البحث (١٣٢ — ٣٥٩ هـ) يتضح ما يلي :

١ — ان الجباية كانت تتدهور في فترة الاضطراب والثورات .

٢ — ان جباية الاردن وفلسطين زادت بشكل ملحوظ وكبير في أواسط القرن الثالث للهجرة . وقد يكون ذلك احد أسباب ثورة المقنع في فلسطين ، والتي كانت تضم عدداً كبيراً من المزارعين .

٣ — ان خراج الشام في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع ، أصبح أكثر من خراجها في أيام الدولة الاموية ، كما اصبح لكل ثغر من الثغور جباية خاصة .

٤ — ان خراج دمشق تراوح بين اربعمائة وأربعمائة وعشرين ألف دينار وهو قريب لما كان عليه في عهد معاوية حيث بلغ أربعمائة وخمسين ألف دينار . ولم ينخفض خراج دمشق عن هذا المستوى الا في القائمة التي وردت عن الجباية في عهد الخليفة المعتصم .

٥ — ان ثبات مقدار الخراج في الوقت الذي ساءت فيه أحوال بلاد الشام انما يدل على ارهاق ولاة العباسيين لاهل الشام دون ما نظر الى أحوالهم الاقتصادية .

الثروة الزراعية والحيوانية

آ — الثروة الزراعية :

لم يلاحظ اي تقدم زراعي في بلاد الشام في هذه الفترة ، بل ان ما يبدو ظاهرا للعيان ، سير البلاد نحو التأخر الزراعي . ويتضح ذلك جليا من الحديث

الذي دار بين الخليفة هارون الرشيد وبين واليه على دمشق الحسين بن عمار. فقد استاء الرشيد من هذا التأخر الزراعي ، وعزل واليه وعاقبه جزاء ما كان يفعله ، لان دمشق حين وليها كانت جنة خضراء ، فأصبحت أجرد من الصخر واوحش من القفر ، وانها لم تعد تغذي بيت المال كما كانت من قبل . وكان رد الوالي ابلغ من كلام الخليفة الرشيد حين أفهمه ان اهالي الشام استاؤوا من معاملة العباسيين لهم بشكل عام ، ولذلك فانهم تفرقوا في ميادين التعدي، وراوا ترك العمارة ليوقعوا الضرر بالسلطان ، كما انهم ارادوا بذلك ان يشقوا على ولاة العباسيين ، واليك نص هذا الحديث بين العاهلين ، قال هارون الرشيد لواليه الحسين بن عمار : (وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر ، تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري ، فما برح بك التعدي لارفاقهم أن جعلتها اجرد من الصخر ، واوحش من القفر . قال والله يا امير المؤمنين ما قصدت لغير التوفيق من جهته . ولكني رايت اقواما ثقل الحق على اعناقهم فتفرقوا في ميادين التعدي . وراوا المراغمة بترك العمارة أوقع باضرار السلطان . وارادوا بذلك المشقة على الولاة . وان سخط امير المؤمنين قد أخذ بالحظ الاوفر من مساءتي) (٢٣) .

ويمكن أن نعزو اسباب التأخر الزراعي في بلاد الشام في تلك الفترة الى الاسباب الاتية :

١ ـ لم يقم ولاة العباسيين ومن حكم الشام بعدهم باصلاحات غايتها تنمية الثروة الزراعية في بلاد الشام . فقد استمر الري على ما كان عليه أيام الخلافة الاموية ، الا ما كان من الخليفة المأمون ، الذي امر بحفر قناة من نهر منين مارة بسفح جبل قاسيون الى معسكره بدير مران (٢٤) . وما قام به سيف الدولة من حفر قناة في مدينة ميافارقين لسوق المياه اليها (٢٥) .

٢ ـ معاناة أهالي الشام من كثرة الخراج . ومما يذكر في هذا الصدد أن بعض اهالي قرى فلسطين تركوا اراضيهم ، فوجه الخليفة هارون الرشيد اليهم أحد كبار قواده يدعوهم للرجوع الى اراضيهم على ان يخفف عنهم من خراجهم ، وان يعاملوا معاملة احسن مما مضى ، فرجعوا ، هؤلاء هم أصحاب التخافيف . ثم عاد قوم منهم بعد ذلك فردت عليهم أراضيهم على مثل ما كانوا عليه وهم أصحاب الردود (٢٦) .

ومن المرجح أن أهالي قرى فلسطين تركوا اراضيهم في هذه الفترة لتشدد عمال الرشيد في جباية الاموال من الاهالي . فقد أخذ عماله يطالبون بالاموال ويعذبون من يمتنع عن أدائها بكافة صنوف العذاب لاجبارهم على دفع ما عليهم (٢٧) .

٣ ـ قيام العباسيين ثم من جاء بعدهم في حكم الشام من أمراء الامارات بمصادرة اراضي السكان (٢٨) ، من ذلك استيلاؤهم على ضياع آل مروان كبالس وقراها التي كانت لورثة مسلمة بن عبد الملك ، وأقطعت الى سليمان ابن علي (٢٩) ، وكذلك استولوا على رصافة هشام ، الى جانب ضياع أخرى واسعة . وسميت هذه الضياع ضياع الخلافة (٣٠) . واستولى العباسيون فيما استولوا عليه على دار الصباغين في الرملة وسلمت الى صالح بن علي والى ورثته من بعده (٣١) .

وقد اغتصب الحمدانيون كثيراً من الاراضي ، كما أنهم كثيرا ما ضايقوا أصحاب الاراضي حتى يلجئونهم الى بيع ما يملكون . كما جلا كثير من أهالي المناطق عن اراضيهم ، وممن جلا بنو حبيب وهم بنو عم بني حمدان . فقد خرجوا بذراريهم ومواشيهم في اثني عشر ألف فارس الى الاراضي البيزنطية ، مما جعل المنطقة شمالي البلاد في حالة سيئة . وكان بنو حمدان يصادرون اراضي من جلا عن البلاد ، حتى أصبحوا من أغنى ملوك الاسلام في عهدهم الى جانب عبد الرحمن الثالث خليفة الاندلس (٣٢) .

٤ ـ الحروب المختلفة التي تعرضت لها بلاد الشام في هذه الفترة ، نتيجة التنافس الحاد بين الامراء على حكمها ، ولاسباب أخرى متعددة . وقد أسفر ذلك عن نقصان الثروة الزراعية في البلاد وتأخرها . فمما يذكر أن حلب كانت من اكثر المدائن شجرا حسبما يستدل من اشعار الصنوبري (٣٣) ، الا ان هذه الثروة الزراعية الضخمة تعرضت للقطع والاتلاف في حوادث متعددة ، ففي المعارك التي نشبت بين سيف الدولة بن حمدان والاخشيد للاستيلاء على المدينة ، تطوع الاخشيد أثناء الحصار بقطع هذه الاشجار ، غير انه اضطر بعد ذلك لترك المدينة الى سيف الدولة . وجاء الاخير وفعل بها مثل ما فعله سابقه ، وتكرر ذلك حتى فني ما بها من شجر . ثم اكمل ذلك نقفور فوكاس امبراطور البيزنطيين حين نزل عليها سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م (٣٤) .

٥ ـ لم يحرص الحمدانيون على الاشجار والبساتين ، فكثيرا ما اقتلعوا الاشجار وزرعوا مكانها محاصيل موسمية . ففي سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤-٩٤٥ م، وحين اغلقت حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدولة ، اقتلع جنـده كـل الاشجار الجميلة المحيطة بهذه المدينة ، واشجار الفاكهة والبساتين ، وزرعوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والارز والسمسم (٣٥) .

وقد شعر أهالي الشام بتأخر بلادهم الزراعي ، فقاموا ببعض التحركات التي من شأنها اشعار السلطة بأوضاعهم السيئة . وحاول خلفاء العباسيين اتخـاذ بعض الاجراءات الاقتصادية لرفع مستوى البـلاد الاقتصادي ، أو بالاحرى العودة بها الى ما كانت عليه في عهد الامويين . فقد تصدى الخليفة المأمون لتعديل أراضي الشام ، ففرق المساح في كافة أجنادها ، واقام شتاء سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م كله في دمشق لهذه الغاية (٣٦) ، ثم وضع كشفا جديداً لهـا .

ويبدو أن هذه الاجراءات الاقتصادية لم ترق للاهالي في كثير من الاحيان، وكانوا يظنون أن العباسيين قاموا بما قاموا به لزيادة الدخل الوارد اليهم من الاراضي (٣٧) .

وكان العامل الاقتصادي أحد أسباب ثورة المقنع اليماني في فلسطين في خلافة المعتصم ، اذ يتضح ذلك جليا حين نعلم أن انصاره كانوا مائة الف ، كان منهم ما يزيد على ثمانية وتسعين الفا من ارباب الزراعة . ولذلك فان رجاء بن أيوب الحضاري امتنع عن الاصطدام به مباشرة ، وعسكر بازائه حتى جاء موسم حراثة الارض ، فانصرف من كان معـه من الحراثين واصحاب الاراضي للقيام بشؤون الارض . وبقي المقنع في زهاء الف أو الفين (٣٨) .

ويتضح أن هؤلاء الزراع لم يكونوا من جند فلسطين وحدها ، بل كان منهم جنود من كافـة أجناد الشام ، فيذكر ابن العديم أن رجاء بـن ايوب الحضاري حضر لقتال جماعة من زعار أهل الغوطة (٣٩) ، وذلك حين يذكر قدومه لقتال المقنع .

وعلى الرغم مما ذكر عن تأخر بلاد الشام زراعياً ، فان بلاد الشام استمرت في زراعة المزروعات التي كانت تصلح لها تربة ومناخا وموقعا ، كما حدث وأدخلت بعض المزروعات الجديدة في هذه الفترة الى البلاد ، كالقطن

الذي أدخله الحمدانيون الى شمال بلاد الشام (٤٠) . كما استمر نظام الري المتبع في الشام على ما كان عليه . وكان هذا النظام يعتمد على مياه الامطار في مناطق كثيرة ، وعلى مياه الانهار في مناطق اخرى . فكمثال على نظام السقاية ، يمكننا أن نذكر الاراضي المحيطة بمدينة دمشق ، حيث كانت تروى من مياه نهر بردى . وكانت شبكة مياهه مع مياه عين الفيجة ، تسقي عامة دور دمشق وسككها وحماماتها (٤١) .

فمن المعروف أن نهر بردى يتفرع الى سبعة فروع قبل دخوله مدينة دمشق . وكان كل فرع من هذه الفروع ينقسم الى أقسام كثيرة تتفرع في المدينة بمقادير معلومة ، وتجري في قنوات مدفونة في الارض الى ان تصل الى مستحقيها بالدور والاماكن الاخرى حسب التقسيم . ثم تنصب فضلات الماء والبرك والمجاري الى قني معقودة تحت الارض حيث تجتمع ثانية في مجرى واحد ، ويبدأ توزيعها في ظاهر المدينة لسقي البساتين (٤٢) .

وبذلك يمكن القول أن الزراعة في دمشق وغوطتها تعتمد على ماء بردى وفروعه ، الا بعضها فيعتمد على مياه الامطار . وقد كانت مساحة غوطة دمشق في أيام الاصطخري مرحلة في مرحلتين (٤٣) ، وتحيط بها المياه الكثيرة التي تسقي الاشجار والزروع المتصلة (٤٤) . وكانت انطاكية كمدينة دمشق بها مياه تجري في دورها وسككها وتسقي القرى الخصبة المحيطة بها (٤٥)

أما المناطق المعتمدة على مياه الامطار فمتعددة . فجند فلسطين يعتمد في سقايته على ماء المطر ما عدا نابلس ، فان بها مياهاً جارية . ولم تكن عيون المياه في مدينة القدس تتسع لري مزروعاتها . وكانت حمص تعتمد في زراعتها على ماء المطر وكذلك معرة النعمان وما حولها من القرى وجند قنسرين (٤٦) .

واشهر مزروعات بلاد الشام الحبوب بأنواعها ، كالقمح والشعير والذرة والارز والبسلة والجلبان واللوبيا والحلبة والسمسم والقرطم (٤٧) . وكانت تزرع في مناطق متعددة ، وبشكل خاص في حوران والبثنية (٤٨) ، وبالس (٤٩) .

كما اشتهرت بلاد الشام بزراعة الزيتون . وأشهر مناطق زراعته فلسطين، ونخص بالذكر منها نابلس ، وكذلك المنطقة الواقعة جنوبي بيت لحم ، وأكثر جبال فلسطين (٥٠) . وكذلك حلب ، وبشكل خاص سرمين (٥١) وبطياس . وقد أكد الشاعر الصنوبري لنا ذلك في شعره حيث يقول :

انى طربت الى زيتــون بطياس بالصالحية ذات الورد والآس(٥٢)

ولزراعة الكروم شهرة خاصة في الشام حتى تكاد لا تخلو منها منطقة من المناطق . وقد ذكر ابن حوقل أن اهالي مدينة زعر القريبة من البحر الميت ، واهالي فلسطين عامة كانوا يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخيل بالطلع (٥٣) . والحقيقة أن أهالي فلسطين عامة كانوا يلقحون كرومهم بالحمر الذي يستخرجونه مــن البحر الميت لتبقى عنــاقيده سليمة ، ولئلا تتلف بالدود (٥٤) . ومــن المناطق الاخرى التي اشتهرت بزراعة الكروم بعلبــك ، وجبل مؤاب (٥٥) ، ومنطقة غزه (٥٦) . أما في شمالي بلاد الشام فتتصدر قنسرين زراعته ، وكذلك منبج معتمدة على مياه الامطار (٥٧) .

وكان تفاح الشام مضرب المثل في الجودة ، وكان يحمل منه الى الخلفاء في كل سنة ثلاثون الف تفاحة ، ويقال أنها كانت في العراق أعبق منهــا في الشام (٥٨) . ومن المناطق التي كان يزرع فيها ، حبرون في فلسطين (٥٩) .

وزرعت بلاد الشام النارنج والاترج (٦٠) . وقد حمل اليها من الهند بعد الثلاثمائة للهجرة . وقد كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية مثل انطاكية ، وكذلك في سواحل الشام بما فيهــا فلسطين . ويقال أن ثمار النارنج في فلسطين كانت أحسن منها في غيرها من البلاد (٦١) .

وزرع قصب السكر في بلاد الشام وبشكل خاص في مدينة صور . وبلغ من شهرة مدينة صور بزراعته ، أن بعض أهالي مدينة البندقية ، اتخذوا بهــا أيام الحروب الصليبية مزرعة من القصب (٦٢) . وكذلك اشتهرت بيروت وطبرية بزراعته (٦٣) وغيرها (٦٤) .

وكان الهليون يزرع في بلاد الشام (٦٥) . ومما يؤيد ذلك أن بعض الشعراء أنشد الخليفــة المستكفي يصف الهليون ، فالتفت اليــه الخليفة موضحا أن الهليون يتعذر وجوده بنفس الوصف في بغداد ، واذا كان لا بد من الحصول عليه فيجب الكتابة الى الاخشيد ليحمل ذلك مــن نواحي دمشق (٦٦) . كما زرع القلقاس في فلسطين (٦٧) .

واشتهرت مناطق متعددة في الشام بزراعة النخيل ، منها منطقة الغور ، وبشكل خاص في المنطقة الممتدة مــن الشراة الى الحولــة (٦٨) . وفي بيروت واسكندرونة وعين زربة (٦٩) وفي بياس (٧٠) وبيسان والرملة (٧١) ، وفي غزة (٧٢) .

كما اشتهرت بلاد الشام بالفواكه ، فقد زرع الموز في المنطقة الممتدة من الشراة الى الحولة (٧٣) ، كما زرع التين في اكثر جبال فلسطين ، وفي الرملة(٧٤). وغزة (٧٥) وفي قنسرين (٧٦) . وزرع الجميز في جبال فلسطين (٧٧) . كما زرع الجوز واللوز وسائر الثمار الشتوية والصيفية في الجبال المحيطة بملطية ومنطقة القدس (٧٨) . وزرع الفستق في قنسرين . والرمان في ملطية وشيزر وحارم(٧٩) . وكان للرمان في ذلك الوقت أهمية كبيرة . فقد ذكر أن سفنا كثيرة كانت تسير في الفرات قاصدة بغداد ، محملة بقراقير الرمان من بلاد الشام الى جانب أطواف الزيت والخشب (٨٠) . أما التوت فقد زرع في منبج . وهناك فواكه أخرى اشتهرت بها الشام مثل القراصيا والبرقوق والمشمش والخوخ والكمثرى والسفرجل والليمون والكباد (٨١) .

كما اشتهرت بلاد الشام بمزروعات أخرى منها البطيخ والقثاء والملوخيا والباذنجان واللفت والجزر والقنبيط والبقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة (٨٢) .

وقد عرفت زراعة القطن اعتبارا من النصف الاول من القرن الرابع الهجري ، نقله الحمدانيون الى شمال بلاد الشام (٨٣) . ويبدو أن هذه الزراعة انتقلت في فترة بسيطة الى جنوب بلاد الشام ، اذ يحدثنا المقدسي من أنه رأى القطن يزرع في المناطق القريبة من الحولة (٨٤) .

واشتهرت بلاد الشام أيضا بزراعة أنواع متعددة من الزهور والرياحين . خلدها الشاعران الصنوبري وكشاجم (٨٥) ، اللذان ذخرت أشعارهما بوصفها . ومن رياحين الشام الورود والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرين والآس (٨٦) .

وكانت بلاد الشام مجمعا للاخشاب ، فحصن التينات على شاطىء البحر بالقرب من الاسكندرونة كان مجمعا لخشب الصنوبر الذي ينقل منه الى سائر مناطق الشام ، والى مصر والثغور (٨٧) . وكذلك كانت جبال لبنان مستودعا للاخشاب الصالحة لبناء السفن ، التي تستخدم محليا ، وتصدر أيضا ، وخاصة الى مصر .

ويتضح من عرض المزروعات التي عرفتها بلاد الشام في الفترة موضع البحث ، أن الجبال الساحلية كانت مشجرة على الغالب ، وهي ذات قرى

وعيون ومزارع . وكانت الاغوار كذلك ذات قرى وأنهار ونخيل . وكان على سيف البادية قرى وفيها عيون ، وتزرع بها الاشجار (٨٨) .

ب ـ الثروة الحيوانية :

تنوعت الثروة الحيوانية في بلاد الشام في هذه الفترة ، فقد ربيت الاغنام في منطقة عمان (٨٩) ، وكذلك الجاموس الذي أصبح له مكانة خاصة في بلاد الشام منذ أن أدخل اليها في اواخر العصر الاموي . فقد شكا الاهالي كثـرة هجوم السباع عليهم ، فأمرت الحكومة بوضع أربع آلاف جاموسة على حدود البلاد الشمالية ، لان الجاموس يعتبر اكبر عدو للاسود (٩٠) . وانتشرت تربيته من شمالي بلاد الشام الى جنوبيها ، فاغتنى أهالي فلسطين بتربيته واعتمدوا في غذائهم على لبنه ولحمه . واستخدم في مناطق كثيرة في الشام للاعمال الزراعية ، وقد انتقل عن طريق الشام الى ايطاليا والاندلس (٩١) .

أما البقر فلم يكن لحمه مستساغا ، وانما كان يربى للانتفاع بلبنه . فبعد أن كان الناس يأكلون لحمه في القرن الثاني الهجري ، ذاع بينهم أن لحمه ضار بالصحة ، بل ان بعض الاطباء كان يعتبره ساما ، وكان ابو بكر الرازي لا يوصي الا بلبن الغنم ولحم الضان (٩٢) .

والى جانب ذلك اهتم أهالي الشام بتربية الخيل والبغال والحمير ، ومن الطيور اهتموا بتربية الاوز والدجاج والحمام (٩٣) .

وقد برع أهالي الشام في تربية النحل لاستخراج العسل . وكان العسل عندهم أنواعا متميزة ، وأحسنه ما رعى السعتر في الاراضي المحيطة بالقدس وجبل عاملة (٩٤) .

أما السمك فقد كان يستخرجه أهالي الشام من طبرية ، وأشهر انواعه السمك البني الذي حمل اليها من واسط (٩٥) . كما كانوا يستخرجون السمك من خليج العقبة (٩٦) .

الصنـاعـة

اشتهرت بلاد الشام في فترة البحث ، بعدد مـن الصناعات النسيجية والمعدنية والغذائية . ففي معرض الصناعات النسيجية ، اشتهرت مدينة دمشق

بالذات بصناعة الاقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى الدمقس (دامسكو) (٩٧). كما عرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره (٩٨) . واشتهرت حمص بنوع من الاقمشة ، تقارب تلك المصنعة في مدينة الاسكندرية من حيث الجودة والحسن(٩٩) . كما ان مدينة طبرية كانت تنسج نسيجا أبيض تصنعه ثيابا . وكان ثمن الثوب منه اربعمائة درهم لجودته ، في نفس الوقت الذي كان غيره من الاثواب يساوي مائة درهم فقط (١٠٠) . وكان الدمشقيون يستخدمون الصباغ في تلوين الملابس ، وكانوا بارعين في صناعته (١٠١) .

واشتهرت كذلك عسقلان بوجود حرير فائق فيها (١٠٢) ، وبلغت بذلك صناعة المنسوجات الحريرية في الشام درجة كبيرة من الرقي ، كمثيلاتها في فارس والعراق .

وكذلك اشتهرت أعناك في نواحي حوران بصناعة البسط ، وبصناعة نوع جيد من الاكسية (١٠٣) ، كما اشتهرت بلاد الشام كغيرها من سائر البلاد الاسلامية بصناعة الحصر (١٠٤) ، وبشكل خاص سكان قدس بالقرب من طبرية الذين اشتهروا بفتل الحبال الى جانب صنع الحصر (١٠٥) .

أما الصناعات المعدنية ، فكانت بسيطة ، ولكنها ذات اهمية كبيرة بالنسبة لذلك العصر . فقد اشتهرت دمشق بصناعة القسي ، وكانت قسيها معروفة بدقة الصناعة،كما برع أهالي الشام في صناعة الفسيفساء . وقد شاهد الرحالة المقدسي جدران أروقة المسجد الحرام وقد زينت بالفسيفساء التي حملها صناع الشام ومصر (١٠٦) . واستمر أهالي الشام ببراعتهم في هذه الصناعة ، فتركوا لنا نموذجا جميلا في قبة الظاهرية في دمشق (١٠٧) .

كما حافظت بلاد الشام على الرغم من كل ما تعرضت له ، على شهرتها في صناعة الخزف وبشكل خاص المنقوش منه . وكذلك برع أهالي الشام في صناعة الزجاج . وقد وصف زجاج الشام من قبل كثير من المؤرخين والرحالة ، وضرب به المثل في الرقة والصفاء ، حتى يقال ارق من زجاج الشام ، وأصفى من زجاج الشام (١٠٨) . وقد مهر أهل الشام في زخرفة الزجاج بالذهب وتلوينه بألوان أخرى . وبلغوا في ذلك درجة كبيرة من الاتقان . وكان الزجاج الملون المطلي بالميناء يصدر الى كثير من جهات العالم (١٠٩) .

وكان بالقرب من بيروت (١١٠) وفي ضواحي دمشق ولا سيما في داريا مناجم للحديد ، ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات ، واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه . وقد اتقن اهالي دمشق بواسطة هذه المادة صناعة السيوف ، ولشهرة سيوف دمشق فقد امر خمارويه بن احمد بن طولون بصناعة سبعة عشر سيفا دمشقيا لغلمانه مقابل سيوفهم التي تبرعوا بها للاعرابي الذي مدحه (١١١) . وقد نقل الصليبيون سر هذه الصناعة الى بلادهم . واستمر الصناع الدمشقيون محتفظين بتفوقهم في هذه الصناعة الى ان سباهم تيمورلنك، فماتت هذه الصناعة في دمشق لتزدهر في بلاد العجم (١١٢) .

وابدع اهل دمشق في ترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة ، كما ابدعوا في النقش على الخشب . فقد اكتشف تابوت من خشب الجوز للسيدة سكينه بنت الحسين بن علي ، وعليه نقوش عربية نفيسة ، وكتابة كوفية يرجع تاريخها الى سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ ـ ٩٥١ م . وعلى الرغم من الشك في التاريخ الذي ورد على هذا التابوت ، لان السيدة سكينة توفيت قبل هذا التاريخ بكثير ، الا انه من الجائز ان يكون هذا التابوت قد صنع لها بعد فترة من وفاتها ، أو انه كان لغيرها . فما يهمنا هو النقوش العربية الجميلة التي نقشت عليه (١١٣) ، وما فيها من مهارة واتقان .

وقد وجد في بيت جبريل في فلسطين مقاطع للرخام . كما وجد في منطقة عمان جبال بيض من الحوارة التي تستعمل في طلاء سقوف المنازل باللون الابيض . كما كانت توضع منه طبقة فوق سطوح المنازل . كما اشتهرت فلسطين بمقاطع حجارة بيضاء استخدمت في البناء (١١٤) . واستخرج الكبريت من منطقة الاغوار، كما استخرج الملح من البحر الميت (١١٥) . واستخدم الحمر في تلقيح الكروم في فلسطين (١١٦) .

واشتهرت دمشق وطبرية وطرابلس الشام بصناعة الورق (١١٧) . كما مهر أهل الشام في تجليد الكتب . وقد برع الرحالة المقدسي في التجليد على طريقة أهل الشام . وكان يطلب منه تجليد الكتب كلما حل بمنطقة . فقد زار اليمن ونزل في عدن ، فأعجبوا بتجليده ، ودفعوا له دينارين في تجليد المصحف (١١٨) .

وكذلك اشتهرت بيت المقدس بصناعة السبح لكثرة زوار المسجد الاقصى، ولا تزال هذه الصناعة مزدهرة الى اليوم (١١٩) .

اما الصناعات الغذائية ، فعلى رأسها صناعة الصابون . وكانت بالس وحلب مشهورتين بصناعته (١٢٠) . كذلك اشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت المستخرج من الزيتون (١٢١) ، والذي كان من أهم خصائصه الصفاء والنظافة . وكان الزيت يحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب . ولما بلغ البيزنطيون هذه المدينة سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م عمدوا الى هذه الجباب ، فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الارض (١٢٢) . وكانت الشام تمد البلاد الاسلامية بما تحتاجه من الزيت الذي كان يعرف بالركابي ، لانه كان يحمل على الابل من الشام (١٢٣) .

النشاط التجاري

مما لا شك فيه أن التجارة تحتاج في نشاطها وازدهارها الى توفر عناصر متعددة أهمها انتشار الامن ، وسهولة الانتقال من مكان الى آخر دون عوائق ، وتوفرّ الحماية لاموال التجارة من المصادرة وغيرها ، الى جانب وجود أسواق مزدهرة تصرف فيها هذه البضائع . واذا حاولنا أن نناقش هذه الامور في بلاد الشام في فترة البحث ، لوجدنا ما يلي :

١ ــ ان بلاد الشام في معظم فترة البحث لم تخضع في حكمها لوال واحد ، بل انها في كثير من الاحيان كانت توزع على ولاة متعددين . فقد كان يعين لكل جند من أجناد الشام وال مستقل عن الآخر تمام الاستقلال . ومما لا شك فيه ان هذا الاستقلال بين أجناد البلد الواحد كان من أكبر الدواعي لتأخر التجارة في هذه المنطقة ، لانه كان يشكل عوائق على حركتها . فبعد أن كان التجار الذين يمرون في الشام يدفعون على تجارتهم مكوسا معلومة محددة لخزينة الدولة ، نراهم يضطرون لدفع مكوس عند انتقالهم من جند الى آخر . ومما يؤيد ذلك ما ذكره المقدسي عن مدينة بيت المقدس . فقد كان يفرض في هذه المدينة مكوسا ثقيلة على البضائع ، فضلا عما كانت تتخذه من اجراءات أخرى تقيد حريـة التجارة . فقد كان على أبوابها وعلى ما يبتاع بها رجال كانت وظيفتهم أن لايدعوا أحداً يحمل بضاعة تنفع الناس الا ويجبرونه على بيعها فيها (١٢٤) . كما فرض في الشام ضرائب حماية على كل من يملك مركبا ، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الارض (١٢٥) .

٢ ــ ان بلاد الشام كانت مضطربة سياسيا فانتشر قطاع الطرق ، وسيطر الاعراب على طرق القوافل ، وقاموا بالسلب والنهب (١٢٦) . وقد تعين على

كل قافلة تعبر الطريق أن تكون مخفورة برجال القبيلة التي تمر بأراضيها ، وعليهم أن يدفعوا مقابل ذلك اتاوة لها ، والا هلك رجالها وسلبت أموالها (١٢٧) .

٣ ـ ادت قلة الامن الى انقطاع بعض الطرق في الشام . فيذكر ابن حوقل (١٢٨) أن طريق الرقة أثناء رحلته كان منقطعاً ، ولا يمكن للتجار اتخاذه ، وهو يعلل هذا الانقطاع على التجار لسببين : أولهما الخوف من هجوم مفاجىء للبيزنطيين ، والثاني اعتراض السلطان عليهم ، وقد يكون قصد بذلك مصادرة أموالهم .

٤ ـ مصادرة أموال التجار (١٢٩) ، فقد عرف عن الاخشيد مصادرته للتجار الاغنياء (١٣٠) . كما أن الامير سيف الدولة وابنه من بعده كانا يصادران أموال التجار وبضائعهم . فقد صادر سيف الدولة التجار الذين حوصروا في بالس ـ أثناء قتاله مع كافور ـ ولم يسمح لهم بتركها الا بعد أن تنازلوا عن احمال من البز واطواف من الزيت وغير ذلك من متاجر الشام . فعل ذلك مرتين متواليتين في فترة زمنية قصيرة . وقدر ما صادره بمليون دينار . وكذلك فعل ابنه بعده ، فقد كان يصادر ما في أيدي تجار حلب (١٣١) .

٥ ـ احتكار التجارة أو بعض مواد التجارة من قبل الامراء في البلاد ، طلباً للمال . فقد كانوا يشترون البضائع من التجار ثم يعرضونها للبيع ، هذا الى جانب أن بعض الصناعات المحلية كانت تصنع لمصلحتهم وتباع لحسابهم مثل الصابون والخل (١٣٢) . ومن الامثلة عن مصادرات الاخشيد ما سبق أن أشرت اليه .

وقد ظلت التجارة مستمرة على الرغم من كل ما سبق ، بسبب موقع بلاد الشام الهام ، وكونها مصدراً من مصادر الثروة الزراعية والصناعية ، التي جعلت التجارة المورد الرئيسي لاهل البلاد .

آ ـ المعاملات التجارية والمالية :

كان التعامل المالي في بلاد الشام في أوائل القرن السابع الميلادي بالدنانير الذهبية التي كانت سائدة في الدولة البيزنطية ، وكانت تسمى بالقيصرية ، وكذلك بالدراهم الفضية الفارسية . وحين فتح العرب الشام لم يغيروا النظام المالي البيزنطي الذي كان قائماً بها ، واستمر التعامل المالي على اساسه . ومنذ

سنة ٧٦ هـ /٦٩٥ م اخذت الشام تتعامل بعملة اسلامية سكها الخليفة عبد الملك ابن مروان ، حلت مكان سابقتها البيزنطية ، وكان وزن هـذا الدينار الذهبي ٤٫٢٥ غرام وتغير وزنه بتغير العهود والحكام (١٣٣) .

وفي العصر العباسي أخذت كل مدينة كبيرة في الشام تضرب النقود . فظهرت نقود من ضرب الرافقة ، واخرى في قنسرين او حلب أو دمشق او الرمله ، وكانت هذه النقود تستعمل الى جانب الدنانير العباسية التي سكها خلفاء بني العباس في العراق (١٣٤) .

ومن الدنانير الذهبية التي شاع استعمالها في الشام الدنانير التي ضربها احمد بن طولون في مصر سنة ٢٦٦ هـ ، التي كتب على أحد وجهيها « بسم الله ضرب هـذا الدينار بمصر سنة ست وستين ومائتين » ، وعلى الوجه الآخر « لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، الله محمد رسول الله ، المعتمد على الله ، أحمد بن طولون ، محمد رسول الله ارسله . الخ (١٣٥) .

وكذلك فقد ضرب لؤلؤ مولى ابن طولون نقوداً في الرافقة مشابهة للنقود التي ضربها سيده وكتب عليها اسم لؤلؤ تحت اسم أحمد بن طولون (١٣٦) .

وضرب خمارويه نقوداً ذهبية في الرافقة سنة ٢٧٣ هـ ، وفي حران سنة ٢٧٦ هـ وهي مشابهة لما ضرب في عهد أحمد بن طولون (١٣٧) .

وقد ضرب محمد بن صفوان العقيلي في قرقيسيا سنة ٢٧٥ هـ نقوداً ضرب على أحد وجهيها « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، المفوض الى الله ،محمد، بسم الله . ضرب هذا الدينار بقرقيسيا سنة خمس وسبعين ومائتين، لله الامر» وعلى الوجه الآخر « الله ، محمد رسول الله ، المعتمد على الله ،أحمد بن الموفق، محمد بن صفوان (١٣٨) .

وقد ضربت في دمشق سنة ٢٧٦ هـ نقود مثل النقود التي ضربها خمارويه في مصر ، وهذه الاخيره على نسق النقود التي ضربها أحمد بن طولون (١٣٩) . كما ضربت نقود ذهبية في الرافقة سنة ٢٧٨ هـ . وكذلك ضربت نقود في حلب سنة ٢٨١ هـ عليها اسم المعتضد بالله وخمارويه (١٤٠) . وفي الرملة ضربت نقود سنة ٢٩٠ هـ عليها اسم المكتفي بالله ، واسم هرون بن خمارويه .

وضربت نقود ذهبية في العهد الاخشيدي معظمها في فلسطين . منهـــا ما ضرب سنة ٣٣٢ هـ وعليها اسم المتقي لله والاخشيد (١٤١) . وما ضرب في

سنة ٣٤٦ هـ وعليها اسم المطيع (١٤٢) وابو القاسم بن الاخشيد ، واخرى في سنة ٣٥٥ هـ في عهد كافور (١٤٣) .

كما ضربت فلوس نحاسية (١٤٤) في مناطق متعددة من بلاد الشام ، منها فلوس ضربت في مدينة حلب سنة ١٤٦ هـ ، ضربها الامير صالح بن علي . وهناك فلوس أخرى ضربت في قنسرين سنة ١٥٧ هـ ضربها موسى مولى أمير المؤمنين (١٤٥) . وكذلك ضربت فلوس في مدينة الرافقة سنة ١٨٩ هـ كتب على احد وجهيها « بسم الله ضرب هذا الفلس بالرافقة سنة ١٨٩ هـ » ، وعلى الوجه الآخر « بسم الله مما امر به عبد الله هرون أمير المؤمنين أعزه الله (١٤٦) . وكذلك ضربت فلوس في دمشق سنة ١٩٢ هـ (١٤٧) .

ويبدو أن استعمال الدراهم الفضية في الشام اخذ في الانتشار مع بداية القرن الرابع الهجري ، حتى أن معاملات كثيرة اخذت تجري به . فقد انفذ سيف الدولة سفتجة بثلاثة آلاف درهم الى احد رجال دولته المسمى بالناظري (١٤٨) .

وكثيراً ما كانت بعض المعاملات البسيطة تتم عن طريق المقايضة (١٤٩) . وكانت المقايضة كثيرة الانتشار في بادية الشام . ففي اثناء المساومة بين الطرفين، يضع احدهما يمينه في يمين الآخر ، فاذا قال البائع « بعت » وقال الشاري « اشتريت » ترك كل منهما يد صاحبه وتم البيع والشراء (١٥٠) .

وكانت المعاملات المالية الضخمة تتطلب وسائل للدفع مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، وبعيدة عن متناول اللصوص . ومن هذه الوسائل السفاتج أو الحوالات . وكانت تستخدم في القرنين الاول والثاني الهجريين على نطاق ضيق. ثم عم استخدامها في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين . وذلك تبعاً لنشاط التجارة ، وازدياد المعاملات المالية ، وصعوبة حمل المبالغ الكبيرة من بلد الى آخر .

وقد كثر استعمال الحكام والتجار للسفاتج على السواء . وهذه السفاتج تكون قابلة للصرف في اي بلد ، ولاي من عملائهم ، وكانوا في هذا يقومون بدور البنوك . فكان التجار يأخذون رقاعاً منهم بما لديهم من الاموال ، ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم (١٥١) .

وتذكر قصص متعددة حول استعمال السفاتج . فيحكى أن سيف الدولة ورد الى بغداد متخفياً اثناء أمرة توزون ، فاجتاز شارع دار الرقيق ، ودخل

دار بعض الفتيان فسمع وشرب معهم ، وعند خروجه استدعى دواة فكتب رقعة وتركها فيها ثم انصرف . ففتحوا الدواة ، فاذا في الرقعة الف دينار على بعض الصيارف ، فتعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفي الدنانير توآ ، فسألوه عن الرجل، فاذا هو سيف الدولة بن حمدان (١٥٢) .

وكذلك انفذ سيف الدولة سفتجة بثلاثة آلاف درهم الى أحد رجال دولته المسمى بالناظري ـ بعد أن طلب الامان وعاد اليه ـ وكان قد هرب الى كافور الاخشيدي بعد أن استولى سيف الدولة على ضيعته (١٥٣) .

كما كان الولاة يرسلون مازاد من دخل ولاياتهم الى مقر الخلافة في بغداد على شكل سفاتج (١٥٤) .

وقد وجد في بلاد الشام فنادق خصصت للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالاسواق الكبيرة . وكان التجار يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ويقفلون غرفهم بأقفال رومية .

ب ـ التجارة الداخلية :

كان لكل طائفة من التجار في بلاد الشام سوق يختص بها . وأخذت الاسواق أسماء السلع التي تبيعها ، فهناك دار بيع الفاكهة والخضار التي كانت تسمى دار البطيخ (١٥٥) . وكان الشاعر الوأواء منادياً بها ينادي على الفواكه قبل أن يصبح شاعر سيف الدولة (١٥٦) . وهنــاك سوق الصاغة ، وسوق السراجين ، وسوق الزجاجين (١٥٧) . واكبر أسواق دمشق السوق الذي يصل من باب الجابية الى باب شرقي .

كان النشاط التجاري الداخلي يتركز في أسواق المدن ، حيث كان التجار يمكثون بها الى ما بعد الظهر ، ثم يعودون الى منازلهم في المساء . وكان نظام الاسواق طولاني ، تمتد الحوانيت على طول الشارع من الجانبين (١٥٨) . وكانت أسواق دمشق من احفل الاسواق وأحسنها انتظاماً ، وكذلك كانت قيسارياتها. فقد كانت كل واحــدة منها منفردة بضبتهــا وأقفالهــا ، وابوابها مصنوعــة من الحديد ، تشبه أبواب القصور (١٥٩) . ويبدو أن ذلك كان لوقوع دمشق على طريق الحجاج الرئيسي . فقد كان الحجاج يجتمعون فيها عند ذهابهم الى مكة لاداء فريضة الحج ، وعند عودتهم منها بعد اداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع الى أسواقها . وكان يرافق قافلة الحجاج جماعة كبيرة من التجار

ليستظلوا بأمان القوة العسكرية المرافقة للقافلة ، والامثلة كثيرة (١٦٠) .
وكان طريق قوافل الحجاج الذي يجتاز بلاد الشام يمر في الطريق المحاذي لبادية الشام ، وهو الذي يمر شرقي نهر الاردن . وبعد العودة من الحج يقوم الحجاج بزيارة بيت المقدس والمسجد الاقصى ، وقبر ابراهيم الخليل . وقد ادت هذه الحركة المستمرة الى انتشار السلع في أسواق دمشق . ومن المرجح أن المدن البحرية التي لم تكن تبعد عن سوق دمشق كثيراً مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا كانت تحصل على ما تحتاج اليه من السلع من سوق دمشق (١٦١) ، الى جانب ما كانت تحصل عليه من البضائع نتيجة تجارتها البحرية مع الخارج . كما أن دمشق أصبحت مركزاً هاماً للقوافل التجارية الآتية من آسية الصغرى أو من العراق الى الجزيرة العربية ومصر (١٦٢) .

كما اشتهرت بيت المقدس كسوق ناقلة للتجارة بين الشرق والغرب . فقد كان معظم حجاج المسلمين يعملون على زيارة بيت المقدس بعد انتهاء فريضة الحج . وهناك يتقابلون في القدس مع الحجاج المسيحيين (١٦٣) ، وتتاح الفرصة للطرفين لتبادل السلع . ويقال أنه في ١٥ سبتمبر / أيلول من كل عام كان يقام في بيت المقدس سوق كبيرة يفد اليها تجار الامم المختلفة حيث يتبادلون السلع والبضائع (١٦٤) .

ولا يخف أن الانظمة التي سادت في القدس كانت لا تساعد على نشاط التجارة ، فقد كانت تفرض مكوساً باهظة على ما يباع في أسواقها . كما كان هناك رجال يقفون على أبواب المدينة ، ويجبرون التجار الذين يمرون بقربها على بيع متاجرهم فيهـا ، وخاصة اذا كان ما يحملونه مـن المواد الضرورية للسكان (١٦٥) .

وكذلك كانت انطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من اهم مراكز بلاد الشام التجارية . ومن أهم مراكز الاتصال التجاري بين الشرق والغرب (١٦٦) . ولم يكن يعوق الحركة التجارية في هذا الميناء الا وجود شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرص تسمى السفالة ، كانت تتحطم عليها السفن (١٦٧) ، وكانت بيروت سوقاً تجارية هامة يرد اليها التجار بالبضائع ، وينقلون أخرى عـن طريقها ، الى جانب ما كان فيها من غلات متوافرة . وكانت ايلة من اهم الموانىء التجارية على البحر الاحمر ، تنقل السلع عن طريقها الى البلاد الخارجية (١٦٨) . وكانت الرملة مركزاً تجارياً هاماً ، وبها فنادق جيدة(١٦٩) . وكانت حلب من

اكبر الاسواق التجارية ، وكانت تضم بين ارجائها فنادق كثيرة ، واسواق خاصة بكل تجارة .

جـ ـ التجارة الخارجية :

كانت بلاد الشام مركزاً تجاريا ، وطريقا ناقلا للمتاجر . وعلى الرغم من ذلك ، فان التجارة الخارجية فيها ، لم تكن تتناسب مع موقع بلاد الشام الهام بين الشرق والغرب ، ولا مع ما يتوافر في البلاد من مواد أولية تحتاجها الدول الاسلامية الاخرى ، والدول المجاورة . وذلك للاسباب المذكورة سابقا ، وعلى راسها الاحوال السياسية ، وقلة الامن . وقد استطاع أهالي الشام التغلب على هذه العوائق الى درجة لا بأس بها ، وذلك بمسيرهم مع قوافل الحج في الموسم ليكونوا في حمايتها (١٧٠) .

وقد سلك التجار في مهماتهم ، أهم الطرق التجارية التي كانت تمر ببلاد الشام في تلك الفترة وهي :

١ ـ الطريق البري من غرب أوربا الى المشرق ، ويبدأ من **بلاد الاندلس** الى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازا المغرب الاقصى والاوسط والادنى عن طريق تونس حتى مصر . ثم يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق ، ثم الى العراق مارا بالكوفة وبغداد (١٧١) .

٢ ـ الطريق النهري طريق الفرات . فقد كان صالحاً للملاحة من الموضع الذي فيه مدينة سميساط . فكانت تنقل فيه التجارة بين الشام وبغداد . وعلى حين كان هـذا الطريق مرغوبـاً تجاريـاً ، فانه لم يكن مهما بالنسبة لنقـل المسافرين (١٧٢) .

وقد تاجرت بلاد الشام بمنتجاتها الزراعية والصناعية مع الدول الاسلامية ، فحمل تجار الشام بضائعهم كالفاكهة والسلاح والحديد الى عاصمة الخلافة العباسية (١٧٣) ، كما صدورا الى الفسطاط الحديد لصناعة الاسلحة (١٧٤) . واستوردوا منها الجلود (١٧٥) .

وأهم المواد الزراعية والحيوانية التي صدرتها بلاد الشام الى البلاد الاسلامية الاخرى الزيتون ، والتين المجفف ، والخرنوب ، والزبيب ، والتفاح ،

والقطن ، والحبوب ، والعسل ، وقلب اللوز ، والارز ، والاشنان ، والجبن ، والاغنام (١٧٦) ، والرمان (١٧٧) .

وأما المواد المصنعة فأشهرها الزيت(١٧٨)، والسبح، والصابون ، والفوط، والمرايا وقدور القناديل ، والخرز والزجاج المخروط ، والابر ، وشقاق المطارح، والكاغد ، والبز ، وثياب المنيرة والبلعيسية ، والديباج ، والحبال ، والسكر ، ودهن البنفسج (١٧٩) .

وكانت بلاد الشام معبرا وطريقا للتجارة الاوربية الى عاصمة الخلافة ، والى بلاد المشرق الاقصى . وظهر في هذا المجال في بلاد الشام منذ القرن الثالث، التجار الراذانية ، وهم تجار يهود كانوا يبحرون بتجارتهم من مقاطعة بروفانس بفرنسا ، ويحملون الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور حتى انطاكية التي كانت محطة لتجارتهم ، ثم تنقل هذه البضائع برا حتى الفرات ثم الى بغداد ، وهناك يعاد تصدير بعضها الى عمان والهند والصين (١٨٠) . وكذلك كان لمدينة أمالفي الايطالية علاقات تجارية مع انطاكية (١٨١) .

وهكذا فانه يمكننا القول انه على الرغم من الصراعات السياسية التي كانت تجري أحداثها في الارضي الشامية في تلك الفترة ، وعلى الرغم من قلة الامن ، فقد نشطت التجارة في المدن الساحلية مثل طرابلس وبيروت وصور ، وسائر الموانىء الساحلية الاخرى ، بسبب وقوعها على البحر المتوسط ، الذي كانت التجاره عبره نشطة . الى جانب نشاط بعض المدن الداخلية .

وعلى الرغم من اشتغال أهالي الشام بتجارة البحار ، الا ان مجال تجارتهم في هذه الفترة ، ظل أكثر محلية من تجارة بعض البلاد الاسلامية الاخرى (١٨٢) .

---

(١) التنوخي : المستجاد من فعلات الاجواد ، تحقيق ونشر محمد كرد علي ، طبعة المجمع العلمي العربي ، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦ م ص ١٨٤ - ١٨٦

- الفرج بعد الشدة ، مطبعة الهلال بالفجالة مصر سنة ١٩٠٤ ، جزءا ، ص ٩٣ - ٩٨

- كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٨ - ٢١٩

(٢) كان بيت مال دمشق في صحن الجامع الاموي ، مرفوعا على ثمانية أعمدة . وكانت حيطانه مرصعة بالفسيفساء . انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٨٢ و ص ١٥٧

(٣) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٥

(٤) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ ، جزء ١ ، ص ١٩٧ ويقال بأن هذه التلجئة كانت موجودة في عهد الامويين . وكان هذا النظام بداية لنشوء نظام الحمايات الذي شاع في الخلافة الاسلامية في الفترة المتأخرة .

(٥) محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ١٠٠

ـ احمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٢٢ ، وجزء ٢ ، ص ١٠

(٦) هو أمير الرملة . انظر ابن سعيد الاندلسي : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الاول من القسم الخاص بمصر ، ص ١٥٣ ـ و ص ١٥٥

(٧) ابن سعيد الاندلسي : المصدر السابق ، ص ١٥٥

(٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ٦ ص ٣١٨ ـ ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٧٩
CANARD; Sayf Al Dawlal., P. 43.

(٩) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٧

(١٠) ابن حوقل : صورة الارض ، طبعة ليدن ١٩٣٨ ، ص ١٧٥

ـ وانظر تفاصيل الجباية في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك في زيدان : التمدن الاسلامي ، جزء ١ ، ص ١٧٦

(١١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن مطبعة بريل ١٩٦٧ ، ص ١٠٤

ـ كرد علي : الادارة الاسلامية ، ص ١٤٤ وانظر أيضا فيما بعد الثروة الزراعية .

(١٢) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٥

(١٣) نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، وهو يلي ابن خرداذبة المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٨٩ م ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧

(١٤) الارتفاع : الايراد والضريبة .

(١٥) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، منشورات الاعلمي بيروت ١٩٧١ ، ص ١٥١

(١٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، جزء ٩ ، ص ١١٦ ـ ١١٧

(١٧) مخطوطته ، مجلد ٦ ، ورقة ٥٢

(١٨) انظر قدامه بن جعفر : المصدر السابق ، ص ٢٥١
ـ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، مطبعة الهلال طبعة رابعة ١٩٢٦ ، جزء ٢ ، ص ٥٤ و ٥٩ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، جزء ٢ ، ص ٢٨٩ وجزء ٣ ، ص ٢٩٤

(١٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٩ ـ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٨٩ م ص ٧٥ ـ ٧٩ ـ زيدان : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٥٩ و ص ٦١

(٢٠) زيدان : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠٧ حتى ١١١

(٢١) ابن حوقل : المصد رالسابق ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩

(٢٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٩

(٢٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠٤ . ويذكر كرد علي : في كتابة الادارة الاسلامية ، ص ١٤٤ ذلك ولكن مع بعض التغيير دون ذكر المصدر الذي استقى منه المادة

(٢٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الثانية ، قسم اول ، تحقيق المنجد ، ص ١٦٦

(٢٥) CANARD : Sayf Al Dawla - PP. 28 - 29 -

(٢٦) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ص ٢١٣

(٢٧) كرد علي : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٥

(٢٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جزء ١ ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨

(٢٩) البلاد ذري : فتوح البلدان ، طبعة بريل ١٨٦٦ ، ص ١٥١

(٣٠) محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ، دار المعارف بمصر ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨

(٣١) المجلة التاريخية للجمعية العراقية للتاريخ والآثار ، العدد الثالث ١٩٧٤ ، مقال عن تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم الاسلامي ، للدكتور عواد مجيد الاعظمي ، ص ٢٣٨

(٣٢) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣

(٣٣) هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري من مواليد انطاكية ، التحق بمجلس سيف الدولة ، وكان أمينا على خزانة كتبه . تغنى كثيرا بذكر حلب والرقة . كان يحب وصف الازهار ومنها الورد والنرجس ، توفي سنة ٣٣٤ هـ وهو يناهز الخمسين . انظر ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٩٨ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ ـ ٤٦٥

(٣٤) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢
(٣٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢
(٣٦) ابن العديم : بغية الطلب ، مخطوطة ، مجلد ٤ ورقة ٩٧ ــ ٩٨ وهذا ما يعرف في التاريخ الاسلامي بروك الارض .

(٣٧) حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جزء ٢ ، ص ١٦٥
(٣٨) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٦ ــ ١١٧ ــ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ ــ العيون والحدائق ، الجزء الاول ، ص ٤٠٨
(٣٩) ابن العديم : بغية الطلب ، مجلد ٦ ، ورقة ٥٢
(٤٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١
(٤١) ابن حوقل : المرجع السابق ، ص ١٧٤

(٤٢) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، جزء ٤ ، ص ٩٥ ــ ٩٦
(٤٣) هي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه . انظر المنجد ، مادة رحل
(٤٤) الاصطخري : صور الاقاليم ، طبعة ليدن ١٩٦٧ ، ص ٤٥
(٤٥) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٦
(٤٦) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٦
(٤٧) القلقشندي : صبح الاعشى ، جزء ٤ ، ص ٨٦
(٤٨) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٠
(٤٩) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٠
(٥٠) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٢
ــ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ و ص ١٧٤
ــ الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٤

(٥١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨ و ص ١٢٦
(٥٢) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٢٢١
(٥٣) وقد نقل الينا ذلك عن ابن حوقل كل من :
ــ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٩
ــ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٧
(٥٤) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٧
(٥٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٠ و ص ١٦٢ و ص ١٧٨
(٥٦) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨

(٥٧) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨١ و ص ١٧٨
(٥٨) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٦ ـ سرور : المرجع السابق ، ص ١٣١
ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢١
(٥٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٢
(٦٠) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٦
(٦١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٣ ، وجزء ٣ ، ص ٣٢١ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٠
(٦٢) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣
(٦٣) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٦
(٦٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦١ ، و ص ١٦٢
(٦٥) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧

(٦٦) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزء ٢ ، ص ٣٨٩
(٦٧) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧
ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٧
(٦٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٣ و ص ١٧٦
ـ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩
(٦٩) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٦ و ص ١٨٢
(٧٠) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٧
(٧١) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦١ ـ ١٦٢
(٧٢) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨

(٧٣) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٦ و ص ١٧٩ و ص ١٧٥
(٧٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٤
(٧٥) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨
(٧٦) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٢ و ص ١٧٨
(٧٧) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٤
(٧٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨١
ـ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٦

ـ الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٦
(٧٩) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٨ و ص ١٨١
ـ القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤
(٨٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، ص ٣٠٣
(٨١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٢٧ و ص ٨٦
(٨٢) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧

(٨٣) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١
(٨٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٠
(٨٥) عن الصنوبري انظر فيما سبق أما كشاجم فهو من الشعراء المشهورين وقد نسخ السري ديوانه واضاف اليه من شعر الخالديين ليثبت سرقتهما للشعر .
(٨٦) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧
(٨٧) الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ٤٧
- ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٢
- آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٨
(٨٨) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٦
(٨٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٦
(٩٠) المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٣٠٧ - ابن العديم : مخطوطة بغية الطلب ، جزء ٨ ، ص ٢٠٧
(٩١) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٠
(٩٢) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١
(٩٣) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٨
(٩٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤
(٩٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٣
(٩٦) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٨
(٩٧) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٧ - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٩
(٩٨) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٢ لسنة ١٩٢٢ ، ص ٢٢
(٩٩) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١١٣
(١٠٠) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، المقدمة ص ى
(١٠١) مجلة المجمع : جزء ٢ ، ص ٢٢
(١٠٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ و ص ١٧٤
(١٠٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ، ص ٢٩٢
(١٠٤) احمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٥
(١٠٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ و ص ١٧٤
(١٠٦) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٩٨
(١٠٧) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ ، مقال لعيسى اسكندر المعلوف ، حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها ، ص ٢٢
(١٠٨) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧
(١٠٩) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٩ وجزء ٤ ، ص ٣٩٦
(١١٠) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤
- القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١١١

- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٨
(١١١) انظر القصة كاملة في التنوخي : المستجاد من فعل الاجواد ، ص ١٣٤ - ١٣٥
(١١٢) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٢ ، ص ٢١ - ٢٢
(١١٣) مجلة المجمع ، مجلد ٢ ، ص ٢٢
(١١٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٤ و ص ١٨٤
(١١٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤
(١١٦) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٧
(١١٧) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٥
- احمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٦
- مجلة المجمع العلمي ، مجلد ٢ ، ص ٢٢
- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٥
(١١٨) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٧
(١١٩) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٢
(١٢٠) أبن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٧ و ص ١٨٠
(١٢١) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧
- محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٢
- آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٤
(١٢٢) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٤
(١٢٣) الثعالبي : لطائف المعارف : ص ١٥٧
(١٢٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧
(١٢٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٠
(١٢٦) انظر عن ذلك كل من الجاحظ : المحاسن والاضداد ، ص ١٠٢ - والتنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ١ ، ص ١٦٣ والمستجاد من فعلات الاجواد ، ص ٣٥ - ٤٠
- ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٥ ، قسم ثاني ، ص ٦٥ وجزء ٦ ، ص ١٢٨
(١٢٧) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٢
(١٢٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٩
(١٢٩) انظر فيما سبق .
(١٣٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢
(١٣١) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٠
(١٣٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٨
(١٣٣) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الاحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، ص ٢٢٩
(١٣٤) عطية القوصي : المرجع السابق ، ص ٢٣٣
(١٣٥)
LANE POOLE : Catalogue of the Collection of Arabic Coins, P. 135.
(١٣٦) Ibid.,
(١٣٧) Ibid.,

(١٣٨) Ibid.,
(١٣٩) Ibid.,
(١٤٠) Ibid.,
(١٤١) Ibid.,
(١٤٢) Ibid.,
(١٤٣) Ibid.,

(١٤٤) الفلس = $\frac{1}{24}$ من الدرهم ، انظر :

ـ عطية القوصي : المرجع السابق ، ص ٢٣٠

(١٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، جزء ١ ، ص ٦٠

(١٤٦) LANE POOLE : Op. cit., P. 121.

(١٤٧) Ibid : PP. 121 - 122.

(١٤٨) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ص ١٤٣

(١٤٩) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٦٢

(١٥٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٨٣

(١٥١) حورية عبده سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة الفسطاط منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية ، ص ١٣٢

(١٥٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٠٧

(١٥٣) انظر فيما سبق .

(١٥٤) حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص ١٣٣

(١٥٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٢

(١٥٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ٢٣٥

(١٥٧) من أجل أسواق دمشق : انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تحقيق المنجد ، مجلد ٢ ، قسم ١ على التوالي ص ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١

(١٥٨) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٤٢

ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣٠

(١٥٩) ابن جبير : رحلته ، ص ٢٧٨

(١٦٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤١٢

(١٦١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٣

(١٦٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ٤٠٠

(١٦٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٩

(١٦٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٣

(١٦٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧

(١٦٦) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٠

(١٦٧) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٢٦
(١٦٨) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٩
(١٦٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٢ و ص ١٦٤
(١٧٠) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٧ ـ ٣١٨
(١٧١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٠
(١٧٢) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٨٩
(١٧٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٥ ٣ـ ٣٦٦
(١٧٤) حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص ١٠٧
(١٧٥) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٩٨
(١٧٦) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ـ ١٨١
(١٧٧) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٩٨
(١٧٨) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٨٩
(١٧٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ـ ١٨١
(١٨٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦
(١٨١) محمد جمال‌الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٥
(١٨٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ص٢٥٨ـ٢٥٩

مجلتان تاريخيتان

نشرت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (تموز ١٩٨٠) (١) في باب التعريف والنقد ، مقالة عنوانها : **مجلتان تاريخيتان** . ويسعد مجلة دراسات تاريخية ان تقتطف من جناها الطيب هذا المقال .

- ١ -

في غمرات الصراع الدولي الراهن ، لعله لم تعان أمة من الامم ما عانته وتعانيه الامة العربية من وطأة الاستعمار والامبريالية والصهيونية . لقد بدأت الامة العربية صراعها الدامي العنيف مع الاستعمار الغربي في التاريخ المعاصر منذ ان قام بعدوانه السافر الغادر على بلاد الجزائر واحتلها عام ١٨٣٠ (١٢٤٦ هـ) (٢) . ثم امتد الصراع امتداد هذا الاستعمار الغربي الذي القى بظله الثقيل البغيض على البقاع العربية قطراً فقطراً ، يستغلها ويستنزف ثرواتها ، حتى كاد يشمل الارض العربية كلها . وناضل العرب النضال الطويل المرير ، وطرقوا بأيديهم المضرجة ابواب الحرية مائة عام او تزيد ، وظفروا بعد التضحيات الجسام بالاستقلال : رفعت سورية العربية رايته الاولى حين جلا المستعمر الغاصب عن أرضها في السابع عشر من نيسان ١٩٤٦ ، ولم يستطع الاستعمار وقف اندفاع اخواتها العربيات التي تسعرت أرضها ناراً عليه ، وانسحب من الارض العربية ، مكرها ، مغلوبا على امره .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٥٥ ، ج ٣ : ٥٦٠ ـ ٥٧٣) .

(٢) كانت طلائع هذا التعدي الاستعماري على البلاد العربية في التاريخ المعاصر قد أطلت برؤوسها البشعة يوم جاس نابليون بجيوشته ديار مصر والشام ، وفي ركابه أدلاء الصهيونية فارتد على عقبية مذموما مدحورا .

وراع الاستعمار الذي مزق شمل الامة العربية دهراً ، وعاث في أرضها فساداً ، ونهب خيراتها ، وأثار كل النزعات الضالة ، والنزوات المنحرفة ، والاهواء الشريرة ، أن يشهد مولد الفتوة العربية من جديد ، تتفتح للحياة الحرة الكريمة ، وتجاهد التفرقة والتجزئة لترسي أسس الوحدة ، وتعمل ليل نهار جادة نشيطة لتقضي على التخلف والجمود ، وتسعى يحدوها المثل الاعلى لبناء الحضارة العربية الحديثة ، وملء عينيها وفيض قلبها التفاؤل والامل ، يقترنان بالعزم والتصميم في ارادتها . واندفعت الامبريالية المذعورة ، وعلى راسها الولايات المتحدة الامريكية ، لتنزل بالامة العربية ضربتها القاصمة ، تريد لها الا تنهض بعدها . وتعاونت الاطراف الحاقدة ، وتكالبت على الامة العربية ، لا يصدها رادع من خلق ، ولا وازع من ضمير ، ولا مسكة من شرف ، حتى اقامت دولة العدوان الشريرة العنصرية في قلب الوطن العربي ، تمزقه وتنهكه وتشرد أبناءه ، وتحول دون وحدته وتقدمه وعودته الى ساحة الحضارة الانسانية . لقد كان هم الاستعمار والامبريالية الاول هو الا يسمحا للعرب بالتحرر والوحدة ، وان يعوقا ، بمختلف الوسائل والاساليب ، كل خطوة عربية نحوهما . يقول الشيخ عبد الرزاق البيطار (ت ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦-١٩١٧ م) في كتابه : (حلية البشر) ، وهو يتحدث عن أعمال محمد علي باشا والي مصر واصلاحاته وهزيمته الدولة العثمانية : « فنشأ في مصر جيل جديد ، وعصر جديد ، بسطت فيه طرق العمران والتمدن والقوة في مدة يسيرة ، فافتتح النوبة وسنار ، واستولى على الشام والحجاز .. بل امتد بالاستيلاء الى قرب الآستانة في الاناطولي ، ... فتعصب الانكليز الى الدولة [العثمانية] في الظاهر لتوطيد أركانها ، وفي الباطن خشية من انشاء دولة اسلامية شابة ذات قوة مثل تلك ومركزها مصر ، ... فلذلك حاربته انكلترا مع الدولة العثمانية التي هي اذ ذاك على ضعف شديد ... فقهروا محمد علي ، ولكن لاتمام مقاصد انكلترا لم تسمح للدولة [العثمانية] بالاستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار اليها أيضا ، فكان الاوفق لها ابقاء مصر على شبه استقلال ليضعف كل من الجهتين ... » (١) .

بهذه الكلمات القليلة المعبرة رسم الشيخ البيطار أفاعيل الاستعمار الحاقد على الامة العربية ، وكشف عن مطامعه وغاياته منذ مطالع النهضة العربية . وها هي ذي الامة العربية اليوم تستقبل القرن الخامس عشر الهجري ، وهي

(١) حلية البشر ٣ : ١٢٤١ - ١٢٤٢ .

تواجه أقسى مرحلة تمر بها في تاريخها ، قد انشب الاستعمار الظالم ، وفي طليعته الولايات المتحدة الامريكية والصهيونية ، مخالبه في جسدها ، يريد أن يمزقها أشلاء ، وداس بقدميه كل القيم الروحية والمبادىء الخلقية ، وتنكر لحقوق الانسان أبشع تنكر ، فعمل وساعد على طرد شعب فلسطين العربي من ارضه ، وسلبه وطنه ليحل محله غرباء معتدون أتوا من أقاصي البلاد ، لا يربطهم غير الحقد والجشع ، يتابعون العدوان والسلب ، ولا يلقون غير التشجيع والتعزيز والعون من الاستعمار .

ان هذا الموقف الموجع الفاجع الذي فرضته الامبريالية الامريكية والصهيونية على الامة العربية تريد أن تذلها وتسكتها لن يطول أمده ، أمام ارادة الجماهير العربية المتحفزة لحريتها ووحدتها ، المندفعة أبدا تناضل في كل ميدان وساحة : تحارب التخلف وما يجر اليه ، وتحث على التقدم وما يتطلبه ، تدعو العلماء أن يتبتلوا في محاريب العلم والتكنولوجيا ليضعوا ثمرات بحوثهم في خدمة المجتمع العربي وتطوره ، تهيب بذوي الاقلام ورجال الفكر أن يقفوا نفوسهم وطاقاتهم لحشد قوى الامة ، ولخدمة أهدافها ، تنادي رجال الحرب أن يعدوا العدة للدفاع عن الوطن ، والذود عن الحمى ، شعارها : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . انها تريد أن تخوض معركتها الضارية مع الاستعمار بكل وجوهها ومتعدد مناحيها (١) ، قد جندت لها كل أسلحتها ، كل ما قدرت عليه وأطاقته ، واجتثت من طريقها كل المثبطات والمعوقات التي زرعها الاستعمار والتخلف . وسيكون حليفاً قوياً لها في معركتها الكبرى الحق ومنطق التاريخ يؤيدانها في مطالبها ، ويستجيبان لها في نضالها العادل المرير . لقد دنت ساعة الخلاص ، وأذن شروق الفجر ، والويل لمن يحاول وقف مسيرة الشعوب نحو حريتها ، وحقها في الحياة والكرامة .

(١) اذا كانت المعركة العربية الاولى مع الاستعمار والامبريالية في التاريخ المعاصر قد بدأت عام ١٨٣٠ م باحتلال المستعمر الفرنسي أرض الجزائر لتنتهي في عام ١٩٦٧ م بطرد المستعمر الانكليزي من اليمن الجنوبي ، فان معركة العرب الثانية مع الامبريالية والصهيونية تدور رحاها على أرض فلسطين الطاهرة ، وسيواصل العرب كفاحهم في سبيل حريتهم واستخلاص أرضهم حتى يتحقق النصر وتندحر الامبريالية والصهيونية . وان للباطل جولة ثم يضمحل .

- ٢ -

من هذا المنطلق اتطلع الى مظاهر النشاط الثقافي العربي ، وبهذا المنطلق أرصده واتتبعه . ارفض كل ما لايندرج في مضمونه او يخالف عن غايته وهدفه، واتقبل بالرضا والارتياح كل ما يعمل على ترسيخ الاصالة العربية والهوية القومية ، ويشق طريق التقدم ، ويهيىء النفس العربية للتفتح والابداع ، ويغذي روح النضال والتفاؤل لتحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الحر الموحد.

— وفي هذا الاطار نتابع الحركة الفكرية الثقافية التي تدعو الى اعادة كتابة التاريخ العربي كتابة منهجية ناقدة ، تستوحي المبادىء والنظريات التي افضت اليها التجربة التاريخية العالمية ، حصيلة هذا التطور الانساني العظيم في الفكر والفلسفة وصناعة التاريخ ، ويتوافر لاصحابها كل الصفات والشروط ، وتتهيأ لهم كل الوسائل والادوات التي يطالب بها (النقد التاريخي) مما يتيح لنا معرفة الماضي العربي معرفة صحيحة صادقة ، تنفي كل ما سطر حول تاريخنا من الزيف والتحريف ، وتزيح كل ما علق به من الخرافة والاباطيل، وتنفذ الى الخفي المستسر الذي كان المحرك الفعال في الاحداث والوقائع ، تكشف عنه وتحدد دوره ، بدل الانخداع بالمظاهر الطافية على السطح .

— وأعرض هنا لمجلتين تاريخيتين هما أحدث ما صدر في هذا الباب :

أما المجلة الاولى فهي مجلة البحوث التاريخية التي يصدرها مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي . اطلعت على اعدادها الثلاثة الاولى (وهي عددا عام ١٩٧٩ ، والعدد الاول لعام ١٩٨٠) ، واذا كان الحافز المباشر لانشاء مركز البحوث والدراسات واصدار مجلته التاريخية انما هو قلة الكتب المؤلفة في تاريخ ليبيا ، وكثرة التحريف والخطأ في المؤلف منها (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٩ — ١٢) فان المجلة قد خرجت منذ عددها الاول على هذا الاطار الضيق ، ودعت دعوة صريحة الى أن تلتقي على صفحاتها « أقلام المختصين في مغرب الوطن العربي ومشرقه ، وغيرهم من أجانب ، المهتمين بالدراسات التاريخية العربية الاسلامية والعالمية ، لنعمل جميعا بأمانة ومنهجية على خدمة البحث العلمي ، وترقية الدراسات التاريخية » (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٧ ، ٨) .

لقد أرادت المجلة أن يعالج المختصون على صفحاتها موضوعات التاريخ العربي بنظرة جديدة ، هدفها البحث عن الحقيقة التاريخية ، مما يهيىء

للمشاركة الجادة في اعادة كتابة التاريخ العربي « على أسس علمية ومنهجيـة سليمة » ، ويجنبنا الاخطاء التي ارتكبها المؤرخون الغربيون ومـن سار على دربهم بحق تاريخنا عمدا وبغير عمد . وفي مقالـة : (لماذا كتابة التاريخ ؟) أبان الدكتور محمد الطاهر الجراري المحاولات الانسانية في كتابة التاريخ ، والمراحل التي مرت بها ، والتجارب التي عاناها المؤرخون والمفكرون في سبيـل الوصول الى الحقيقة التاريخية (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٨٣ – ٨٦) .

ونظراً لقيام مركز البحوث في ليبيا فقد كانت أكثر موضوعات العددين الاول والثاني مستمدة من التاريخ الليبي مثل : منظمة « تشكيلاتي مخصوصة » السرية ودورها في الجهاد الليبي ، حملة رمضان باي على غدامس ، حركـة الترجمة في ليبيا ، الطريق من طرابلس الى فزان ، روفلس وليبيا (مترجمـة الوثائق العثمانية كمصدر لتاريخ ليبيا الحديث ، منطلقات نظرية في منهجية التاريخ الليبي ، آفاق جديدة حول كتابة التاريخ الليبي . وقام الى جانبها بحوث من مثل : جبل طارق ، نحو مفهوم للحضارة الاسلامية ، وهو أمر قد نبهت اليه المجلة في افتتاحية العدد الاول ، فقد ذكرت أن « معظم مادة هذا العدد ان لم تكن كلها تتعلق بتاريخ ليبيا » ، وبعد أن بينت مرد ذلك أهابت بكل « البحاثة والدارسين في تاريـخ الشمال الافريقي والعربي خاصة والاسلامي والعالمي عامة » أن يوافوها ببحوثهم وآرائهم ، لان المجلة قد فتحت صفحاتها لهم جميعا مرحبة . ثم بدا شيء من التوازن في مقالات العدد الاول من المجلة لعام ١٩٨٠ ، فظهرت فيه مقالات مثل : امارة عربية أندلسية في جزيرة اقريطش، الحياة الفكرية في العالم الاسلامي في القرن الثاني عشر الهجري ، الصـلات التاريخية والحضارية للعرب قبل الاسلام ، مما كشف عن وجه المجلة العربي ، وأبان ملامحه جلية واضحة . وعززت مقالة : حول تحرير التاريخ من الفكر الاستعماري (المجلة ، ع ٢ ، س ١ : ٥١ – ٦٣) الفكرة التي تنادي بهـا المجلة بشواهد جديدة بغيـة العمل على انتزاع الفكر الاستعماري المترسب في ثقافتنا وقيمنا ...

وتمشياً مع هدف المجلة ، وتحقيقاً لغايتها التي رمت اليهـا في كتابة التاريخ العربي كتابة علمية نقدية ، فقد أوضحت المجلة في صدر عدديهـا (الثاني لعام ١٩٧٩ ، والاول لعام ١٩٨٠) أنماط البحوث التي تؤثر نشرها ، وتفضلها على ما سواها . وأفردت المجلـة في صفحاتها بابا لمراجعات الكتب التاريخية الصادرة حديثا وتقويمها ، مثل كتاب لمحات عن الاوضاع الاقتصادية

في ليبيا في أثنـاء العهد الايطالي ، كتاب خلاصة النازلة التونسية ، تاريـخ المغرب ـ محاولة في التركيب ، المشرق العربي والغرب .

ـ اننا مع المجلة في خطتها التي اعلنتها في تقدير آراء الآخرين واحترامها ، وفي اعتمادها الحوار العلمي الهادىء ، في جو من النزاهة والصراحة ، لمناقشة وجهات النظر ، وتلاقيها ، وعرفان بعضها بعضا (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٧) ، فهذا النهج هو وحده الكفيل بنتاج فكري خصب يدنو بالمجلة من الهدف ، ويضمن لها النجاح في تأدية رسالتها التي نصبت نفسها لها .

ـ واننا نؤيد المجلة في دعوتها الرامية الى كتابة التاريخ العربي بنظرة جديدة تنشد الحقيقة ، وترمي الى تنقية تاريخنا مما علق به مـن مفتريات كاذبة ، أو ما خالطه من خرافات ومزاعم باطلة ، وتجنبنا المزالق التي زلت بها أقدام مؤرخين باحثين سابقين ضلوا عن الطريق ، اذ تعمدوا تشويه وجه الحق ، أو غم عليهم تبينه .

ويقتضيني القول أن أشير هنا الى أن هذا النهج العلمي القومي الذي التزمت به المجلة دقيق ، بالغ الصعوبة ، يتطلب كثيرا مـن الحيطة والروية والاناة . فقد تجمح بعض الاقلام وهي تعالج موضوعا يتناول قطرا من أقطار العروبة ، فتنغمس في موضوعها انغماسا تغيب معه عنها صورة الوحدة العربية التي يندرج القطـر حضاريا وثقافيا في منظومتها ، وتتناسى التفاعل الحي المتبادل بين هذه الاقطار العربية ، فاذا هي تنزلق في الاقليمية البغيضة التي تخالف عن حقيقة مسيرة التاريخ العربي ، ولا تتفق مع هدف المجلة . دع عنك تلك الاقلام التي لا تؤمن بوحدة العروبة مكابرة وانكاراً ، ولا تستمد من هذا المداد فيما تسطره من صفحات . فمن الخير ان تدقق المجلة كل التدقيق حتى لا نقرأ كلاما بعيدا شديد البعد عن الحقيقة التاريخية ، ويضاد مقاصد المجلة والغايات التي تروم بلوغها .

كذلك فان هذا الموقف الناقد الذي تقفه المجلة من المؤلفات المسطورة في التاريخ العربي ، وما شابها مـن الاهواء التي انحرفت بهـا عن الجادة ، ودعوتها الى اعادة النظر لكتابة التاريخ العربي كتابة تستوحي مبادىء النقد التاريخي ، وتستمد مادتها مـن الوثائق والنصوص الاصيلة الاساسية قـد يؤدي ببعض الباحثين أن ينقلب عملهم من بحث عن الحقيقة ومعرفة الماضي

كما وقع ، بقوتـه وضعفه ، بابداعه وعقمه ، الى محاولة لتمجيـد الماضي والدفاع عن كل ما فيه ، واختيار النصوص والوثائق التي تساند مثل هذا الاتجاه المتعصب ، ذي الافق الضيق ، المجانب للنظرة العلمية . انـه حقـا موقف مثل حد السيف دقة وصعوبة ، يتطلب ما يتطلب من الجهد والمثابرة والمتابعة والحوار والمراجعة لنظل معصمين بسكان السفينة (١) لا نفـارقه ، ماضين على الجادة .

هل يحسن أن أتحدث عن الحلة القشيبة التي ظهرت بها المجلة ، وأن تعاوناً وثيقاً قد تم بين مركز الدراسات والبحوث وجامعة حلب التي تولت طباعة أعداد المجلة الثلاثة ، فأحسنت طباعتها واخراجها . لقد نوهت المجلة بهذا التعاون المثمر الخير الذي نرجو أن يؤتي أكله اضعافا مضاعفة (المجلة ، عدد حزيران ١٩٧٩ : ٥ ، عدد كانون الثاني ١٩٨٠ : ١٦١) .

لا نملك الا أن نرى في الاعداد الثلاثة من مجلة البحوث التاريخية باكورة طيبة لجنى نرجو أن يوافينا وخياره فيه ، وأن تمضي المجلة في طريقها القاصد الى هدفها ، تحدوها الرغبـة في المشاركة بكتابة التاريخ العربي كتابة تجلو صورته بكل قسماتها وسماتها ، تتلألأ بنور الصدق والحق .

- ٣ -

أما المجلة التاريخية الثانيـة فهي مجلة (دراسات تاريخية) ، وهي مجلة علمية فصلية تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب ، تصدرها لجنـة كتابـة تاريخ العرب بجامعة دمشق . وهي لجنـة هدفهـا الاول أن يكتب تاريخ العرب في موسوعة كتابـة منهجية ناقـدة ، ولعله يحسن أن نوطىء للحديث عن هذه المجلة وخطتها ونهجها بكلمة قصيرة نوجز بهـا الوقائع التي أفضت لصدورها .

ـ بدأت القصة بدأهـا المنطقي . فتاريخ العرب لم يكتب على حقيقته حتى اليوم . لقـد استطاع المؤرخون الغربيون ذوو النزعـة الاستعمارية ، وأضرابهم ممن لاذ بهـم وسلك مسلكهم ، أن يشوهوا صورة التاريخ العربي ، وان ينفثوا مـن سمومهم وأكاذيبهم ما يرضي مطامعهم الجشعـة ، ويلبي

(١) سكان السفينة : الخشبة التي تعدل بها السفينة في سيرها .

مآربهم الاستعمارية الخبيثة . كان كل عربي يمضه الالم وهو يقرأ ما لفقه الغربيون الاستعماريون ومن مشى في آثارهم ، وينتظر القلم الحر الذي ينشد الصدق ، ويستوحي في كتابته المنهج التاريخي الناقد ، ويصور الماضي بملامحه وقسماته دون تزيد او تحريف . كذلك فقد عانى التاريخ العربي ما عانى من ذوي النزعات الاقليمية ، والنظرات السياسية الضيقة المتعصبة ، ومن التقليديين المحافظين وأصحاب الثقافات المحدودة الذين لم يخالطوا روح العصر ، ولم تمسهم ثقافته الا مساً رفيقاً لا يجاوز السطح . لقد اخطؤوا جميعا ، وحرفوا وجانبوا الحق ، وارهقوا التاريخ ، استجابة لنزعاتهم الخاصة وأهوائهم ، ونظراتهم السياسية والعقائدية . ولا ينكر منكر مالتلك البقية الباقية من المؤرخين العرب ومن الاجانب المنصفين الذين عالجوا التاريخ العربي بروح ناقدة نزيهة ، تبغي الحقيقة ، وتعتمد في بحوثها النظرة التاريخية المنهجية ، وتتثبت من النصوص والوثائق التي تستمد منها احكامها . ولم يكن بد من مبادرة علمية تضم كل هذه الجهود العربية ، وتنسق بينها لتعمل جميعاً وفق خطة مرسومة مدروسة ، للنهوض بهذه المهمة الكبيرة ، مهمة كتابة التاريخ العربي في موسوعة تستجيب لهذه الرغبة العميقة في معرفة الماضي المعرفة الصحيحة ، وابراز الجانب الحضاري الذي طال تناسيه ، وفي تبين التيارات الاساسية التي حركت أحداثه ، والاسباب العميقة التي تفسر وقائعه ومساقاته في نهضاته الحضارية وابداعه وفيضه ، وفي تصديه وتوقفه وعقمه . وبدأت اجتماعات متتالية في دمشق ، ضمت حلقاتها المؤرخين والمفكرين القوميين والباحثين ، وكانت مشاركات جادة خصبة منتجة بلغت ذروتها وأوجها في عام ١٩٧٦ ، وقد لقيت هذه المبادرة العلمية التشجيع والتأييد من القيادة السياسية ومن جميع المؤسسات الثقافية العلمية في القطر العربي السوري .

وانتهت الاجتماعات الى تشكيل لجنة تحضيرية قامت بتلخيص النظرات التي أثارتها المناقشات الخصبة الجادة ، ودلت على الخطوط الاساسية لمراحل التاريخ العربي ، وعرضت بايجاز للمنطلقات ومبادىء العمل ، ثم ضمت ذلك كله في كراس أصدرته بعنوان (مشروع اعادة كتابة تاريخ العرب ــ دمشق ١٩٧٦) ، ووزعته على المهتمين والمعنيين بالفكرة في مختلف الاقطار العربية ليكون ورقة العمل ، ومنطلق المناقشة في ندوة موسعة يدعى اليها المؤرخون والباحثون العرب ، يغنون في اجتماعهم وحوارهم متضمن المشروع ، ويستكملون جوانبه النظرية والعملية . وجرت اتصالات

ومشاورات مـع المؤرخين والمفكرين العرب ، وانعقدت النـدوة بدمشق في (٢٠ ـ ٢٢) كانون الاول ١٩٧٧ ، وحضرها علمـاء مختصون مـن مختلف الاقطار العربية ، ونوقش المشروع المطروح مناقشة مستفيضة أغنته واضافت اليه اضافات قيّمة . وكان لتبادل وجهات النظر وتقليب الآراء أثره الواضح في الصيغة التي انتهى اليهـا المشروع المقترح . ورات اللجنة التحضيرية ان النتائج التي أسفرت عنها المناقشة لها شأنها واثرها في تحديد النهج الذي سيعتمد لكتابة التاريخ ، واستشفاف خطوطه الكبرى ومنطلقاته . وكان من ابرز توصيات الندوة « اصـدار مجلة (دراسات تاريخية) تكون محكاً للافكـار ، وميداناً لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منهـا بعـد مناقشته » . واستجابت جامعة دمشق ، ووكلت الى لجنة كتابة تاريخ العرب بالجامعة مهمة اصدار المجلة .

ـ كان اول أعمال لجنة الاشراف على المجلة أن اصدرت عـددا تمهيديا من المجلة عام ١٩٧٩ ، يتضمن : مشروع اعادة كتابة تاريخ العرب ، الذي أعدته اللجنة التحضيرية (ص : ٦ ـ ٣٦) ، ويتلوه أعمال ندوة كانون الاول ١٩٧٧ ، وتشمل المناقشة العامة التي شارك فيهـا جميع المنتدين (ص : ٣٧ ـ ٤٣) ، ثـم ما قامت به اللجـان الاربع المنبثقة عـن النـدوة (ص : ٤٤ ـ ٧٠) . وكان صدور هذا العدد التمهيدي ضروريا للتعريف بهذا المشروع الهام ، واطلاع المؤرخين الباحثين والجامعات والمؤسسات العلمية في الوطن العربي على مناقشات الندوة ، وما انتهت اليـه من توصيات ومقترحات ، تفتح الآفاق لعمـل علمي وقومي لـه شأنه وأهميته وضرورته في الحيـاة الثقافية العربية ، وفي احلال التاريخ العربي مكانته التي هو جدير بهـا في تاريخ الانسانية .

وصدر بعد ذلك عـددا آذار وحزيران ١٩٨٠ ، ولم تكن الغاية مـن اصدار مجلة (دراسات تاريخية) أن تضاف مجلة تاريخية جديدة الى عداد المجلات التاريخية العربيـة الاخرى . كان مـن الواضح البين، وهـدف المجلة مستمد من توصيات الندوة ومحدد بها ، أن غايتهـا الاساسية هي أن تمهد وتوطىء وتخلق الظروف الملائمة لتيسير كتابـة **التاريخ العربي** ، هي أن تلتقي عـلى صفحاتها أقـلام الباحثين والدارسـين مـن المؤرخـين والمفكرين ، يتعارفون ويتلاقون حول فكرة مـن أعز الافكار على نفوسنا ، والصقها بقلوبنا ، يناقشونها ، ويقلبون جوانبها ، وينيرون بآرائهم طريق

المجلة ، ويساعدون في طي المراحل الممهدة لبلوغ الهدف المرتجى . وحرصاً من المجلة على تحقيق غرضها ، والوصول الى مقاصدها فقد رغبت الى المؤرخين والمؤلفين أن يوافوها ببحوثهم وآرائهم التي تندرج في هذا الاتجاه الذي تدعو اليه وتعمل له ، وهو اتجاه ذو ثلاث شعب :

١ ـ أن يتناول البحث أو الدراسة فكرة كتابة التاريخ العربي في موسوعة واحدة ، تستوحي مبادىء النقد التاريخي ، وتكشف عن صورة الماضي بكل سماتها وقسماتها . أو ليس من الخير كل الخير أن يتاح للاقلام جميعا مناقشة هذه الفكرة : هدفاً ومبادىء عمل ، مناقشة تغنيها وتكشف عن خصوبتها ، وتوسع من جوانبها ، وأن تعرض بالتالي لهذه الآراء والانظار التي طرحتها ندوة دمشق تتعمقها ، وتقلب وجوهها لتصل الى مقطع الحق فيها .

٢ ـ ان يعالج الباحث أمر دعوة المؤرخين القادرين الكفاة ، والمؤسسات الجامعية والعلمية لتعاون يضمهم ويجمع بينهم ، ويضع الخطط الكفيلة بالافادة من قدراتهم ليتوزعوا هذا العمل العظيم ، وينهضوا بهذه المهمة ، مهمة التأليف والكتابة والمراجعة ، وفق منهج مدروس ، يضمن التنسيق في الجهود ، والدقة في العمل ، والانجاز في المهل المحددة . والمجلة ترحب بكل مقترح في هذا المضمار يساعد على السير خطوة الى الامام ، ويهيىء الوسائل الكفيلة بانفاذ الخطة أو التعجيل بانفاذها ، حتى تستقيم لها الطريقة المثلى في هذا العمل البناء .

٣ ـ ان يقدم الناقد الباحث موضوعا جديدا أصيلا ينسجم مع هدف المجلة ، أو يثير حوارا في موضوعات التاريخ العربي . ان كل بحث في هذا المنحى انما هو امتحان وسبر للمنهج المعتمد المرتقب ، ويرتفع بمستوى الكتابة التاريخية ، ويغني مضمونها .

لقد آثرت مجلة (دراسات تاريخية) أن تفتح صفحاتها لهذا النمط من الكتابة بشعبه الثلاث ، وغايتها من وراء ذلك أن تتعارف الآراء وتتلاقح الافكار ، وتتلاقى وجهات النظر ، وتنضم الجهود الى الجهود في طريق واحدة بدل التبدد والتشتت ، ليبدأ بعد ذلك المرحلة الجادة الاساسية وهو كتابه التاريخ العربي كتابة « تفصح عن معنى الوجود العربي ، ونمائه في

التاريخ » ، وتصور الماضي الصورة الحية الصحيحة الصادقة التي تحرره من أثقاله ، وتعين الاجيال العربية على الثقة بنفسها وبأمتها وبقدرتها على التقدم والابداع .

لقد حملت المجلة أمرا عظيما ، واضطلعت بمهمة كبيرة ، هي التمهيد وتيسير السبل لتعاون بين المؤرخين ورجال الفكر وثيق ، ينهض بكتابة التاريخ العربي في موسوعة جامعة . واننا لنرجو لها السداد فيما قصدت له وانتجته ، وأن نشهد مولد الملحمة الكبرى في حياتنا الثقافية ، ونطالع تاريخنا بماضيه الحافل ، وحاضره ، يمهدان لمستقبل هذه الامة العربية العريقة المستقبل الواعد ، تستأنف به المشاركة الجادة في مسيرة الحضارة الانسانية .

د . شاكر الفحّام

* * *